

مكتبة

أندريا كاميلليري

ثورة القمر

رواية

ترجمة:

أماني فوزي حبشي

ثورة القمر

أندريا كاميلليري

ثورة القمر

روايـــة



ترجمتها عن الإيطالية

أماني فوزي حبشي



ثورة القمر: رواية / أندريا كاميلليري

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmat
twitter.com/alkarmabo
instagram.com/alkarmal

الطبعة الأولى ٢٠٢٤

العنوان الأصلي: La Rivoluzione Della Luna
المؤلف: Andrea Camilleri



تُرجم هذا الكتاب بدعم للترجمة من وزارة الشئون الخارجية والتعاون الدولي الإيطالية.
Questo libro è stato tradotto grazie a un contributo per la traduzione assegnato del Ministero degli Affari Esteri e della Cooperazione Internazionale italiano.
كاميلليري، أندريا.
ترجمتها عن الإيطالية أماني فوزي حبشي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٤

تدمك: 9789778727357
١- القصص الإيطالية.
أ- حبشي، أماني فوزي (مترجمة).
ب- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٧٤١ / ٢٠٢٤

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد فرج

إلى روزيتَّا.



الفصل الأول(*)

نائب الملك يفتتح الجلسة لكن شخصًا آخر يغلقها

بدأت جلسة المجلس الملكي المقدس التي يعقدها نائب الملك دون أنجيل ده جوزمان، مركيز قصر رودريجو، صباح كل يوم أربعاء في العاشرة تمامًا، ذلك اليوم، الذي كان الثالث من سبتمبر عام ألف وستمائة وستة وسبعين.

بدأ كل شيء كالمعتاد باتباع إجراءات محددة صارمة.

أول هذه الأعمال من الساعة السادسة إلى الساعة الثامنة، تفتح خمس وصيفات النوافذ لتغيير الهواء، ويبدأن في كنس وغسيل الأرض، وتنظيف وتلميع أثاث القاعة.

(*) المعروف أن تعبير «Rivoluzione della luna»، يُقصد به دورة القمر لمدة شهر، ونظرًا إلى أن المؤلف أراد أن يلعب على المعنى بالإيطالية بأن كلمة «Rivoluzione» تعني أيضًا ثورة، ومن ثَمَّ يشير إلى ما حدث من انقلاب في الشهر الذي تدور فيه أحداث الرواية، فلقد فضلنا اللجوء إلى الترجمة التي ربما تبدو حرفية لعنوان الرواية، لكنها تحمل المعنى الذي أراده المؤلف. (المترجمة).

تُنظم مقاعد المستشارين الستة؛ ثلاثة على اليمين، وثلاثة على اليسار على جانبَي العرش الذهبي العظيم المحفوظ لأصحاب الجلالة، ملوك إسبانيا، الذين لم تسمح الظروف لأيٍّ منهم ليريح مقعدته عليه إطلاقًا، لأن أيًّا منهم لم يتكرم قَطُّ وينزل إلى هذه الجزيرة.

يقبع العرش على قمة ست درجات عظيمة مغطاة ببساط أحمر سميك.

على الناحية اليمنى للعرش، ولكن أبعد قليلًا، وعلى بُعد ثلاث درجات إلى أسفل مغطاة أيضًا بالبساط الأحمر، يوجد عرش آخر أصغر ومُذهَّب أقل من الآخر، يجلس عليه نائب الملك. على بعد أربع خطوات من المقعد الأخير من المقاعد الثلاثة على اليسار توجد طاولة عريضة بكرسيين. هذان هما مكانا موثِّق البلاط وسكرتير المجلس.

على الجدار خلف عرش الملك عُلِّقت لوحة ضخمة لجلالة الملك كارلوس بوجه كامل، لكن حجمه أكبر أربعة أضعاف. بجوار اللوحة يوجد صليب خشبي ضخم عليه المصلوب. لم ينجح النحَّات في تصوير وجه يسوع بطريقة جيدة، فبدلًا من أن يظهره متألمًا من الحزن والعذاب، أظهر عليه تعبير الغضب والاحتقار. ولأن المستشارين يدركون وجود مثل تلك النظرة فوق رؤوسهم، ولأن لا أحد منهم يتمتع بضمير نقي، فهم يشعرون بالضيق، بل يتجنبون رفع أعينهم تجاه المصلوب.

ما إن ترحل الوصيفات حتى يدخل رئيس الحدادين أليتزيو كانَّاروتو. كانت مسؤوليته أن يفحص الأُطر الحديدية، المخبأة بإتقان

أسفل الخشب، التي تحمل عرش نائب الملك، المصنوع خصيصًا ليحل محل المستخدم قبل ذلك.

حالما يغادر رئيس الحدادين، يدخل معلم رفع المقاييس جاسبانو إنزوليا، ومعه مساعدان. يفحص معلم رفع المقاييس كل المقاعد ويتأكد أنها مصفوفة جيدًا، ولا يفرق بينها شعرة واحدة للأمام أو للخلف. إذ إن أي اختلاف ولو ضئيل يمكنه أن يثير حساسية النواب، فربما يفهمه أحدهم كعلامة تفضيل أو تحقير من قِبل نائب الملك، أو كعلامة على غرور أيٍّ من أعضاء المجلس، ويمكن أن تحدث عواقب وخيمة جراء ذلك، وربما يؤدي الأمر إلى نزاعات وشجارات أو حتى إلى الموت.

في التاسعة والربع فُتح المصراعان الكبيران للباب المذهب للقاعة بواسطة الوصيفين الأولين للبلاط، فوتي وماتشيكيه، اللذين اتخذا موقعيهما، وجهًا لوجه، وفي صلابة لوح خشبي، وهما ينحنيان لكل مستشار يمر بينهما ويتجه ليجلس في المكان المخصص له.

دخلوا وصدورهم بارزة، يرتدون ملابسهم الرسمية، من دون أن يهتموا بأن يتبادلوا انحناءة الوصيفين، الواحد منهم بجوار الآخر تبعًا للأهمية التي يشغلونها في المجلس الملكي المقدس: سعادة دون روتيليو تورُّو ميندوزا، أسقف باليرمو، ودون جوستينو آليكو، أمير فيكاراتسي، كبير قادة العدالة، ودون ألتيريو بينياتو، دوق باتيكاني، رئيس المالية، ودون سيفيرينو لوماشو، مركيز روكَّالوميرا، قاضي الملكية، ودون أركنجيلو لافيرلا، كونت نازو، قائد البحرية، ودون كونو جالُّومباردو، بارون باكينو، كبير الحُكام.

بعدهم دخل موثِّق البلاط دون جيرلاندو موزومارًا، يلحق به سكرتير المجلس دون إرنستو روتيه.

عندئذٍ ذهب كبيرا الوصفاء ليعلنا إلى كبير خدم نائب الملك أن كل أعضاء المجلس حاضرون، ومستعدون في أماكنهم في انتظار أن يتقدم صاحب السمو، دون أنجيل، الواقف خلف الأبواب المغلقة بالدخول.

وقتها كانت الساعة التاسعة والنصف.

عندما وصل نائب الملك، المركيز دون أنجيل ده جوزمان، للمرة الأولى إلى باليرمو، تقريبًا منذ عامين، أدهش الجميع لسببين.

السبب الأول حداثة سنه، نظرًا إلى أنه لم يكن قد أكمل بعدُ أعوامه الثلاثين، ولم يكن هناك قَطُّ، حسب ما يتذكر أهل صقلية، نائب ملك عمره أقل من الخمسين.

السبب الثاني نحافته الشديدة. لم يكن دون أنجيل يمتلك جرامًا واحدًا من الدهن على جسده، فجلده ملتصق مباشرة بعظامه، وكان يزن، كأقصى تقدير، ثلاثين كيلوجرامًا. يمكن لريح قوية أن تُطيره في الهواء مثل ورقة شجر يابسة.

وصل إلى باليرمو بمفرده، لكن بعدها بشهر انضمت إليه ليلًا زوجته، دونًّا إليونورا دي مورا، الإسبانية ولكن من عائلة صقلية، تيتمت في سن عشرة أعوام. بعدها دخلت الدير، حيث درست وتعلمت اللغة الإيطالية ضمن أمور أخرى، لم تخرج منه إلا عندما خُطبت. تزوج دون أنجيل وإليونورا حديثًا آنذاك، قبل حضورها

بثلاثة أشهر فقط. عُرف على الفور أن دونَّا إليونورا تبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا، وتتمتع بجمال مرعب، ولكن لم يشعر أحد بأي خوف، لأنه لم يتسنَّ لأي شخص أن يراها. في الواقع، منذ أن وصلت، ظلت دونَّا إليونورا في الجناح الخاص من القصر تعتني بها الوصيفات الأربع اللاتي أحضرتهن معها من إسبانيا.

لكن بعد وصول زوجته بشهر، وتحت الأنظار المذهولة في البداية ثم المستنكرة بعدها لمن في البلاط، بدأ في التغير بشكل جذري.

بدأت الظاهرة من خلال السمنة السريعة جدًّا لبطنه، التي حدثت فقط لهذا الجزء من جسده، إلى حد أن دون أنجيل، ظل نحيفًا في الأجزاء الأخرى من جسده، فبدا كامرأة حبلى في الشهر التاسع.

ولكن سرعان ما توزعت السمنة إلى ذراعيه وقدميه ورجليه. وفي النهاية هاجمت وجهه. ومن وجه يشبه الهلال أصبح يشبه القمر الكامل.

وفي أقل من ستة أشهر وصل وزنه إلى تسعين كيلوجرامًا، وبعدها بستة أشهر أخرى وصل وزنه إلى مائة وخمسين. ومؤخرًا بدا كأنه استقر على وزن مائة وتسعين كيلوجرامًا. أصبح كالفيل.

ولم يكن هناك ما يمكن عمله لإيقاف تلك الظاهرة. وبعد أن جرب طبيب البلاط، دون سيرافينو جوستالوكا، خلال زيارات وفحوصات، ولمسات هنا وهناك، عقاقير كثيرة، ووضع العلق واستخدم الحقن الشرجية، فقَدَ الأمل وتخلى عن المهمة. وحتى أعظم الأطباء الإسبان، أحد مصادر العلم الذي أرسله خصيصًا الملك كارلوس، فعل الشيء نفسه في النهاية.

حتى بعد أن صام الأسبوع بأكمله، من دون أن يشرب سوى بضع قطرات من المياه، استمر نائب الملك في اكتساب مزيد من الوزن كأنه خنزير يُسمَّن.

أما خيَّاط البلاط، أرتيميو سافاتيري، فقد أصبح غاية في الثراء في وقت قياسي. اضطر إلى أن يُعين أربعة مساعدين، إذ يجب أن يعيد حياكة كل ملابس نائب الملك أسبوعيًّا.

في التاسعة وخمس وثلاثين دقيقة، فُتِح الباب على مصراعيه، ونُقِل دون أنجيل من أيادي الوصيفين الخاصين اللذين ساعداه على ارتداء ملابسه إلى أيادي وصيفَي البلاط. أمسك دون أنجيل بذراعَي فوتي وماتشيكيه، واستند إليهما، وبدأ في التقدم نحو قاعة المجلس.

لم يكن السير سهلًا بالنسبة إليه. نظرًا إلى سمنة الفخذين الشديدة، فهو كي يتقدم خطوة، لا يستطيع تحريك إحدى قدميه إلى الأمام كما يفعل الناس عادة، ولكن عليه أن يحرك رجله كلها جانبًا ثم يتقدم بقدمه.

لكن بتحركه هكذا، يفقد جسده مركز الجاذبية ويتزعزع توازنه، ويلقي بكل ثقله على ساقه المتقدمة، لذلك على من يسنده من ذلك الجانب أن تكون لديه القدرة على تحمُّل ثقل كل تلك الكتلة من اللحم. لأنه إذا كان سيئ الحظ إلى حد فقدان التوازن، فسيُسحق على الفور أسفل جسد نائب الملك إذا ما سقط فوقه.

بمجرد أن ظهر دون أنجيل أمام باب القاعة، نهض كل أعضاء المجلس، وانحنوا بعمق واضعين اليد اليمنى على قلوبهم في

انتظار إجلاس نائب الملك على العرش الصغير ليعودوا إلى مقاعدهم.

ولكن كانت عادة دون أنجيل أن يتوقف لحظة على عتبة الباب ليلتقط أنفاسه. وفي الصمت العام يبدو صوت أنفاسه عاليًا كأنه منفاخ قوي يضخ الهواء ببطء. ثم استعاد سيره مرة أخرى، الذي لم يبدُ سيرًا، ولكن عملية إبحار سفينة تتقلب وتتمايل فوق بحر هائج.

إلا أن الأسوأ لم يأتِ بعد.

كان عليه أن يتسلق الدرجات الثلاث للوصول إلى العرش الأصغر.

لمساعدة الوصيفين في هذا الأمر يأتي دور موثِّق البلاط موزومارًا والسكرتير روتيه اللذين جريا ليحلَّا محلَّي فوتي وماتشيكيه.

وأمام بداية الدرج، انحنى فوتي وأمسك بيديه ساق دون أنجيل اليسرى، رفعها بصعوبة، وحملها إلى الأمام ثم وضعها على الأرض.

ولكنه عندما فعل ذلك مال جسم نائب الملك كله بخطورة إلى الخلف، ولكي يمنعه من السقوط، اضطر ماتشيكيه إلى أن يسند ظهره بذراعيه الممدودتين وجسده المائل نحو الأمام، بينما رجلاه مثبتتان على الأرض ليوازن الثقل. وأخيرًا اضطر موثِّق البلاط والسكرتير أيضًا إلى أن يذهبا خلف دون أنجيل، وأن يدفعاه حتى استطاع أن يصعد أولى درجات السلم.

وبعد منح دون أنجيل الوقت ليصدر نَفَسًا متثاقلًا، وليرتاح قليلًا، تكررت العملية نفسها لصعود الدرجة الثانية ثم الثالثة من السلم.

وأخيرًا، في تمام الساعة العاشرة، تهاوت كيلوجرامات اللحم المائة والتسعون في اصطدام قوي على العرش الأصغر، الذي أخذت قواعده الحديدية تهتز لبضع دقائق.

لكن تأخر افتتاح الجلسة مرة أخرى، وقتًا طويلًا، لأن جميع أعضاء المجلس ظلوا مدهوشين من منظر اللغد المزدوج العملاق لدون أنجيل الذي ظل يهتز لمدة مثل «الكريم كراميل»، تأثرًا بالذبذبات الصادرة من الهيكل الحديدي للعرش الأصغر.

ما إن توقفت ارتعاشات اللغد المزدوج، حتى أشار دون أنجيل إلى موثِّق البلاط، فنهض دون جيرلاندو موزومارًّا، وأعلن باسم نائب الملك افتتاح جلسة المجلس، وعاد إلى الجلوس مرة أخرى. عندئذٍ نهض السكرتير، وطلب الإذن ليقرأ على الجميع القضايا التي لا بد من مناقشتها.

استدار نائب الملك لينظر إلى العرش الخالي للملك.

كانت هذه عادته، فهو يفعل هذا دائمًا قبل أن يمنح أي إجابة، كأنه يشير بذلك إلى أنه ليس سوى المتحدث عن رغبة صاحب الجلالة.

إلا أنه في هذه المرة، مكث ينظر إلى العرش من دون أن يعطي إجابة للسكرتير الذي اقتنع على الفور بأن دون أنجيل لم يسمعه، وبعد أن استشار الموثِّق بنظرة، كرر السؤال.

لم تكن هناك إجابة، ومكث دون أنجيل في مكانه من دون أن يتحرك، ورأسه متجه نحو العرش.

كان دون أنجيل نائبَ ملك ماهرًا، ولكن في الشهر الأخير تقريبًا لم يعد موجودًا ذهنيًّا. في البداية أثبت نفسه كرجل شريف، يحترم

القوانين والناس، مستعد أن يدين عدم العدالة والتواطؤ، والطغيان واستغلال القوة. ثم خفف بعدها من قبضته، والآن يفعل أعضاء المجلس ما يحلو لهم.

بالتأكيد هذا يعود إلى مرضه، ولكن أيضًا، ربما، إلى شائعة تدور منذ مدة بين نبلاء المجلس. الشائعة هي أن المرض تسبب في أن كل أجزاء جسم دون أنجيل كبرت إلى حجم الفيل ما عدا جزءًا واحدًا، وهو الجزء الذي يحدد الفارق بين الرجل والمرأة، ونظرًا إلى الأبعاد الجديدة لبقية أجزاء جسمه، أصبح من الصعب العثور على هذا الجزء، بل أصعب من العثور على إبرة في كومة قش. وتقول الألسنة المغرضة إن دونًّا إليونورا المسكينة أصبحت حزينة وصامتة، نظرًا إلى الامتناع الإجباري، وتسبب هذا الوضع لدون أنجيل بعذاب لا نهاية له.

ومع عدم إجابته للمرة الثانية، نظر أعضاء المجلس أحدهم إلى الآخر مرتبكين.

ما العمل الآن؟

هل يمكن تكرار السؤال للمرة الثالثة؟ هل يمكن قطع الحوار الصامت بين نائب الملك وصاحب الجلالة؟ لا، لم يكن هذا شيئًا مشروعًا. ولكن هل يمكن إضاعة الصباح كله في النظر إلى نائب الملك الذي ينظر بدوره إلى عرش الملك الخالي؟

بعد خمس دقائق من الصمت، نهض أمير فيكاراتسي، الذي حسب منصبه كبير قادة العدالة فهو يلي نائب الملك مباشرة، واقترب من العرش الأصغر.

نظرًا إلى أنه كان أقصر بكثير من طول الرجل المتوسط، لكنه أطول بكثير من قزم، اضطر إلى صعود الدرجات الثلاث ليصل إلى مستوى دون أنجيل. عندئذٍ أدرك أن نائب الملك على الرغم من أنه يواجه العرش، فإن نظرته شاردة وبعيدة، ولا ينظر إلى شيء محدد، أو ربما ينظر إلى شيء بعيد جدًّا، ومن ثَمَّ إلى لا شيء أيضًا. تجمَّد أمير فيكاراتسي، شاعرًا بالخوف ولم يعد يدري ماذا عليه أن يفعل أو يقول.

إلا أن نائب الملك أدرك وجوده. في البداية تصرف كأنه يهش بعيدًا ذبابة مملة، ثم تحولت عيناه ببطء شديد لتنظر إلى وجه الأمير، الذي بمجرد أن رآه ينظر إليه، نزل بسرعة وعاد ليجلس في مكانه.

أدار دون أنجيل رأسه يمينًا ويسارًا كأنه يحاول أن يفهم أين يوجد، كأنه استيقظ لتوه من غفوة طويلة جميلة. عندما رأى السكرتير الواقف، نظر إليه متسائلًا.

عندئذٍ كرر السكرتير السؤال للمرة الثالثة.

أدار دون أنجيل رأسه للحظة ناحية العرش ثم أشار إليه بأنه يمنح الإذن. عندئذٍ تنفس الجميع الصُّعداء. الجلسة على وشك أن تبدأ مثل كل المرات السابقة.

قال السكرتير إن المسألة الأولى التي لا بد من مناقشتها تتعلق بالخلاف بين أسقف كاتانيا وأسقف ميسينا بخصوص وصيتَي بارونة فورزا داجرو، إذ تركت، في واحدة منهما، كل شيء إلى كنيسة ميسينا، وفي الوصية الأخرى تركتها لكنيسة كاتانيا. لجأ

كلٌّ من الأسقفين إلى المجلس ليحكم في الأمر، ويمنح إجابة سريعة لهذا الأمر المُلح.

نظر نائب الملك أولًا إلى العرش قليلًا ثم إلى رئيس الأساقفة تورُّو ميندوزا.

وقف الأخير بابتسامة خبيثة على شفتيه. لم يكن هناك أي شخص في القاعة لا يعرف بالفعل ما كان الأسقف على وشك أن يقول. كانوا جميعهم يعرفون الحرب المشتعلة منذ سنوات بين تورُّو ميندوزا وجواكينو ريبيت، أسقف كاتانيا.

كانت حربًا شُنَّت عبر القيل والقال، والتلميحات، والنميمة، والاغتياب. أشاع ريبيت أن تورُّو ميندوزا يمارس الفعل المشين مع صغار الشمامسة، وردَّ تورُّو ميندوزا على تلك الشائعات بقصة ريبيت الذي تسبب في حبل راهبة ثم قتلها ليتجنب الفضيحة.

كان لأسقف باليرمو، السمين والقصير والشبيه بالكرة، صوت عندما يتحدث به من المنبر يسمعه سكان شيفالو. لا يتحدث بالكلمات بل بطلقات المدافع. قال إن جواكينو ريبيت شخص خبيث بلا شك، وإن الوصية التي تحيل الإرث إلى كنيسة كاتانيا مزورة بالتأكيد. وأكد أنه فحص الأمر بعناية، ولديه أدلة على ما يقوله.

سأل نائب الملك الحضور إذا كانت لديهم أقوال بهذا الشأن.

لم يتنفس أيٌّ منهم. عندئذٍ نظر دون أنجيل إلى العرش، وقال إن المسألة حُسمت لصالح أسقف ميسينا.

جلس السكرتير مرة أخرى، وقرأ المسألة الثانية التي تجب مناقشتها. كانت أمرًا حساسًا. فتبعًا لعدد من الشكاوى مجهولة

المصدر، لا يصل إلى خزانة الدولة سوى أقل من نصف الضرائب التي تُجمع من سكان بيفونا، لأن النصف الآخر يضعه المسؤول عن جمع الضرائب في جيبه الخاص. وهذا الشخص لم يكن سوى أوريليو سبانُّو مركيز بونتاميتسا، رجل شديد الثراء والنفوذ، لا يجرؤ أي شخص على الشك فيه.

بينما التفت نائب الملك لينظر إلى العرش، استعد دون كونو جالُّومباردو، كبير الحُكام، الذي يتولى أمور الضرائب، للتحدث.

وهكذا كما حدث أيضًا مع الأسقف، لم يكن بين الحاضرين من لا يعرف بالفعل ما سوف يقوله.

المعروف للجميع أن جريسيليا، حفيدة دون كونو الجميلة والمفضلة، التي يفتخر بها، هي عشيقة تانكريدي سبانُّو، الابن البكر لمركيز بونتاميتسا. وكلهم يعرفون أن كلمة الصغيرة هي قانون حاسم لكبير الحُكام، الذي عندما حان دوره للتحدث، أكد أن تلك الخطابات مجهولة المصدر، ليست سوى تشهير، ولا يجب وضعها في الحسبان، هدفها تلويث اسم رجل معروف باستقامته، وأن أمانة مركيز بونتاميتسا أمر لا يجب حتى النقاش فيه.

لم يتنفس أحد. ونظر نائب الملك إلى العرش، ثم قرر أن المسألة لا تحتاج إلى فحص من قِبل المجلس، بل لا بد من إلغائها أيضًا من نقاشات مستقبلية.

الموضوع الثالث الذي طرحه السكرتير كان ذلك الخاص بـ«الجلوريوزا»، السفينة الحربية التي بمجرد خروجها إلى البحر، في أول رحلة لها، اصطدمت ببعض الصخور وغرقت في الأعماق،

وتسببت في موت خمسة عشر بحارًا. قبطان «الجلوريوزا»، القائد ألويزيو بوتيفارِّه يقول إن ما تسبب في الحادث هو عدم استجابة الدفة للضابط، لأن السفينة بُنيت بطريقة سيئة في ورش صناعة السفن في ميسينا، التي وفَّرت في مواد الصناعة.

أما رئيس الترسانة البحرية فهو يقول إن الخطأ هو خطأ بوتيفارِّه الذي يسكر معظم الوقت، ويسكر كثيرًا.

منح نائب الملك، بعد النظرة إلى العرش، الكلمة لقائد الأسطول البحري دون أركنجيلو لافيرلا، كونت نازو.

لم يكن الكونت في حاجة حتى إلى أن يفتح فمه، إذ يعرف الجميع سابقًا أنه منذ أعوام كثيرة وهو شريك مع رئيس ترسانة ميسينا.

ولذلك في غمضة عين، وجد القبطان ألويزيو بوتيفارِّه نفسه وقد جُرِّد من رتبته، وطُرد من البحرية، وحُكِم عليه بالسجن بوصفه المسؤول الوحيد عن الحادث.

نهض السكرتير مرة أخرى، لكن دون أنجيل طلب منه أن يقترب. وقف السكرتير أمام الدرجات الثلاث، فدعاه نائب الملك بإشارة أن يصعد، وعندما اقترب منه، همس بشيء في أذنه.

خرج السكرتير جريًا من القاعة. وعاد بعدها بقليل مع فوتي وهو يحمل «بارافان»، وماتشيكيه وهو يتقدم ممسكًا في يده بمبولة يغطيها نسيج أبيض.

حدث ذلك مرتين في الشهر الماضي أن شعر دون أنجيل برغبة مُلحة لقضاء حاجته، ولكن بين عملية نزوله من على العرش الصغير، وعبوره القاعة، والوصول إلى جناحه، ثم الدخول إلى المرحاض،

والتبول ثم العودة، وعبور القاعة، وصعود الدرجات الثلاث، كان الأمر يستغرق على الأقل ساعة. والحل الذي وصل إليه موثِّق البلاط، ووصل بتحفظ إلى نائب الملك كان الأفضل.

فتح الوصيفان البارافان أمام العرش الصغير واختفيا خلفه بعض الشيء. وفي الصمت سمع الجميع الأنفاس القوية والمنهكة لنائب الملك وهو ينهض، ثم صوت السائل وهو ينساب في الآنية الفخارية. استغرق الأمر نحو عشر دقائق. وفي النهاية ظهر ماتشيكيه ومعه المبولة المتنقلة، وخرج من القاعة، بينما فوتي جمع البارافان، ثم تبعه.

يمكن استئناف الجلسة.

ولكن هذا لم يحدث.

لأن الجميع أدركوا أن دون أنجيل كان يجلس وعيناه مضمومتان بقوة، ويرتعش بعنف شديد وبسرعة، إلى حد أن ضفائره أخذت ترفرف يمينًا ويسارًا.

فكر موثِّق البلاط بقلق: «ما به الآن؟».

وهمس دون ألتيريو إلى الأسقف:

- لماذا يرتعش؟

تجرأ تورُّو ميندوزا وقال:

- ربما يشعر برغبة في إفراغ ما في أمعائه أيضًا.

ومن دون أن يفتح عينيه قال نائب الملك:

- أشعر بالبرد.

دُهِشَ الجميع. برد؟ في الثالث من سبتمبر، في شمس تشبه شمس شهر أغسطس الحارة إلى درجة يمكنها فلق الحجارة؟

خرج السكرتير مهرولًا من القاعة، وذهب ليتحدث مع فوتي وماتشيكيه، ثم عاد إلى مكانه.

استجمع دون كونو جالُّومباردو شجاعته، وانحنى ليتحدث بصوت منخفض مع دون أركنجيلو لافيرلا. ولمزيد من الحرص وضع يده على فمه، قائلًا:

- أليس من الأفضل إطلاع جلالة الملك أن نائبنا العزيز ليس في صحة جيدة؟

قاطعه دون أركنجيلو متشككًا:

- هل أنت جاد أم تمزح؟

- أنا جاد.

- إذن هل يناسب للجميع أن يأتي لنا، بدلًا من دون أنجيل، نائب ملك صحيح البدن والذهن، يفكر بوضوح؟

قال دون كونو، مغلقًا الحديث:

- آه، فعلًا.

دخل إلى القاعة رجلان من الخدم ومعهما بطانية وضعاها على ساق دون أنجيل.

بعدها بلحظات، أشار نائب الملك إلى السكرتير أنه يمكنه التحدث الآن.

نهض السكرتير وشرع في التحدث:

- الآن لدينا التماس من النائب العام لكاستروجوفانّي...

قاطعه دون أنجيل:

- نعم؟

تنحنح السكرتير، وسعل بعض المرات، ثم كرر بصوت أعلى:

- الأمر يتعلق بالتماس مقدم من...

قال دون أنجيل من جديد:

- نعم؟

هل أصبح أصم؟

تنفس السكرتير بعمق، وفتح فمه من جديد...

إلا أن دون أنجيل قال من جديد:

- نعم؟

حتى قبل أن يبدأ الآخر في التحدث.

عندئذٍ أدرك الجميع أن الأمر لا يتعلق بصمم ما. وإن نائب الملك يتوجه بالحديث إلى شخص ما، لم يفهم كلماته، وهو بالتأكيد غير موجود في القاعة. عندئذٍ فتح دون أنجيل عينيه على اتساعيهما، كأنه يشعر بدهشة كبيرة. وببطء شديد نظر تجاه العرش.

ومرت بضع دقائق.

الفصل الثاني

يوم قصير من المجد
لكبير قادة العدالة

بحث المستشارون عن مشورة بعضهم بعضًا في صمت، من خلال تبادل النظرات السريعة وأقل الحركات برؤوسهم في إشارة إيجاب أو نفي. ووصلوا إلى الاستنتاج نفسه. وعندئذٍ نهض كبير قادة العدالة واقترب من العرش الأصغر، صعد الدرجات الثلاث، وأصبح على ارتفاع دون أنجيل. كان نائب الملك يجلس في سكون، وعيناه ما زالتا جاحظتين، ولكن القائد، بخوف، اقتنع على الفور أن تلكما العينين لم تعودا تريان أي شيء. شيء شبيه بالحجاب الشفاف وُضع على الحدقة، حجاب رفيع للغاية، صُنع تقريبًا من الهواء ولكنه أقوى من الحديد، الذي يفصلهما الآن، إلى الأبد، عن عالم الأحياء.

وليتأكد من هذا، مد أمير فيكاراتسي يده ببطء شديد، وبطرف سبابته لمس بخفة، تقريبًا خائفًا من أن يلمس جسد الآخر، ولمس طرف أنف نائب الملك.

لم يكن هناك أي رد فعل.

عندئذٍ بدأ يضغط بقوة أكبر بإصبعه بالتدريج، وبدأ رأس دون أنجيل، يسقط إلى الخلف، تحت تأثير كل ذلك الدفع، مثل رأس دمية.

ليس هناك شك.

لا توجد سوى جثة جالسة على العرش الأصغر.

قال أمير فيكاراتسي، بصوت منخفض:

- أعتقد أنه مات.

عندئذٍ تحول جميع المستشارين إلى تماثيل من الملح.

كان موثِّق البلاط أول من أفاق من وضع الذهول ذلك، عندئذٍ نهض وصاح:

- نحتاج إلى طبيب البلاط على الفور لنتأكد...

رد أمير فيكاراتسي، الذي استعاد وعيه، على الفور قائلًا:

- نتأكد من مؤخرتي!

إذ إن جميعهم يمكنهم الاستفادة من هذا الموقف بشدة.

نظر موثِّق البلاط بذهول إلى كبير القادة. لماذا لا يرغب في التأكد؟

أصر:

- ولكن سيكون من الصواب أن...

قاطعه الأمير:

- وما الذي نعلمه عن مرض دون أنجيل. ربما يبدو ميتًا بينما في الحقيقة هو فاقد للوعي أو نائم. إذا استعاد وعيه وعثر على

الطبيب بجواره، فلربما فهم بطريقة خاطئة عجلتنا هذه بأننا نتمنى موته.

سأل الأسقف:

- إذن ماذا سنفعل؟

كان هذا هو السؤال الذي ينتظره الأمير:

- أقترح أن نستمر في مجلسنا كأن شيئًا لم يكن. في النهاية، إذا لم يُظهر دون أنجيل أي إشارة حياة، فسنستدعي طبيب البلاط.

سأل موثِّق البلاط متشككًا:

- ولكن كيف سنعرف إذا كان نائب الملك يوافق على ما نقترحه؟

قال رئيس الأساقفة، الذي كان بدوره محترفًا في النصب، وفهم على الفور اقتراح الأمير:

- السكوت علامة الرضا.

لم يرد موثِّق البلاط.

وخلال الساعة والنصف المقبلة، لم يهتم أعضاء المجلس بأمورهم الصغيرة الخاصة فحسب، ولكن أيضًا بما يخص أصدقاءهم وأصدقاء أصدقائهم. انتقلت إقطاعيات كاملة من عائلة إلى أخرى بالقانون، بعض مسائل ميراث غير محسومة انتهى أمرها بأن ذهبت إلى أماكن لم يكن في إمكان من كتب وصيته تخيلها، تحولت منازل وأراضٍ إلى ملكية الدولة فجأة، وعُيِّن أشخاص ذوو ضمائر خبيثة في مناصب قضائية وإدارة مقتنيات التاج، وأوصياء على فتيات في غاية الثراء، ومسؤولون عن مشروعات فشلت فشلًا ذريعًا. وفي نهاية جدول الأعمال، وافقوا على منحة نصف سنوية، بناءً على طلب

سيمونه تريكّا، مركيز تريجونيلّا، لصالح مؤسسة خيرية أسسها العام الماضي على نفقته الخاصة.

عندئذٍ نهض موثِّق البلاط والسكرتير، بينما يمسك أحدهما بالسجل الضخم بما يحويه من إجراءات اتُفِق عليها، والآخر يمسك بالريشة والمحبرة، وذهبا إلى كبير القادة.

وقال موثِّق البلاط:

- التوقيع.

صرفهما كبير القادة قائلًا:

- لم يحِن الوقت بعد. هذا ضد قواعد القانون.

وفي أثناء عودة الاثنين إلى مكانيهما، توجَّه بالحديث إلى أعضاء المجلس، وقال بنبرة حاسمة:

- في الوقت الحالي، كلما قلَّ عدد من يعرفون الحالة التي عليها نائب الملك، سيكون أفضل. لذلك، لندع السكرتير يذهب لاستدعاء طبيب البلاط، ويقول له إن دون أنجيل فقد الوعي، ولكن من دون أن يبالغ في عرض الموقف، ومن دون إثارة شكوك الناس.

كان معروفًا أنه مكتوب في القانون أنه في حالة الموت المفاجئ لنائب الملك يتولى منصبه مؤقتًا كبير قادة العدالة الذي يظل في منصبه حتى يصل نائب الملك الجديد من إسبانيا.

وجد طبيب البلاط، الذي قال له السكرتير إن دون أنجيل فقد الوعي، كل أعضاء المجلس مجتمعين عند أقدام الدرجات الثلاث بوجوه قلقة للغاية.

سألهم:

- متى حدث هذا؟

قال القائد الأعلى:

- قبل أن يذهب السكرتير ليستدعيك بدقيقة. لم نضيِّع أي وقت.

تسلق طبيب البلاط الدرجات الثلاث، وأدرك على الفور أنه لا يمكن فعل أي شيء.

استمع إلى قلب نائب الملك وتحسس نبضه، وقرب أذنه من فمه، وعندئذٍ هز رأسه في أسى، ثم قال لأعضاء المجلس:

- لم يفقد الوعي، لقد مات. لا بد أن قلبه هو السبب، إذ لم يعد يتحمل كل هذا الشحم.

دُهش طبيب البلاط جدًّا من تبعات كلماته. فقد أطلق أعضاء المجلس العنان لآلامهم في مشهد يُرثى له، لمس مشاعره. رفع الأسقف يديه إلى السماء وجثا على الأرض ليصلي، ووضع أمير فيكاراتسي وجهه بين يديه، وانفجر دوق باتيكاني في نحيب بلا أي تحفظ، ومركيز روكَّالوميرا وكونت نازو تعانقا وأخذا يواسيان أحدهما الآخر، بينما أخذ بارون باكينو، الذي لا يتعزى، يردد:

- يا لها من كارثة رهيبة! يا لها من خسارة لا تُعوض!

عندئذٍ قال أمير فيكاراتسي، الذي لا يزال متأثرًا بوضوح، بأنه للأسف على صاحب النيافة الأسقف حمل الخبر السيئ إلى زوجة دون أنجيل، وأن يعبر عن الحزن العميق والألم الشديد الذي يشعر به كل أعضاء المجلس.

ما إن رحل الأسقف، حتى أعطى الأمير الأوامر للسكرتير بأن

يخبر رئيس الحراس بأن كل الغرباء الموجودين في القصر حاليًّا يجب طردهم خارجًا في غمضة عين، وقال له أيضًا أن يستدعي على الفور رئيس المراسم.

عندما وصل هذا الأخير، همس الأمير في أذنه. ذهب رئيس المراسم ونظر إلى الجسد، حك مؤخرة رأسه في تشكك، وعاد ليهمس طويلًا في أذن كبير القادة الذي في البداية أشار برأسه رافضًا، ولكنه في النهاية فرد ذراعيه وقال:

- إذا لم يكن هناك حل آخر...

بعدها بخمس عشرة دقيقة، عاد رئيس المراسم يتبعه خمسة من الخدم، جميعهم شباب أقوياء، الذين يحملون نعش سانتا روزاليا الموجود في الكنيسة الصغيرة على ألواح طويلة. نزعوا تمثال القديسة من مكانه ووضعوه على الأرض في غرفة المقدسات.

وضع الرجال الستة النعش أسفل الدرجات الثلاث، وتسلقوا الدرجات، ثم حملوا جسد دون أنجيل بصعوبة شديدة، ووضعوه في النعش. عندئذٍ صاحوا في جوقة: «ارفع!»، وحملوا ألواح النعش على أكتافهم وخرجوا من القاعة، بينما سقط كل الحضور حتى لمسوا الأرض برؤوسهم في انحناءة عميقة.

سأل طبيب البلاط إذا كان يمكنه الانصراف. قبل أن يجيبه، صعد الأمير ببطء الدرجات الثلاث، وحاول أن يجلس على العرش الأصغر الذي تركه نائب الملك الميت خاليًا. إلا أنه أدرك أنه مرتفع جدًّا بالنسبة إليه. وضع يديه على المقعد، وحاول الأمير أن يرفع نفسه، ولكنه لم يستطع.

عندئذٍ قال له طبيب البلاط:

- إذا سمح لي سموك...

نظرًا إلى أنه كان رجلًا عريضًا، وضع يديه أسفل ذراعَي الأمير، ورفعه في الهواء، وأجلسه على العرش الأصغر، كمن يساعد طفلًا على الجلوس.

إلا أن قدميه ظلتا في الهواء، على بعد ثلاثة أشبار من الأرض. وبدا كأنه يسبح في العرش الأصغر لأنه كان كبيرًا جدًّا.

قال كبير القادة الآن وقد جلس:

- أجل يمكنك الذهاب.

انحنى طبيب البلاط وخرج.

ثم أمر كبير القادة:

- طبقًا للقانون، منذ هذه اللحظة أتولى أنا المهام الكاملة محل نائب الملك. وحفاظًا على القانون أظهروا لي الآن طاعتكم.

نبهه موثِّق البلاط قائلًا:

- صاحب النيافة الأسقف غير موجود.

أجاب الأمير:

- دعنا نستمر في كل الأحوال.

لوهلة لم يتحرك أيٌّ منهم. في الواقع لم يكن أيٌّ منهم يشعر بأنه يرغب في أن ينحني طاعةً لأمير فيكاراتسي، الذي على الرغم من كونه كبير قادة العدالة، ليس سوى بالون منفوخ، حسب تعريف الأسقف له. إلا أنه لا بد من عمل هذا. نهض دوق باتيكاني وتوقف عند قاعدة الدرجات الثلاث، وانحنى واضعًا ركبته اليسرى أرضًا،

ويده اليمنى على قلبه، أحنى رأسه، ثم نهض وعاد إلى مكانه. وفعل الآخرون بالمثل.

بدأ الأمير يشعر بأنه عملاق، بل كأن العرش الأصغر أصبح صغيرًا جدًّا بالنسبة إليه.

وأمر:

- أحضروا لي السجل، حتى أوقعه.

الآن أصبح اسمه يحمل الثقل نفسه الذي لاسم ملك إسبانيا.

ولوهلة أصابه الدوار.

اصطحب مساعد رئيس المراسم الأسقفَ تورُّو ميندوزا إلى مسكن نائب الملك، وبعد أن أبلغ رئيسة وصيفات دونًّا إليونورا، جعله يستريح على مقعد في حجرة الانتظار وتركه بمفرده.

انتظر الأسقف ثم انتظر حتى نسي أنه يجلس منتظرًا، وتاه في أفكاره عن جوقة صبية الهيكل، الذين يدخر لهم نيات خاصة. وأخيرًا فُتح الباب وظهرت دونًّا إليونورا.

نهض الأسقف، لكنه جلس مرة أخرى على الفور، لأن ركبتيه تحولتا إلى خزف. كان قد تخيل، بناءً على الشائعات، أنه سيقابل امرأة جميلة، لكن من الواضح أن خياله كان محدودًا.

فالمرأة الشابة التي تنظر إليه في انتظار أن يتحدث، شعرها أسود حالك، طويلة القامة، نحيفة القوام وأنيقة في ثوبها الإسباني. لا يستطيع أمهر رسَّام على وجه الأرض أن يرسمها كما هي. ثم عيناها متسعتان للغاية، وسوداوان، تشبهان ليالي قضاها المرء

في سعادة وحبور، لكنه يرغب، بكل سرور، في أن يفقد نفسه فيهما إلى الأبد.

نهض الأسقف من جديد، وفتح فمه ليتحدث، لكن إشارة من دونًا إليونورا، بأصابعها الرقيقة والمتناغمة والطويلة، أوقفته قائلة باللغة الإسبانية:

- هل مات؟

كيف عرفَت ذلك؟!

إلا أن الأسقف مكث مدهوشًا من أن سؤال دونًا إليونورا لم يكن يحمل أي حزن أو ألم، لم يكن سوى سؤال بسيط. كأن الأمر يتعلق بموت كلب وليس موت زوجها.

أجابها:

- أجل، وأنا باسم المجلس...

كررت دونًا إليونورا الإيماءة نفسها بيدها.

- هل قتلوه؟

قالت هذا بالنبرة السابقة نفسها. ولكن كيف ترى هذه المرأة المستشارين؟ هل تفكر أن دون أنجيل قد ذُبح كالثور في الحلبة؟ أمام الجميع؟ إذا كان الأمر يتعلق بمكان منعزل، أو في الليل، ربما ربما...

أجابها:

- تُوفي نائب الملك بطريقة طبيعية. استدعاه الرب.

- أرجو سيادتك أن تقول لكبير قادة العدالة إنني أريد التحدث معه حالًا.

بعدها من دون أن تنطق أي حرف أو من دون أن تغيِّر من تعبير وجهها، انحنت مجرد انحناءة بسيطة من رأسها علامة تحية، وأدارت دونًّا إليونورا ظهرها، وفتحت الباب من جديد واختفت.

ظل الأسقف في ذهول. ولكن مِمَّ صُنعت تلك المرأة؟ من حجر؟ ما نوع القلب المخبأ أسفل تلكما العينين ذواتَي السواد اللانهائي؟

وخطر بباله كيف أن دونًّا إليونورا لم يخطر ببالها الاعتراف ولو مرة واحدة منذ وصولها. شيء مؤسف. لو كانت قد اتخذت أبَ اعتراف لها، كان بالتأكيد سيعرف المزيد عن تلك المرأة التي سببت له عدم الشعور بالارتياح هذا.

وفكر وهو يخرج من غرفة الانتظار: «من حسن الحظ أنها لن تظل هنا مدة طويلة».

في الممر قابل النعش وبه جسد نائب الملك في طريقه إلى جناحه.

عندما دخل قاعة المجلس، رأى أنهم جميعًا قد انصرفوا. وبينما هو على وشك الخروج أوقفه صوت ما.

- إلى أين أنت ذاهب؟ أنا هنا في انتظارك.

التفت من جديد. كان كبير القادة جالسًا على العرش الأصغر، ولكن من الصعب رؤيته من بُعد. بدا مثل الدودة على فرع شجرة زيتون. اقترب منه.

- أنت الوحيد الذي لم تنحنِ طاعةً لي.

جثا الأسقف مترددًا ثم نهض.

- هل أخبرت المرأة؟

- أجل.

- حسنًا. سيلتقي المجلس الملكي المقدس مرة أخرى في الساعة الخامسة. سنناقش مراسم الجنازة التي لا بد أن تكون عظيمة وتليق بالرجل العظيم الذي كانه دون أنجيل.

قال الأسقف:

- آه، كدت أنسى. تريد دونًّا إليونورا التحدث معك.

- هل هي جميلة كما يقولون؟

هز الأسقف رأسه نافيًا.

- لا توجد كلمات يمكن أن تصفها.

- حسنًا، سأمر عليها بعد أن آكل.

- قالت إنها تريد أن تراك على الفور.

قال كبير القادة في ضيق:

- حسنًا، حسنًا.

عندئذٍ خرج الأسقف. لو أن نائب الملك على قيد الحياة لذهب إليها كبير القادة على الفور. الآن، على كل حال، على دونًّا إليونورا أن تتعلم من يعطي الأوامر هنا.

مكث مدة أطول في القاعة، بمفرده، يستمتع بعرشه الصغير.

في الساعة الرابعة والنصف دخل المعلم النجار بونجوفاني القاعة، واستبدل بالعرش المقوى بالحديد الذي استخدمه دون أنجيل، عرشًا أصغر، أقدم، أعاده بسرعة إلى حالة جيدة. ورفع قاعدة الكرسي بحيث يبدو كبير القادة واقفًا حتى في أثناء جلوسه. ومن ثَمَّ يقلل بعض الشيء من ضآلة حجمه.

قبل افتتاح الجلسة الجديدة، سأل الأسقف كبير قادة العدالة إذا كان قد تحدث مع الأرملة. صفع الأمير جبهته بصوت مرتفع:

- نسيت! سأذهب إليها بعد جلسة المجلس.

لم ينسَ. فعل هذا عمدًا، حيث يجب أن تخضع دونًا إليونورا له وليس العكس.

بدأت الجلسة، والأبواب مفتوحة. حدث هذا بناءً على أمر من كبير القادة، بحيث يراه كل من يعبر أمام القاعة وهو جالس في أوج مجده.

كانت لديه مشكلة واحدة. قبل أن يتحدث، عليه أن ينظر إلى عرش الملك مثلما اعتاد أن يفعل دون أنجيل، ثم قرر أنه لن يفعل ذلك. عندئذٍ رفع يده ليدعو المستشارين للصمت، ثم بدأ يتحدث:

- نحن مجتمعون الآن بسبب حتمية حزينة لم نفكر فيها قَطُّ، ولا أردناها. لقد استدعى الرب الإله إلى السماء هذا الصباح النفس المختارة لدون... لدون... لدون...

توقف، ولم يعد يرن كالجرس، وجحظت عيناه ناظرًا إلى نهاية القاعة. خشي دون كونو جالُّومباردو أن يكون قد أصابه ما أصاب دون أنجيل. والتفتت كل الرؤوس نحو المدخل.

على عتبة الباب تقف امرأة طويلة ونحيفة، متشحة بالسواد، وجهها مخبأ أسفل حجاب أسود سميك، وذراعاها ويداها مغطاة بقفازين مخمليين طويلين، أسودين أيضًا، بطبيعة الحال. وعندما بدأت في السير بدا كأنها تسبح فوق الأرضية، كأن قدميها لا تلمسان الأرض.

وفي الصمت المهيب تقدمت حتى أصبحت في وسط القاعة، وقالت بصوت واضح وقوي:

- أنا إليونورا ده جوزمان، مركيزة قصر رودريجو، أطلب الكلمة.

رجفة من البرد المثلج، لا يُعرف سببها، سرت مثل الثعبان الخبيث على ظهر القائد الأعلى. واحتاج إلى مجهود كبير لكي يتحدث، ففكَّاه انطبقا أحدهما على الآخر، وحلقه جاف كأنه لم يشرب منذ أيام.

- سُمح لكِ.

قالت بالإسبانية:

- أطلب باتضاع، من هذا المجلس الملكي المقدس، وبصفة خاصة من كبير قادة العدالة، ألا يُدفن الجسد الميت لزوجي، وأن تُقام فقط المراسم الخاصة بالصلاة على الميت، وأن يظل نعشه في جناحي حتى اليوم الذي نرحل فيه إلى إسبانيا، في أقرب وقت ممكن.

زادت كثافة الصمت وثقله، كأنه صخرة على أكتاف الحاضرين.

بحث كبير قادة العدالة بعينيه عن كل عضو من أعضاء المجلس، ولكن كانوا جميعهم ينظرون إلى الأرض. آه، هذا إذن؟ هؤلاء الأوغاد الجبناء لا يرغبون في أن يتخذوا موقفًا؟ حسنًا إذن، سيكون عليه هو، وهو فقط، دون جوستينو آليكو، أمير فيكاراتسي، أن يوقف مركيزة قصر رودريجو عند حدها.

قال:

- سيدتي، أعلم تمامًا أسباب طلبك هذا، ولكن يؤسفني أنني لا بد أن أرفض هذا بشكل قاطع. حيث بناءً على ضخامة الجنازة

سيفهم الشعب ما معنى أن يكون المرء نائب ملك في صقلية، وسيفهم أيضًا أن أميرنا المحبوب أمير إسبانيا...

ثم توقف هنا. لأن دونًّا إليونورا أدارت ظهرها، وكانت على وشك الخروج من القاعة.

قال الأمير بعد وقفة قصيرة:

- الآن نستأنف الجلسة.

أشار الأسقف إلى أنه يرغب في التحدث، فسمح له الأمير.

- اسمح لي أن أشير إليك أنه كان من الممكن الوصول إلى اتفاق مع دونًّا إليونورا.

اكتسى الأمير بحمرة من الغضب.

- دعني أُذكرك أنك أقسمت لي بطاعتك.

- وما دخل ذلك؟ الطاعة شيء، والخلاف في الرأي شيء آخر.

- إذن الخلاصة هي أنك لا تتفق معي؟

- ليس الأمر أنني لا أتفق معك، ولكنك إن ذهبت لرؤية دونًّا إليونورا عندما استدعتك هذا الصباح...

قاطعه كبير القادة بغضب شديد:

- لنضع في توثيق الجلسة أن الأسقف تورُّو ميندوزا غير موافق، ولنكمل. هل لدى أحد آخر أي ملحوظات؟

لم يقُل أيٌّ منهم شيئًا.

عندئذٍ أخذ كبير القادة يتحدث من دون أن يتوقف، لمدة ساعة ونصف الساعة، وهو يشرح بالتفاصيل الدقيقة كيفية عمل جنازة مهيبة. في البداية وصف كيف يجب أن تُزين الكاتدرائية، وأن تنظم

المقاعد. بعد ذلك شرح كيف يجب أن يتشكل موكب الجنازة الذي سيتحرك من القصر ليصل إلى الكاتدرائية. تتقدم الموكب فرقة عسكرية مُسلحة تتبعها فرقة من سلاح البحرية، وبعدها عربة النعش مغطاة كلها بالزهور. يتبعها فورًا رتل من مائة عربة مكشوفة تحمل كل الشخصيات المهمة. سيكون في العربة الأولى مكان مُخصص للأرملة وله هو أيضًا، بطبيعة الحال، لأنه القائم بأعمال نائب الملك.

ولكن ترتيب العربات يجب أن يكون على أساس درجة المقام لكل شخصية ستكون فيها. وضاع وقت كثير في تحديد هذا. على سبيل المثال: هل يجب أن يتقدم أمير فيكاري أم دوق سومَّاتينو؟ تبعًا للأصول الخاصة بالنسب، يتقدم الأمير، ولكن لا بد من الوضع في الحسبان أن دوق سومَّاتينو كان أحد أعيان البلاط، وهو شيء لم يَكُنه الأمير.

الخلاصة، سرعان ما حل الظلام وكان لا بد من إضاءة الشموع.

أصيبت ذراعِ سكرتير الجلسة بتقلصات شديدة بسبب كثرة الكتابة، بينما أصيب موثِّق البلاط بصداع رهيب.

إلا أن كبير القادة بدا كأنه يتمتع بتسع حيوات، واستمر في التحرك على العرش الأصغر. فلقد منحته متعة السلطة طاقة لانهائية.

– والآن، دعونا نحدد أين سيقف الجم... الجم...

كان يريد أن يقول «الجمهور»، ولكنه لم يستطع.

لأنه في شبه الضوء رأى دونًّا إليونورا واقفة عند عتبة الباب.

لماذا عادت مرة أخرى؟

ماذا تريد هذه المرة تلك المرأة شديدة الإزعاج؟

تقدمت المركيزة ممسكة ظرفًا في يدها حتى وصلت إلى منتصف القاعة، طلبت العذر على مقاطعتها للجلسة، وطلبت الإذن بالتحدث.

قال كبير القادة بخشونة:

- حسنًا.

قالت دونًّا إليونورا إنها في أثناء بحثها في أدراج مكتب زوجها عثرت على خطاب موجه إلى المجلس الملكي المقدس.

سألها القائد الأعلى:

- هل هو خطاب مهم؟

- لم أفتحه.

- أيها السكرتير، استلم منها هذا الخطاب وسنقرأه في نهاية الجلسة.

قالت دونًّا إليونورا بحسم:

- لا بد من قراءته على عجالة.

قال كبير القادة وقد احمرَّ وجهه كأنه فلفل حارق.

- أنا الذي أُحدد ما هو الأمر العاجل هنا.

ردت المركيزة:

- هذا هو المكتوب على الظرف.

تدخل الأسقف:

- ربما من الأفضل قراءته.

ثم في صوت واحد قال دون كونو جالُّومباردو ودون سيفيرينو لوماشو:

- لنقرأه.

نظر إليهم كبير القادة نظرة صاعقة، ولكنه في النهاية استسلم.

- حسنًا، أيها السكرتير، افتح الخطاب واقرأه.

لم يكن يعرف أنه بتلك الكلمات يحكم على نفسه بالدمار.

الفصل الثالث

دونًّا إليونورا تصبح نائب الملك وتربح الجميع مع استثناءات قليلة

نهض السكرتير، وذهب واستلم الظرف، نظر إليه باهتمام وقال:

- في الواقع مكتوب عليه من الخارج «يُسلَّم ويُقرأ على الفور من قِبل المجلس الملكي المقدس، في حال موتي المفاجئ»، بل عليه أيضًا ختم وتوقيع دون أنجيل. ماذا يجب أن أفعل. أكسر الختم؟

قال كبير القادة:

- بالتأكيد.

كسر السكرتير الختم، وفتح الظرف، وأخرج ورقة، رفعها في الهواء وأطلع عليها الجميع.

قال:

- مكتوبة بخط يد نائب الملك.

قال الأسقف فاقدًا صبره:

- هيًّا استمر.

في النهاية بدأ موثِّق البلاط القراءة:

بخطابي هذا أعبر عن رغبتي الأخيرة، التي أُظهرها لكم هنا بكل مجملها وبوضوح، وبحسب سلطاتي الشخصية التي مُنحت لي بفضل من الرب ومن جلالة الملك، كارلوس الثالث، ملك إسبانيا. في حالة موتي المفاجئ، لابد أن تتولى زوجتي الغالية دونَّا إليونورا دي مورا، مركيزة قصر رودريجو، منصبي بوصفي نائب ملك صقلية، بكل ما في ذلك من صلاحيات والتزامات، والواجبات والحقوق التي يمنحها ذلك المنصب، انتظارًا لأن يوافق جلالة سموه الملك كارلوس الثالث على ذلك، أو إن لم يوافق ويرسل شخصًا آخر من اختياره. ولهذا السبب يوقف تنفيذ تولي كبير القادة للعدالة القائم بأعمال نائب الملك، في حالة غيابي، في هذه الحالة. هذه هي وصيتي، وأتمنى أن تُقبل ويحترمها الجميع من دون أي تأخير.

توقيع: نائب الملك، دون أنجيل ده جوزمان، مركيز قصر رودريجو.

ساد الصمت الرهيب إلى حد أنه يمكن سماع الذبابة التي تطن حول رأس موثِّق البلاط.

- يا للهول!

كانت تلك هي الكلمة الأولى التي قطعت ذلك الصمت.

ونطقها الأسقف.

وعلى الفور بدأت التمتمات والأحاديث، الإيماءات والانفعالات بشكل عام هنا وهناك، مع بعض الضحكات المكتومة على الفور.

نفض أمير فيكاراتسي عن نفسه الصدمة الرهيبة التي أدهشته وشلته، وتقريبًا كادت تصيبه بأزمة قلبية، واستطاع ببعض الجهد أن يقف فوق العرش الأصغر، ليصبح أعلى من كل الآخرين ويصرخ:

- هذه الوصية لا قيمة لها!

قال الأسقف:

- لماذا؟ لقد كتبها نائب الملك بيده بل وعليها ختمه أيضًا!

قال كبير القادة الذي يحاول بكل جهده أن تصل كلماته إلى كل اتجاه:

- لأن... لأن...

ولكن لم يخطر بباله أي سبب.

اقترح دون كونو جالُّومباردو:

- لنستمع إلى رأي موثِّق البلاط الذي يعرف القانون جيدًا.

قال أعضاء المجلس الآخرون في جوقة، متخذين موقع أصحاب قرار، لم يكن لهم:

- لنسمع، لنسمع.

نهض دون جيرلاندو موزومارًّا، الذي على الرغم من الضوء الخافت فقد بدا شاحبًا وقلقًا.

- لا يوجد الكثير لنقوله. يتحدث القانون بوضوح، ولا توجد أي شكوك حول هذا. رغبة نائب الملك سامية ولا يمكن دحضها، سواء عبَّر عنها شفاهة في وجود شهود أو كتابة. كما في هذه الحالة. لا بد من تنفيذها إذا لم يكن لأحد في المجلس أي اعتراض.

صاح كبير القادة:

- لكنها إرادة شخص ميت.

رد عليه موثِّق البلاط ببرود:

- بجانب واقع أن هذا يجب أن يمنح لتلك الإرادة ثقلًا أكبر، فإن تلك الرغبة التي عبَّر عنها دون أنجيل، أعلن عنها كتابة، في حياته.

على الرغم من أن كبير القادة يشعر في أعماقه بأن المجلس بأكمله يقف ضده، فإنه لم يرغب في التنازل عن العظمة:

- ولكن لا يمكن لنائب الملك أن يغير القانون، لا بد أن يفعل الملك ذلك بنفسه!

أجابه موثِّق البلاط:

- في الواقع القانون لم يتغير، والدليل على ذلك أن كل الإجراءات التي تمت اليوم وقعتها حضرتك، يا سعادة الأمير، بعد وفاة نائب الملك. إذن بعد موته، استمر نائب الملك، من خلال سيادتك، يعبِّر عن رغباته. إذا أردنا أن نناقش الوصية، فمن الضروري أيضًا أن نناقش كل الإجراءات التي اتخذها أيضًا المجلس هذا الصباح، لأنها لا تحمل توقيع دون أنجيل.

كانت ضربة قاضية من موثِّق البلاط. فهي تتضمن أنهم إذا رفضوا الوصية، عندئذٍ فكل المؤامرات والخدمات واستغلال السلطة والبشاعات التي قام بها أعضاء المجلس، وعدُّوها قانونية بينما يتظاهرون بأن نائب الملك فاقد للوعي، تخاطر بألا ترى ضوء الصباح.

لوهلة ظل أمير فيكاراتسي صامتًا. ولهذا استغل الأسقف الفرصة، فسأل وعلى وجهه براءة الملائكة:

- لماذا لا نُخضع صحة الوصية للتصويت؟

استغل أعضاء المجلس تلك الفرصة على الفور، وأجابوا في جوقة:

- للتصويت، للتصويت!

فهم كبير القادة أنه خسر المباراة. وعاد ليجلس على العرش الأصغر.

- افعلوا ما يحلو لكم.

قال موثِّق البلاط:

- من يرى أن تلك الوصية صالحة يرفع يده.

رفع خمسة منهم أياديهم. وبهذا صدَّقوا على صحة الوصية.

عندئذٍ التفت الجميع لينظروا إلى دونًّا إليونورا التي ظلت طوال ذلك الوقت ثابتة وصامتة وسط القاعة.

قالت موجهة حديثها إلى الأمير:

- أفسح لي مكاني.

من دون أن يكون في صوتها أي نبرة آمرة.

وهذا ما أخاف الأمير بالتحديد، غياب الغطرسة في صوتها. فقد جمَّدت برودة تلك المرأة دماءه. خفض رأسه، ونزل من على العرش الأصغر، وعاد إلى مكانه في منصب كبير القادة.

عبرت دونًّا إليونورا القاعة أمام الأعين المدهوشة لكل من في القاعة، وتوقفت أمام العرش الفارغ للملك، أحنت رأسها، ثم تسلقت برشاقة الدرجات الثلاث، وجلست على العرش الأصغر، عدلت من ثوبها وببطء أكثر رفعت الحجاب الأسود وكشفت عن وجهها.

وفجأة لم يستطع أيٌّ منهم التقاط أنفاسه.

بدا كأنه في ظلام القاعة ظهرت نقطة ضوء أقوى من الشمس تغشى البصر إلى حد أن أعينهم دمعت لرؤيتها.

- امنحوني علامة على طاعتكم.

وهذه المرة أيضًا لم تكن هناك أي نبرة آمرة، مجرد طلب بسيط، مهذب، وديع تطلبه امرأة شديدة النبل.

لم يعد أعضاء المجلس مهتمين بالترتيب الهيكلي، اندفع الستة جميعهم، ومعهم كبير القادة، ربما وهو أيضًا مسحور مثلهم، وجروا كأنه سباق نحو العرش الأصغر وهم يهرولون، ويدفع أحدهم الآخر بمرفقه، ليجتمعوا عند أولى الدرجات الثلاث، ثم يركعون وأياديهم على قلوبهم ورؤوسهم منحنية.

حينها لم يستطع دون كونو جالُّومباردو أن يمنع نفسه من الهمس:

- جميلة جدًّا!

فقال أعضاء المجلس الخمسة الآخرون:

- جميلة جدًّا!

- جميلة جدًّا جدًّا!

فردد الآخرون:

- جميلة جدًّا جدًّا!

قال دون كونو:

- امرأة من الجنة!

فغنى الآخرون:

- امرأة من الجنة!

قاطعت دونًّا إليونورا الافتتان قائلة:

- عودوا إلى أماكنكم.

ابتعدوا في حزن ورؤوسهم ملتفتة نحوها، كمن عليه ترك نبع الماء وهو ما زال يشعر بالعطش.

تحدثت دونَّا إليونورا:

- أؤكد أننا لن نقوم بأي جنازة مهيبة ولا زيارات تعزية. سيلتقي المجلس المقدس مرة أخرى بعد الغد في الساعة نفسها مثل اليوم. انتهت الجلسة.

ولكن كيف يمكن في غمضة عين، وبينما المجلس لا يزال مجتمعًا، أن تعرف باليرمو كلها أنه في مكان نائب الملك الذي مات هذا الصباح توجد الآن امرأة؟

لم يصدق أغلب الناس وأقنعوا أنفسهم أنها مجرد مزحة. لم يكن في الإمكان تصديق أن امرأة يمكنها حكم صقلية.

ولم يكونوا مخطئين في ذلك، إذا أخذنا في الحسبان كيف سارت الأمور في الآونة الأخيرة.

في عام ١٦١١، وبعد أن حط في باليرمو بأسبوع، كتب دوق أوزونا، نائب الملك في صقلية، إلى الملك، الكلمات التالية بالضبط:

> لا أحد آمن هنا، ولا حتى في منزله. هذه المملكة لا تعترف لا بإله ولا بجلالتك، كل شيء للبيع، بما في ذلك حياة الفقراء وممتلكاتهم، وممتلكات الملك، وحتى العدالة نفسها. لم أرَ أو أسمع شيئًا يُقارن بنسبة الجرائم والفوضى هنا.

ونظرًا إلى أنه كان رجلًا بمعنى الكلمة، عمل على أن يسود القانون والنظام مرة أخرى. ونجح في هذا جزئيًّا، مستخدمًا قبضته الحديدية. إلا أنه بعدها اضطر إلى العودة إلى إسبانيا، وزادت الأمور سوءًا عن ذي قبل.

تزيد الضرائب والجمارك والرسوم من يوم إلى يوم، من دون أي سبب واضح، وتُطبق على كل شيء: القمح، والدقيق، والحمص، والفول، والحرير، والملابس، والبيض، والجبن... لم ينقصهم سوى وضع ضريبة على الهواء.

ثم، كأن كل هذا لا يكفي، لعبت الأوبئة والكوليرا أيضًا دورها، حيث أعجبتها المدينة، ومن حين إلى حين تمر عليها لتحييها تاركة خلفها آثارًا من الأجساد والمتضورين جوعًا، الذين لم تعد لديهم وسيلة للعيش.

ثم بدأت الحيوانات في الريف بالموت جوعًا، لأن الفلاحين تنقصهم النقود لشراء العلف. ولم يعرف نواب الملك كيف يمكنهم التعامل مع هذا الوضع المتفاقم. كأن ذلك لم يكن يكفي، فحدثت مجاعة كبيرة.

وأدى الجفاف والزيادة المخيفة في الضرائب في نهاية عام ١٦٤٧ إلى ثورة باليرمو الدموية.

سقط مئات القتلى، وحدثت سرقات وحرائق كثيرة، وذُبحت عائلات بأكملها، إذ لم يكن لغضب الشعب ضد البرجوازيين والأغنياء والنبلاء، حدود. وانسحب الجنود الإسبان وحوصروا داخل ثكناتهم.

عندئذٍ، وبنعمة من الرب، توقفت المذبحة تدريجيًا. ولكن نتائجها استمرت طويلًا، من خلال مئات اليتامى من الصبيان والبنات، من مختلف الأعمار، لم يكن لديهم ما يأكلونه وكانوا يسرقون أو يتسولون الصدقة، ومن خلال أرامل وصبايا لم يكن أمامهن ما يبعنه سوى أجسادهن، ومن خلال أعمال عنف مستمرة، وأصبح الفساد منتشرًا بين الجميع.

ولا تزال كل تلك النتائج موجودة، وربما تفاقمت، في لحظة موت دون أنجيل. ولذلك إذا لم يكن في استطاعة رجل أن يحلها، فبالتأكيد لن تستطيع امرأة ذلك.

إذ إن المرأة، كما هو معروف، قيمتها أقل بقليل من رجل. بل أحيانًا تكون أقل قيمة من حيوان جيد.

وإذا، على سبيل المثال، وضعت في رأسها أنها تساوي شيئًا ما، فلا بد على الفور من وضعها في مكانها المناسب. وفي الواقع...

عاد باليمنتيري، الحائك، بسرعة إلى منزله، وبدأ على الفور يضرب زوجته.

سألته وهي تبكي:

- ماذا حل بك؟

- لا شيء. كنت أريد فقط أن أذكرك من يحكم هنا!

الشيء نفسه فعله ميكيلوتزو ديجوفاني، شاب في الخامسة والعشرين وقوي مثل ثور، فبمجرد أن وصل إلى المنزل، عرَّى زوجته، وألقى بها على الفراش وأخذ يضاجعها لمدة ثلاث ساعات متواصلة، كأنها حيوان. وعندما توسلت زوجته إليه لأنها تشعر بتحطم عمودها الفقري، وسألته لماذا يفعل هذا، أجاب ميكيلوتزو أنه ينتقم.

قرر البارون الشاب تريكازيه أنه منذ تلك اللحظة لن تتناول زوجته الطعام معه، ولكن بمفردها، وعليها أن تخدم نفسها، في حجرة صغيرة ملحقة بالمطبخ حيث يأكل الخدم عادة.

وقال دون باسكوالي بيشوتا، تاجر القماش، لزوجته إن عليها أن تركع في كل مرة تأتي لتطلب منه نقود المشتريات.

ولهذا، عندما نزل أعضاء المجلس من الردهة الكبيرة ودخلوا إلى عرباتهم، وجدوا أنفسهم وقد هجم عليهم العديد من الأصدقاء والمعارف الذين كاد الفضول يقتلهم.

«كيف حدث هذا؟ ماذا يحدث؟ كيف يمكن أن امرأة...؟ إن هذا الأمر أسوأ من الثورة».

بمجرد أن نجح دون ألتيريو بينياتو في الدخول إلى عربته، وجد رجلًا، كان قد تسلق وصعد درج العربة، ليرفع نفسه، ينظر إليه من النافذة. كان مركيز تريجونيلَّا، دون سيمونه تريكًّا.

- اعذرني يا دون ألتيريو إذا كنت أُضيع وقتك، ولكن كنت أريد أن أعرف إذا كان التماس مساعدة مؤسستي الخيرية...

- يسعدني أن أقول لك إن الاقتراح الذي اتفقنا عليه قد صُدِّق عليه هذا الصباح بلا مشكلات.

- أشكركم من أعماق قلبي، لم يكن لديَّ أي شك في كرمكم. وإذا أردتم أن تشرفونا بزيارة مؤسستي الخيرية، فإن الأبواب دائمًا مفتوحة لكم، وأنتم تعرفون العنوان.

فكر دون ألتيريو لوهلة.

- يمكنني أن أحضر في الغد، ساعة بعد غروب الشمس.

- سأنتظركم.

عند الضوء الأول لفجر اليوم التالي، أي شخص كان يمر من أمام القصرين المؤديين إلى كاسَّارو يُدرك أنه على واجهة قصر منهما، شخص ما علق ورقة، مجهولة المصدر، في أثناء الليل مكتوبًا عليها الآتي:

امرأة نائب ملك أمر لا يُحترم
فالنساء لا يصلحن سوى للفراش.

ولكن على واجهة القصر الآخر عُلقت ورقة أخرى، تحمل نبرة مختلفة تمامًا:

هؤلاء المستشارون الفاسدون وشديدو القسوة
جيد بالفعل أن يقعوا تحت حكم امرأة.

وبذلك عبَّرت المدينة عن رأيها. ولكن نظرًا إلى أن هذا الرأي كان منقسمًا إلى اثنين، متعارضين بشدة، انتهى الأمر، كما يحدث دائمًا في حالة صقلية، وأصبح رأيًا بلا أي قيمة.

أعدَّ أفضل صانعي النعوش في المدينة، نجيلينو شيما، بسرعة شديدة، نعشًا عمليًّا لدون أنجيل، عدَّله على مقاساته، من تابوت كان قد جهَّزه تأهبًا لرحيل بارون ريبولا، رجل ضخم الجثة، يُحتضر منذ ستة أشهر ولكن لا يموت أبدًا.

أخذ التابوت إلى القصر، مع اثنين من متعهدي الدفن، في التاسعة صباحًا.

وهكذا وُضع الجسد، الذي باركه دون أشولّا، كاهن كنيسة البلاط الصغيرة، في حجرة صغيرة أُعدت خصيصًا لهذا الغرض ووُضع على حامل حديدي.

وضعت دونًا إليونورا أربع شمعات ضخمة جدًا، على الجوانب، وأمرت أن تظل الشموع موقدة طوال الوقت، ليلًا وصباحًا.

ثم لأول مرة منذ وفاة زوجها فقدت الوعي، إذ قضت الليلة كلها ساهرة بجوار جسد دون أنجيل.

عندئذٍ شعرت رئيسة الوصيفات بالقلق، وجرت إلى رئيس المراسم الذي هرول بدوره إلى طبيب البلاط دون سيرافينو جوستالوكا.

هو الذي، لم تسنح له فرصة من قبل لرؤية دونًا إليونورا، بمجرد أن رآها أمامه لم يكَد فقط يفقد بدوره أيضًا الوعي، ولكنه أدرك على الفور أنه وقع، بلا أمل، في حب تلك المرأة.

كان دون سيرافينو رجلًا ضخمًا يبلغ من العمر الخامسة والأربعين، شاحب الوجه وأشعث، كرَّس نفسه وحياته لدراسة الطب. رجل طيب الطباع، مخلص وصادق. لم يتزوج، ويعيش في المنزل مع أمه، وأخته الكبرى التي لم يلمسها أحد أيضًا.

كانت المرة الأولى التي يشعر فيها بالحب، ونظرًا إلى عدم وجود أي خبرة سابقة، لم يكن يعرف ما يمكن فعله ليخفي هذا، على الرغم من محاولته. فترك ذلك ليظهر على الفور مسحورًا وهو يحدق إلى دونًا إليونورا.

فجأة نسي من هو، وأين هو، وما يجب عليه عمله.

من حسن الحظ، نظرًا إلى أن كل قواه هجرته، سقطت زجاجة الأعشاب ومعها الأدوية من بين يديه، وأيقظه صوت اصطدامها بالأرض من سباته.

طلب على الفور من رئيسة وصيفات دونًا إليونورا أن تنزع عنها

ملابسها وأن تضعها في الفراش، بينما انتظر هو في الغرفة المجاورة. ثم دخل والعرق يغطيه وحلقه شديد الجفاف، ومدَّ يده المرتعشة ليلمس جبهة دونًّا إليونورا التي أخذت تحدق إليه.

ثم أمسك بيدها ليجس لها النبض، ولوهلة شعر بأن أصابع المرأة تضغط على أصابعه. شعر بدوار في رأسه وجلس على المقعد، الذي من حسن حظه، تصادف أن يكون قريبًا.

ابتسمت دونًّا إليونورا لنفسها. لقد اكتسبت صديقًا، وكانت هي تعرف أنها في حاجة إلى أصدقاء.

بدأ طبيب البلاط يتلعثم كثيرًا في أثناء التحدث، وشرح لرئيسة الوصيفات كيف يمكنها إعداد مشروب بالأعشاب التي يحتفظ بها في كيس صغير، وقال لدونًّا إليونورا إنه سينتظر في الغرفة المجاورة، ولكنها ترجته أن يمكث وأن يجلس.

أطاعها دون سيرافينو وقلبه يدق بجنون.

عندئذٍ سألته دونًّا إليونورا إذا كان دون أنجيل قد تألم. استبعد دون سيرافينو ذلك تمامًا.

أغمضت دونًّا إليونورا عينيها للحظة، ثم فتحتهما من جديد، وسألته مَن استدعاه، فأجابها السكرتير. وماذا قال له بالتحديد؟ إن نائب الملك حدث له إغماء بسيط.

ثم طرحت عليه دونًّا إليونورا سؤالًا آخر، حتى شخص ساذج مثل دون سيرافينو أدرك كم كان سؤالًا خبيثًا:

- برأيك، ما المدة التي مرت على موت دون أنجيل عندما أعلنت أنت ذلك؟

اقتنع دون سيرافينو على الفور أنه لا يمكنه إلا قول الحقيقة لها. وأجابها أن كبير القادة أخبره بأنهم استدعوه على الفور، ولكن في رأيه بوصفه طبيبًا خبيرًا، مات دون أنجيل على الأقل قبلها بساعتين.

قالت دونًّا إليونورا:

- آه.

بعد قليل وصل المشروب الساخن. أراد دون سيرافينو أن يساعدها هو على شربه، ولكنه عندما وضع يده خلف عنقها ليرفع رأسها، بدأ يرتعش بقوة حتى كاد يسكب الفنجان على الفراش. عندئذٍ تدخلت رئيسة الوصيفات بينما جلس طبيب البلاط منهكًا على المقعد.

بعد مدة قصيرة، بدأت عينا دونًّا إليونورا تنعسان.

- أشعر بالنعاس.

استأذن دون سيرافينو.

- أرجوك عُد بعد الظهر.

شعر دون سيرافينو كأنه يكاد يصطدم بالسقف، ويخترقه ويطير نحو السماء.

- تحت أمرك.

- أحتاج إلى أن أتحدث مع سيادتك. ولكن لا تستخدم الباب الرئيسي. هناك باب سري، ستطلعك عليه إستريلًّا. استخدم هذا. أستخدمه تقريبًا كل يوم.

سألها دون سيرافينو مدهوشًا:

- حضرتك؟

ابتسمت دونًّا إليونورا بخبث وأكملت بالإسبانية:

- أنا أعرف باليرمو أفضل من حضرتك.
- ولكن كيف فعلتِ حتى لا يتعرَّف عليك أحد؟
هذه المرة أصبحت ابتسامة دونًّا إليونورا أخبث من ذي قبل:
- أعرف كيف أتوخى الحذر.

قالت السيدة سيدورا، أُم طبيب البلاط:
- سيرافي، قُل لأمك لماذا لا تأكل؟
سألت كونشيتينا، أخت طبيب البلاط:
- هل تشعر بألم يا سيرافي؟
ولكن كيف يمكن لسيرافينو أن تكون له أي شهية بينما دونًّا إليونورا تحتل ذاكرته كأنها أمامه بشحمها ولحمها؟
بالإضافة إلى هذا، عندما عاد إلى المنزل هاجمته المرأتان اللتان أرادتا معرفة إذا كانت المركيزة شديدة الجمال، كما يُقال عنها، وماذا كانت ترتدي وكيف تتصرف. تعذيب تام.
انسحب إلى حجرته، ولكنه لم يحتمل، على الرغم من أنه انحنى على الكتب التي يحبها، فبدت له بائسة مثل كهف.
عندئذٍ أغلق على نفسه غرفة الاستحمام، نزع ملابسه واغتسل كله لينتعش. شعر كأنه يشتعل جراء حُمى عنيفة.
بدَّل ملابسه وخرج في تمشية طويلة. كاد يخاطر بحياته مرتين أو ثلاثًا، أسفل عجلات العربات. لم يكن في كامل تركيزه. وفي الخامسة أصبح أمام القصر.
طرق على الباب الصغير الخلفي كما أرته إستريلًّا، رئيسة

الوصيفات، وفتح له حارس. كانت إستريلًّا في استقباله في غرفة الانتظار. سألها طبيب البلاط إذا كانت المركيزة قد تناولت الطعام. أكلت حساءً خفيفًا وبعضًا من السلطة، وبعدها عادت إلى الفراش.

عندما دخل إلى حجرة النوم وجد دونًّا إليونورا نائمة. جلس من دون أن يصدر عنه أي صوت وجلس مسحورًا يحدق إليها.

بعد مدة وجيزة لاحظ دمعتين كبيرتين تنحدران من عينيها. فجففهما لها.

بعدها بقليل فتحت المركيزة عينيها، رأته وابتسمت له.

لاحظ دون سيرافينو شيئًا عجيبًا، كأن أجراس الكاتدرائية بدأت تدق أجراس العيد في رأسه. تحدثا طويلًا هو والمركيزة، ثم قالت له إن عليها أن تنهض وترتدي ملابسها، لأنها في انتظار بعض الأشخاص.

عندما رحل، بعد ساعة من غروب الشمس تقريبًا، كان قد أجاب عن مئات الأسئلة التي طرحتها عليه دونًّا إليونورا.

في طريقه إلى المنزل، لأول مرة في حياته، بدأ يغني، ولكن بصوت خافت.

الفصل الرابع

دونًا إليونورا ترأس المجلس الملكي المقدس وتزعج الجميع

في أثناء عودة دون سيرافينو سعيدًا إلى منزله، توقفت عربة مجهولة، لا شعار عليها، بجوار مبنى صغير منعزل بعض الشيء، دُهِن حديثًا بلون جديد، في شارع ضيق ومهمل.

نزل الحوذي، الذي أُمر بألا يرتدي زيه الرسمي، وهو يقفز بصعوبة من مقعده ليفتح الباب.

خرج دوق باتيكاني، دون ألتيريو بينياتو، وهو يتلفت حوله بحذر. وضع منديلًا فوق وجهه كأنه مُصاب بالبرد.

سأله الحوذي:

– هل يجب أن أنتظرك يا سيدي؟

تردد الدوق في لحظة من الشك.

– لا، يمكن أن يستغرق الأمر بعض الوقت. لنفعل هذا، تعالَ لتأخذني خلال ساعتين، وإذا لم أكن قد انتهيت، انتظرني.

بعد أن انطلقت العربة، طرق على الباب واضعًا المنديل على وجهه. فُتح الباب الصغير داخل الباب الكبير على الفور، فتحه دون سيمونه تريكًّا بنفسه.

- سمعت صوت قدومك ونزلت على الفور لأستقبلك بنفسي.
- عزيزي المركيز، كما ترى، نفَّذت وعدي لك.
- وهأنذا سيدي الدوق، مستعد لأرحب بك بما يليق من تكريم.

تنحى جانبًا فدخل دون ألتيريو. أغلق دون سيمونه الباب، كانت كل الشمعدانات مضاءة.

شرح دون سيمونه:

- في الطابق الأرضي توجد الكنيسة الصغيرة، وقاعة الطعام والمطبخ، ودورتا مياه صغيرتان ومكتب، وقاعة كبيرة تتعلم فيها اليتيمات الفقيرات الحياكة. هل تحب أن تزور الحجرات؟

لم يكن دون ألتيريو يرغب في ذلك، وتظاهر بأنه لم يسمع.

- كم تبلغ أعمارهن؟
- بين السادسة عشرة والعشرين. جميعهن فتيات من عائلات صالحة، بنات تجار وموظفين وحائكين وحلاقين، صادفهن الحظ التعس وحُرمن من ذويهن وأي مصادر دعم مادي.
- وكم عدد الموجودات هنا حاليًّا؟
- في الوقت الحالي لدينا نحو خمس وعشرين، ولكن مع التبرع السخي الذي تكرمت جدًّا بالحصول عليه من أجلي من المجلس، يمكنني أن أستضيف نحو أربعين.

وبقوله هذا لعق شفتيه.

- وأين ينمن؟

- عشرون منهن في الطابق الأول، وخمس في الطابق الثاني، وهو تقريبًا فارغ. ولكن الحجرات جاهزة لمن سيحضرن فيما بعد.

- ومن في الطابق الثالث؟

- الحارسان والوصيفات الأربع، ومُعلمة الحياكة. وتوجد أيضًا بعض المخازن التي نضع فيها الأشياء الضرورية للعناية بالمنزل والفتيات.

- ولماذا كل هذا الهدوء؟

ابتسم دون سيمونه:

- تبعًا لقواعد المنزل تأكل الفتيات في الغروب، وبعدها يذهبن إلى الكنيسة الصغيرة للصلاة، وعلى الفور يذهبن جميعًا للنوم. موعد الاستيقاظ في الرابعة صباحًا. بعد الصلاة يبدأن العمل. هل تحب أن تذهب إلى الطابق الأعلى؟

شعر دون ألتيريو بقليل من الإحباط. حسب الشائعات التي سمعها من بعض الجهات، لم يكن يجب أن تسير الأمور بهذا الشكل.

- ولكن إذا قد نمن...

- يستحق الأمر الزيارة، على الرغم من ذلك، صدقني.

صعد دون ألتيريو السلالم خلف دون سيمونه.

وجد نفسه في ردهة نورها خافت تشبه الدير تمامًا. فيها اثنان وعشرون بابًا، أحد عشر على كل جانب. وفي نهاية الردهة توجد سلالم أخرى، تؤدي إلى الطابق الأعلى.

- هل ترغب في النظر داخل الحجرات؟
- ولكن يجب أن تفتح الأبواب...
- لكل باب ثقب للتلصص، وكل فتاة عليها أن تترك شمعة مُوقدة دائمًا. انظر، انظر، فالمنظر جميل.

قرَّب دون ألتيريو عينه من ثقب التلصص للباب الأول. وكان ضوء الشمعة يكفي.

كانت حجرة صغيرة متقشفة، بها فراش صغير وكومودينو، ومكان للركوع، وحوض على حامل، وآنية بها مياه للاغتسال، ودلو به ماء متسخ، وكرسي، ومشجب على الجدار.

تنام فتاة عمرها تقريبًا ثمانية عشر عامًا فوق الملاءات، نظرًا إلى الحرارة الشديدة. قميص نومها مرتفع حتى أسفل بطنها، كاشفًا فخذيها اللتين تحثان المرء على التربيت عليهما.

بعدها دُهش دون ألتيريو من منظر مؤخرة فتاة في العشرين، وثديين متماسكين كالرخام، وأحراش جبل فينوس تبدو كأنها مصنوعة من المخمل...

كان يمكنه أن يستمر في التلصص على العشرين حجرة كلها، بل وحتى داخل المرحاضين، لو لم يقُل له دون سيمونه:

- لنذهب إلى أعلى.

وفي أثناء الصعود، التفت وأعلن له:

- الآن هيَّا نقابل الخمس الأجمل.

وهنا تضيء كلًّا من الحجرات الصغيرة ثلاث شمعات. داخل الأولى توجد شقراء ممتلئة قليلًا، تليها ثلاث حجرات فارغة، وفي

الخامسة توجد فتاة حمراء الشعر بدا كأن جسدها منحوت من الحديد الخام. وبعد ثلاث حجرات فارغة، كانت توجد معجزة ربانية.

مكث دون ألتيريو مسحورًا يحدق إليها.

كان عمرها نحو ثمانية عشر عامًا، طويلة القامة، شعرها طويل يتدلى على كتفيها، ساقاها ممتدتان إلى الأبد، ووقفت في منتصف الحجرة بفخذيها متباعدتين. عندما أدركت أن أحدهم ينظر إليها من الخارج، خلعت ببطء قميصها ومكثت عارية وهي تضع يديها على خصرها. في تحدٍّ.

- هل تريد أن ترى الأُخريين؟

- لا.

- هل تعجبك هذه؟

- أجل.

- إنها واحدة من اللواتي يمكنك أن تطلب منهن أي شيء. لا تتمرد ولا تقول لا أبدًا.

- هذا أفضل. هل يجب أن أدفع لها؟

بدا دون سيمونه مصدومًا.

- فيمَ تفكر؟ هل تمزح؟ من تظنها، عاهرة؟ إنها يتيمة مسكينة، ابنة كبير خدم أمير لامبيدوزا. اسمها شيليستينا أنزيلوتا. لقد أحضرتها إلى هنا بناءً على أوامر من البارون...

قاطعه دون ألتيريو:

- حسنًا، حسنًا.

- إذن ها هو ذا مفتاح الباب. أوصيك عندما تنتهي، أغلق

عليها من الخارج. هذه الصغيرة شيطانة، يمكنها أن تهرب. سأذهب أنا لأقضي بعض الوقت مع الشقراء. عندما تنتهي، انظر من ثقب التلصص، إذا كنتُ لا أزال في الداخل، فاطرق عليَّ الباب لأخرج. إذا لم أكن هناك، فسأكون في انتظارك في الأسفل.

بعدها بساعتين ونصف الساعة تقريبًا، خرج دون ألتيريو من الحجرة، وأغلق خلفه الباب بالمفتاح. كان متقطع الأنفاس، فقد أنهكته الفتاة. لم يكن دون سيمونه في حجرة الشقراء. كان في انتظار دون ألتيريو في الأسفل.

- هل كل شيء على ما يرام؟
- كل شيء على ما يرام.
- هل تحتاج إلى أي شيء آخر؟
- لا، أشكرك. آه، كنت أريد أن أسألك عن شيء.
- تحدث.
- هل يمكنني العودة بعد غد؟

كان يمكنه أن يقضي الليلة كلها مع شيليستينا. فقد تغلغلت في دمه. ولكنه لا يستطيع ذلك على الإطلاق. زوجته ماتيلدا تنتظره في المنزل، ويمكنها أن ترتكب جريمة إذا لم يعد.

- عزيزي الدوق، أنت مثل السيد هنا. فقط أذكِّرك أنه كلما جاءت المنحة مبكرًا كان ذلك أفضل لنا جميعًا.

في ذلك الوقت الذي زار فيه دون ألتيريو بينياتو، برضا عظيم، العمل

الخيري لدون سيمونه تريكًا، تقابل خمسة من أعضاء المجلس في منزل أمير فيكاراتسي، كبير القادة للعدالة.

وصلوا إلى المكان خفية، من دون أن يلحظهم أحد، سيرًا على الأقدام، وقبعاتهم متدلية تغطي أعينهم، وياقات معاطفهم مرتفعة حتى أفواههم. إذ استدعاهم فجأة أمير فيكاراتسي.

لم يكن ينقصهم سوى دون ألتيريو الذي لم يتمكن أحد من العثور عليه.

قال الأمير:

- سأدخل في الموضوع مباشرة، حتى لا أُضيع وقتكم. لقد استدعيتكم لأنني ليلة أمس مكثت مدة طويلة أفكر فيما حدث أمس في المجلس الملكي المقدس، ووصلت إلى بعض الاستنتاجات.

اعتقدوا كلهم على الفور أن الأمير أراد أن يفتح من جديد موضوع وصية دون أنجيل. ولكن الآن لم يكن هناك ما يمكن عمله، ولذلك...

اندفع الأسقف:

- لا بد أن تفهم، يا سيدي الأمير، أن المرحوم نائب الملك، بتعبيره عن رغبته...

قاطعه القائد الأعظم:

- لم أكن أريد أن أتحدث عن هذا. بالنسبة إليَّ هذا موضوع منتهٍ.

سأله دون سيفيرينو لوماشو:

- إذن عمَّ تتحدث؟

قال الأمير:

- عن الثمالة.

نظر أعضاء المجلس بعضهم إلى بعض في تعجب.

وقال دون أركنجيلو لافيرلا مضطربًا:

- أي ثمالة؟ لم يكن أحد ثملًا.

- كنا جميعًا سكارى! جميعنا!

أجابه الأمير وقد رفع صوته، وأكمل بعصبية:

- لقد أسكرنا جميعًا جمال دونَّا إليونورا غير العادي، ولم ندرك أي شيء تقريبًا! بل وضعناها على الهيكل كأنها قديسة!

قال دون جالُّومباردو:

- هذا حقيقي، ولكنه كان تصرفًا عفويًا، تكريمًا...

ختم الأمير:

- إذا لم نتوخَّ الحذر، يمكن أن يكلفنا هذا الثمين والغالي.

سأل الأسقف بفضول، وهو يفكر أن الأمير كشف أنه ليس مجرد دخان في الهواء كما قيَّمه سابقًا:

- بأي معنى؟

- بمعنى، أن هذه المرأة، إذا أرادت، يمكنها في غمضة عين أن تحولنا إلى مجموعة دمى بين يديها.

اعترف الأسقف، بعد لحظة من الصمت المُتأمل:

- بالفعل...

سأل دون كونو:

- ولكن، ماذا يجب أن نفعل لنحمي أنفسنا؟ إن النظر إلى جمالها

يسبي! ثم إننا لا يمكننا أن نجلس في المجلس وأعيننا مغلقة حتى لا نراها!

أكمل الأمير حديثه:

- الآن سأحاول أن أشرح لكم. حيث إنني أنظر إلى دونًّا إليونورا على أنها امرأة خطيرة، وأنها تعرف جيدًا جدًّا ماذا تريد أن تفعل، وبما أن ما تريد هي أن تفعله، ليس الشيء نفسه الذي نريد فعله نحن، نظرًا إلى هذا، سأقول إن الشيء الأول الذي لا بد أن نفكر فيه هو كيف يمكننا، أن نحتفظ، في أثناء حكمها، بحرية الحركة نفسها التي حصلنا عليها في مدة مرض دون أنجيل.

قال دون سيفيرينو لوماشو، الذي بوصفه قاضي الملكية، يعرف عن هذه الأمور:

- ولكن كيف سيمكننا رفض أي شيء ستقوله؟ إن رغبتها قانون.

قال الأمير:

- سيستغرق الأمر بعض الوقت، ولكن سيمكننا هذا. وفي أثناء ذلك، لا بد أن يكون لنا نحن الستة رأي واحد مُوحد أمامها. سأقدم لكم عرضًا، كل يوم ثلاثاء، ولنقل اليوم السابق لموعد المجلس، نتقابل لنناقش موضوعات اليوم التالي. وهكذا في يوم المجلس سنكون قد وصلنا إلى اتفاق عام، يجب ألا نحيد قيد أنملة عن هذا الاتفاق. وهذا يعني أنه يمكن لقانون أن يُنفذ فقط بناءً على رغبة دونًّا إليونورا، ولكن في مقابل رفض المجلس كله.

قال دون كونو:

- وما فائدة هذا؟ سينفذ القانون في كل الأحوال.

- ولكن ألم تلاحظوا أن المدينة انقسمت نصفين بين من هو معارض لنائب ملك امرأة، ومن هو مؤيد؟ لا بد أن نستغل هذا الموقف. لا بد أن يعرف أولئك المعارضون لوجود نائب ملك امرأة، أن أعضاء المجلس ليسوا متفقين معها. يجب أن نحصل على تأييد الشعب كله.

قال دون كونو:

- لن يكون هذا سهلًا.

- لماذا؟

- لأنه، بناءً على الانطباع الذي وصل إليَّ، نساء باليرمو يرقصن من السعادة من فكرة أن من يعطي الأوامر الآن امرأة.

قال دون أركنجيلو:

- ما عدا زوجتي. بمجرد أن عرفت عن جمال دونًا إليونورا، شعرت بالغيرة وبدأت الشجار.

قال دون سيفيرينو لوماشو:

- وزوجتي أيضًا.

دعاهم الأمير إلى الهدوء.

- نحن نتحدث عن أمر جاد هنا. من فضلكم. ولذلك، نظرًا إلى موقفنا، يمكننا الاقتراح أن تكون كل الجلسات علنية.

سأل الأسقف:

- وبعد ذلك؟

- وبعد ذلك، حريق يشتعل هنا، وثورة هناك، موت اثنين أو ثلاثة في حوادث، يمكننا أن نكتب خطابًا جميلًا لسمو ملك إسبانيا،

نشرح له فيه الوضع الذي تفاقم، وأن دونًّا إليونورا، بعنادها، تدفعنا نحو الهاوية. ما رأيكم؟

قال الأسقف:

- يبدو لي أمرًا معقولًا.

واتفق الآخرون معه.

أكمل الأمير:

- في الوقت نفسه، يجب علينا الحرص؛ فدونًّا إليونورا يجب أن تُعامل كما تستحق.

سأله دون كونو:

- وهذا يعني؟

- يجب أن تُعامل باحترام، وإخلاص وإعجاب. لا بد أن يصل إليها الانطباع أننا راكعون دائمًا أمامها. لقد أعطيتُ التعليمات لرئيس المراسم أنه في كل اجتماع، بدءًا من الغد، وأمام أولى الدرجات الثلاث للعرش الأصغر لا بد أن يضع ست باقات من الزهور، واحدة من كل واحد من الأعضاء.

سأل دون سيفيرينو لوماشو، الذي كان بخيلًا بعض الشيء:

- ومن سيدفع ثمنها؟

- سندفعها بالتناوب. ما ننفقه الآن سنحصل فيما بعد على أضعاف أضعافه.

وبعد نصف ساعة، انتهى الاجتماع.

لم يلحظ أعضاء المجلس أي شيء، ولكن بمجرد أن دخلوا إلى

القاعة الكبيرة وجلسوا في أماكنهم، وهم ينظرون بإعجاب إلى الزهور الرائعة الموضوعة عند أولى الدرجات الثلاث، حوصر القصر بالكامل بجنود إسبان مسلحين، بناءً على أوامر أحد القادة. ومُنع أي شخص من الدخول.

ثم ظهرت دونًّا إليونورا، ونهض كل الحضور. عبرت القاعة كأنها تطير على ارتفاع شبر من الأرض، ثم توقفت عندما رأت الزهور. التفتت لتنظر إلى المستشارين وابتسمت.

بدأ المستشارون الستة يتأرجحون معها كأنهم قمم أشجار في مهب الريح.

فكر دون كونو:

- إذا استمرت في الابتسام بهذه الطريقة، فقد ضعنا جميعًا.

قالت دونًّا إليونورا بالإسبانية جريًا على عادتها:

- شكرًا جزيلًا.

يا له من صوت! موسيقى سماوية! لحن ملائكي!

توجهت دونًّا إليونورا لتجلس على العرش الأصغر الذي استُبدِلت قاعدته لتصبح مسطحة مرة أخرى.

ولكن قبل أن يطلب موثِّق البلاط الإذن في أن يعلن عن افتتاح الجلسة، حدث شيء غريب.

وصل صوت حاد، كأنه ضربة مسدس، من خلف الباب. التفت الجميع. كان كعبا الجنرال ميجل بلاسكو ده تيمبا، قائد الجيش الإسباني على الجزيرة، هما المتسببين في هذا الصوت.

وقف الجنرال بثبات، وقدم التحية العسكرية، وهو يحدق إلى

العرش الأصغر بعينين مخيفتين لمُحارب غير معتاد على أن يُظهر التعاطف أو الاعتبار لأي إنسان.

أشارت إليه دونًا إليونورا بأن يتقدم.

تقدم الجنرال بخطوات عسكرية، يرتدي سيف الفرسان وأوسمته ترن، وتوقف عند أقدام الدرجات الثلاث، على الجانب بعض الشيء.

زرع نفسه هناك مثل وتد، ساقاه متباعدتان وذراعاه معقودتان.

نظر أعضاء المجلس أحدهم إلى الآخر ببعض القلق.

ما هذا الذي يحدث؟ لم يحدث من قبل أن حضر قائد الجيش اجتماع المجلس الملكي المقدس. لم يكن هذا مكانه. ما معنى هذا إذن؟

لم تفسر دونًا إليونورا أي شيء.

وبدلًا من هذا، ومن دون أن تتحدث، أشارت لموثِّق البلاط، وأعلن افتتاح الجلسة. نهض السكرتير على الفور، ولكن رفعت دونًا إليونورا يدها لتوقفه، وقالت قبل أي شيء آخر إنها تريد أن تعلن عن تصريح افتتاحي.

تحدثت ببطء بحيث لا يكون هناك أي سوء فهم لما تقوله، وأكدت أن لديها أسبابًا وجيهة تدفعها إلى الاعتقاد بأن زوجها المسكين، في أثناء جلسة المجلس الملكي المقدس الأخيرة، لم يكن عمليًّا قادرًا على فهم ما كان يحدث حوله.

وأشارت إلى أنه في ذلك الصباح بالتحديد، بعد أن استيقظ، فقد دون أنجيل الوعي مرتين. ويمكن أن يشهد على ذلك وصيفاه الشخصيان.

وأضافت أنها توسلت إليه أن يؤجل المجلس، لكنه لم يرغب في ذلك على الإطلاق.

لذلك ترى أنه من واجبها أن تتأكد أن كل الإجراءات التي اتُّخذت في الجلسة الأخيرة قد أُلغيت، وأن كل شيء لا بد من مناقشته مجددًا في الجلسة التي افتُتحت للتو.

أول من أدرك معنى كلمات دونَّا إليونورا الأسقف ودون كونو، ودون سيفيرينو.

نهضوا على الفور، وأخذوا يصيحون مثل المجانين، قائلين إن الإجراءات وافق عليها نائب الملك وإنه لا يمكن التراجع فيها.

اندفع الأسقف قائلًا:

- ما حدث قد حدث بالفعل!

وقال دون سيفيرينو بتعبير ساخط:

- نحن رجال كلمتنا واحدة!

وقال دون كونو بعصبية:

- لا عودة إلى الوراء!

وعندما فهم أعضاء المجلس الآخرون أخيرًا ما حدث، نهضوا وبدأوا في إشعال معركة حامية. ثم بدأ الستة، من دون حتى أن يدركوا، في التقدم نحو العرش الأصغر. بالتأكيد لم تكن لديهم أي نية لوضع أيديهم على دونَّا إليونورا، فعلوا ذلك بطريقة عفوية، ربما باقترابهم أكثر ستسمعهم بطريقة أفضل.

عندئذٍ قفز الجنرال ميجل بلاسكو ده تيمبا. وبركلتين قويتين أطاح بباقات الزهور ليفسح ساحة للتحرك بحرية، بينما يضع يده اليمنى على

مقبض سيفه، وبأصابع يده اليسرى أصدر صفيرًا حادًّا مزق طبلات آذان أعضاء المجلس، فجأة ظهر اثنا عشر جنديًّا مسلحًا وجَرَوا ليضعوا أنفسهم بين الجنرال وأعضاء المجلس الذين بدورهم، رفعوا أياديهم فزعًا مستسلمين، وهرولوا إلى مقاعدهم من دون أن يتفوهوا بكلمة أخرى.

أعطى الجنرال الأمر، وانتقل الجنود ليقفوا خلف عرش الملك. عندئذٍ طلب السكرتير، الذي ارتعش مثل ورقة الشجرة، الكلمة. عندما سُمح له بالحديث، قال إن عددًا من القرارات التي اتُّخذت أُعلن عنها بالفعل، حسب تعليماته، للأشخاص المعنيين، لأنه عدَّها قرارات صالحة. كيف عليه أن يتصرف الآن؟

قالت دونَّا إليونورا، بعد أن فكرت قليلًا، إن ما أُعلن عنه يجب احترامه. ألم يكن أعضاء المجلس متفقين على ذلك؟

قال أعضاء المجلس في جوقة:

- أجل، أجل.

إذن كل ما تجب مراجعته هو القرارات التي لم يُعلن عنها، ومناقشتها من جديد. ماذا كانت؟

واتضح أن ما تبقى هو القرارات التي اتخذوها بعد موت دون أنجيل، وتظاهروا فيها أنه ما زال حيًّا.

استمرت المناقشات ثلاث ساعات كاملة.

اعترضت دونَّا إليونورا على كل القرارات، ولكن المجلس كله أقرَّها. وما توقعه أمير فيكاراتسي حدث بالفعل.

ولكن في كل الأحوال، ونظرًا إلى أن إرادة دونَّا إليونورا كانت الأعلى، أُلغيت القرارات كلها.

عندئذٍ اقترحت دونَّا إليونورا أن يستأنفوا الجلسة في اليوم التالي.

اعترض الأسقف قائلًا إن لديه واجباته المحددة تجاه التاج، ولكن لديه واجبات أسمى تجاه الرب والكنيسة، وأنه في الغد لديه خدمة في الكاتدرائية.

ونظرًا إلى أنهم في اليوم السابق كانوا قد اتفقوا على أن يظهروا جميعًا تضامنًا في المجلس، قرر أمير فيكاراتسي أنها اللحظة المناسبة لأن يُعلن أنه، بالمثل، لا يمكنه حضور تلك الجلسة، إذ إن لديه التزامًا سابقًا في كاتانيا في ذلك اليوم، ثم سرعان ما أعلن باقي الأعضاء، بعذر أو بآخر، أنه لا يمكن إقامة اجتماع في اليوم التالي. عندئذٍ سألتهم دونَّا إليونورا عن الأيام الأخرى التي يمكنهم تخصيصها للمجلس بالإضافة إلى يوم الأربعاء. أجاب أمير فيكاراتسي، باسم كل الأعضاء، أن يوم الأربعاء هو اليوم الوحيد المُتاح.

أجابت دونَّا إليونورا أنه لا يكفي، لأنه توجد أمور كثيرة جدًّا يجب إنجازها.

رفع الأمير يديه في استسلام. في أعماقه كان مستمتعًا بالصعوبات التي يخترعها لها.

ترجتهم دونَّا إليونورا أن يراجعوا موقفهم بجدية. ألا يمكنهم أن يخصصوا ثلاثة أيام للمجلس.

قال الأمير:

- لا.

سألته دونَّا إليونورا:

- ولا حتى يومين؟

قال الأمير:

- لا.

عندئذٍ التفتت دونًا إليونورا إلى سكرتير الجلسة، وأمرته أن يكتب في المحضر أنه لا يوجد من بين الأعضاء من أبدى استعداده لأن يعلن أنه طوع أمر نائب الملك بالكامل.

ثم قالت:

- انتهت الجلسة.

ثم نهضت وخرجت بسرعة، يتبعها الجنرال والجنود، بينما ظل أعضاء المجلس لوهلة مرتبكين. ثم اقترب الأمير من موثِّق الجلسة يتبعه باقي الأعضاء.

سأله:

- لماذا وضعَت في محضر الجلسة أننا لسنا طوع أمرها؟

جاءتهم إجابة غير متوقعة أبدًا:

- لأنها هكذا، سامحوني في التعبير، قد وضعته في مؤخراتكم.

صُعق أعضاء المجلس.

الفصل الخامس
اندلاع الحرب بين دونّا إليونورا وأعضاء المجلس

سأل كبير القادة بمجرد أن أفاق من صدمته، وقد بلله العرق البارد:

- ولكن لماذا؟

وردد الآخرون خلفه في جوقة:

- لماذا؟

وبالنظر إلى وجوههم المتوترة، شعر دون جيرلاندو باستمتاع.

- لأن القانون، أيها السادة الأفاضل، يتحدث بوضوح. إذا كنتم قد قرأتموه، لما وضعتم أنفسكم في هذا الوضع السيئ. إن الذين يقبلون الشرف الأعظم في أن يكونوا من أعضاء المجلس لا بد أن يكونوا دائمًا طوع أمر نائب الملك نهارًا وليلًا.

سأل الأمير:

- حقًّا؟

- حقًّا. لا بد أن يكونوا دائمًا مستعدين لتلبية النداء. أكثر من الجنود. إن هذا هو الشرط الرئيسي. بإعلانكم أنكم لستم تحت

تصرفها، لديها الآن كل السلطة لتستبدل بكم مَن تراه مناسبًا، في الوقت وبالطريقة التي ترغب فيها. لقد ارتكبتم خطأً...

قاطعه رئيس المراسم:

- دونًا إليونورا تريد رؤيتك على الفور.

سأل موثِّق البلاط مدهوشًا:

- أنا؟

- أجل، حضرتك.

قال دون جيرلاندو وهو يسرع:

- أرجو المعذرة.

قال الأسقف:

- لنجلس هنا خمس دقائق أخرى لنناقش الأمر فيما بيننا. لأنني لديَّ انطباع أن الوضع خطير للغاية، أكثر مما تخيلنا.

قال الآخرون:

- موافقون.

بمجرد أن جلسوا، دخل أحد القادة. حياهم وهو يضرب كعبيه، ولكن من دون أن ينظر إلى أي منهم في وجهه.

سأله الأمير:

- ما هذا؟

- بأمر من نائب الملك، كل القصر، بما في ذلك قاعة المجلس، لا بد من إخلائه على الفور.

بدأ أعضاء المجلس يتمتمون، ولكن لا جدوى من الاعتراض. لم يكن أمامهم سوى الطاعة.

نهضوا ببطء، وأخذوا يجرون أقدامهم وهم ينزلون السلالم في صمت، ثم وصلوا إلى الردهة حيث تنتظرهم عرباتهم.

قال كبير القادة للآخرين بصوت منخفض، وهو ينظر بحذر حوله، بينما يودع أحدهم الآخر:

- هذا المساء سنتقابل في منزلي بعد الغروب بساعة.

كانت المائدة مُعدة لثلاثة أفراد.

أرادت دونًّا إليونورا أن يجلس موثِّق البلاط والجنرال ده تيمبا ليأكلا معها. كل ما قالته في أثناء الوجبة أسعد الجنرال، وأفزع موثِّق البلاط.

لم يكن لأن المركيزة أظهرت نياتها بأن تتصرف ضد القانون، بل بالعكس، لم تكن ستحيد عنه لأي سبب. فهي ترغب، قبل أن تفعل أي شيء، أن تتأكد من شرعية ما ستفعله. وعلى الرغم من ذلك، وكان هذا ما أفزع الموثِّق، فإن ما تنوي عليه دونًّا إليونورا بالتأكيد ستكون له عواقب وخيمة لا يمكن توقعها.

أما عن الجنرال، الذي كان يشتم رائحة الحرب في الجو، فقد بدا مثل حصان سباق يتشوق ليبدأ العَدْو. ولكنه أيضًا كان مأخوذًا بالمركيزة. فقد قابل أخيرًا امرأة، إلى جانب تحليها بكل الصفات الأنثوية بامتياز، تمتلك أيضًا الكثير من الشجاعة.

عندما انتهوا شكرتهما دونًّا إليونورا، وحيَّتهما، ثم ذهبت إلى الصالون الخاص، حيث ينتظرها بفارغ الصبر وبمزيد من العشق دون سيرافينو، طبيب البلاط.

وكان أول شيء قالته له بمجرد دخولها:

- هل يمكنني أن أعتمد على ولائك؟

لم يجِب دون سيرافينو. ولكنه لم يكن ليستطيع حتى وإن أراد ذلك، فقد كان مختنقًا. ركع، والدموع في عينيه، وأمسك يدها وقبلها.

عندئذٍ قالت له دونًّا إليونورا ما أرادته منه. استمع إليها دون سيرافينو بانتباه، ثم وعدها، بأنه خلال الوقت المتفق عليه، سيفعل كل ما أمرته به.

بعدها بساعة صرفته، لأن أميرة ترابيا، الأعلى رتبة بين النساء النبيلات في باليرمو، طلبت مقابلتها. استقبلتها دونًّا إليونورا على الفور، لأنه من المهم جدًّا أن تحظى بدعم نبلاء باليرمو على الأقل، لتستطيع أن تفعل ما تنوي عمله.

إلا أن آخر ما توقعته أن تجد نفسها في مواجهة عجوز بالية إلى هذه الدرجة. فقد حولتها الأعوام إلى شيء يشبه طائرًا صغيرًا خاليًا من الريش. كانت ذابلة تمامًا، منكمشة، ومحدبة. ولكن في وسط الكمية الكبيرة من التجاعيد التي تحول إليها وجهها توجد عينان نظرتهما حادة مثل النصل. تسير مستندة إلى عصا، وتشعر بالإهانة إذا حاول أي شخص مساعدتها.

لم تكن ترتدي أي مجوهرات، على الرغم مما سمعته عن المجوهرات الأسطورية لأمراء ترابيا.

قالت الأميرة وهي تجلس:

- أنتِ أجمل حتى مما يقولون. ومما سمعته تبدين أيضًا شخصية استثنائية.

كان لها صوت واضح، رقيق وحاسم، يليق بشخص معتاد على إعطاء الأوامر.

- لماذا استثنائية؟

- لأن الجمال والذكاء لا يتفقان كثيرًا. وأستطيع أن أقول إنكِ فتاة ذكية. وأنا سعيدة من أجلك ومن أجل وطننا.

أمسكت دونًّا إليونورا بيدها ووضعتها بين يديها. أدركت أن الأميرة تتحدث بما في ذهنها، وأن ذلك ما يكمن في قلبها وفوق شفتيها.

- هل كانت جدتك هي البارونة فابيانا كونتاريللو دي كوميزو، التي تزوجت أراديجو دي نوتشيتا، وبعدها ذهبوا جميعًا إلى إسبانيا؟

- أجل.

- أنا أعرف جدتك، كنا صديقتين حميمتين لبضعة أعوام. هل لا تزال على قيد الحياة؟

- ماتت وعمري خمسة أعوام.

- أتت جدتك لتزورني هنا في باليرمو عام سبعة وأربعين، العام الذي اندلعت فيه الثورات. لم تتمكن من العودة إلى منزلها على الفور، واضطرت إلى أن تمكث معي شهرًا كاملًا.

وفجأة بدأت تسعل بعنف. شعرت دونًّا إليونورا بالخوف من أن ينفجر صدر الأميرة الضعيف. نهضت لتطلب بعض الماء، ولكن أشارت إليها الأميرة بأن تجلس.

- لم أكن أسعل، كنت أضحك.

- لماذا تضحكين؟

- تذكرت شيئًا حدث منذ سنوات بعيدة.

تاركة نفسها لتستعيد ذكرياتها لوهلة، انطفأ الوهج في عينيها. ثم أكملت حديثها:

- قبل أن تندلع الثورة بقليل، كانت المجاعة شديدة في المدينة إلى حد أن البغايا...

قاطعتها مرتبكة دونًا إليونورا، التي بدا أنها لم تفهم الكلمة:

- بغايا؟

- العاهرات. لم يكن لديهن أي زبائن، المسكينات، ولذلك كن يمتن من الجوع والعوز، أو يتعرضن للاغتصاب والقتل. مثلما يحدث هذه الأيام. على كل حال، لجأت نحو ثلاثين من أولئك النساء إلى حديقة فيلّتنا. عندئذٍ قررت إطعامهن، في منتصف النهار وفي المساء. وطلبت من جدتك فابيانا أن تساعدني، ولكنها خافت أن تفعل هذا. لم تكن تريد أن تقترب منهن على الإطلاق. أقنعها أب اعترافها أن العاهرات لديهن ذيول مثل الشياطين. ولكن بعد أن تحدثتُ معها طويلًا، استطعتُ أن أريها أنهن مثل النساء الأخريات، وفي النهاية ساعدتني.

مكثت دونًا إليونورا تفكر بعض الوقت، ثم قالت:

- أجل، رأيت الكثير من العاهرات.

- عددهن يزيد مع مرور كل يوم. قال لي زوج ابنتي إنهم يعثرون، هذه الأيام، على عاهرات مسنات قتلهن الجوع في منتصف الطرقات، مثل العثور على جثث الكلاب. ولكن الأسوأ من ذلك أن لا أحد يرغب في رؤية هذا. العديد من نساء العائلات

الصالحة اضطررن إلى بيع أنفسهن، ولكنهن يفعلن ذلك في السر. آه، ما كان يمكنني عمله من أجل أولئك المسكينات إذا كنت في شبابي، أقول هذا لكِ لأنك امرأة وستفهمين.

في هذه اللحظة فهمت دونًّا إليونورا لماذا طلبت الأميرة زيارتها.

أخذ أسقف ميندوزا يسير ذهابًا وإيابًا، إذ كان عصبيًّا جدًّا فلم يتمكن من المكوث ساكنًا، كان ينفث دخانًا من منخريه مثل الثور الهائج في حلبة المصارعة، وهو يلوح في الهواء بخطاب مكون من سطر واحد.

تلقَّى المستشارون الآخرون خطابات مماثلة:

سيُعقد المجلس الملكي المقدس صباح الغد في العاشرة صباحًا.

توقيع: نائب الملك، إليونورا ده جوزمان.

أخذ يردد:

- جنون تام! جنون تام!

صاح دون سيفيرينو:

- استفزاز مُتعمد!

قال دون ألتيريو بسخط:

- كأننا لم نقُل لها أكثر من مرة إننا لا يمكننا على الإطلاق الحضور في الغد.

تدخل أمير فيكاراتسي:

- غرضها واضح، إنه اختبار قوة.

سأله الأسقف:

- بمعنى؟

- بمعنى أننا إذا لم نذهب صباح الغد، فسوف تجردنا من صلاحياتنا.

قال دون كونو:

- بالتأكيد، علينا الذهاب.

قال الأمير:

- بالتأكيد، على جثتي! لا تتسرع في الاستنتاج! تقابلنا هنا لنفكر في الأمر.

تدخل دون أركنجيلو:

- لا يوجد الكثير لنفكر فيه، إما سنذهب أو لا نذهب. لا يوجد طريق ثالث.

رد الأمير:

- برأيي علينا أن نستمر فيما بدأناه هذا الصباح، نتحدث ونتصرف جميعنا بالطريقة نفسها.

أشار دون سيفيرينو:

- لنقُل الصدق، لم نحصل بهذه الطريقة على أفضل النتائج، فقد أمسكتنا هي من أيدينا، وقادتنا حيث أرادت، ونحن متكاتفون مثل النعاج، لم نُدرك أي شيء ووقعنا في الفخ.

قال دون أركنجيلو مُفكرًا:

- في كل الأحوال، سواء ذهبنا غدًا أم لا، إن عاجلًا أو آجلًا، ستجد السنيورة المركيزة سببًا لتتخلص منا.

قال الأمير:

- وهذا سيكون خطأً كبيرًا من جهتها، في حال إذا ظللنا متحدين.

قال دون ألتيريو:

- فسِّر.

- هناك حالات سابقة فيها استُبدل المجلس، ولكن لم يحدث قَطُّ أن المجلس حُلَّ كله. لدينا قوتنا العددية في صالحنا.

قال دون ألتيريو الذي بدا غير مقتنع:

- لا أفهم.

- ألا تفكر ستة رؤوس أفضل من واحد؟ يمكن لنا نحن الستة أن نقول إن المرأة مجنونة، أو أن نتصرف على أنها كذلك.

- ولكن لمن سنقول هذا؟

- لجلالة الملك. بمجرد أن تتخلص منا، سنكتب إلى الملك. سنقول له إن ذلك الإجراء يمكن أن يزيد من سوء الموقف الخطير بالفعل، ويمكن أن يشعل صقلية أكثر. وصدقوني، سيستدعيها الملك على الفور إلى إسبانيا. إذا كنا أعضاء المجلس فهذا لأننا أشخاص وزننا يُقدر بالذهب. فنحن لسنا حثالة. فنحن من ندعم الملكية الإسبانية هنا. يأتي نواب الملك ويرحلون، ولكن نحن نبقى.

قال الأسقف:

- أقنعتني تقريبًا. ولكن لدينا مشكلة عاجلة يجب حلها. ماذا نفعل بشأن استدعاء الغد؟ أنا لديَّ اقتراح.

- فلنسمعه.

- لنذهب غدًا.

تجمَّد أعضاء المجلس.

سأل دون سيفيرينو بعنف:

- ماذا تعني؟ أن نستسلم إذن؟

- لا. لن نستسلم أبدًا. استمعوا إليَّ. سندخل غدًا إلى القاعة ونجلس، وعندما تدخل لن ننهض، سنجلس في أماكننا كالتماثيل. من دون أن نتفوه بكلمة، ومن دون أن نتحرك سنتيمترًا واحدًا من أماكننا خلال الجلسة كلها. سنذهب بأجسادنا، ولكن ليس بأذهاننا. ومن ثَمَّ، إذا أرادت أن تفهم الرسالة، فستفهمها.

لم يستطع أعضاء المجلس التماسك، فأخذوا يصفقون بحماس. وعانقه الأمير.

في صباح اليوم التالي، في الساعة العاشرة تمامًا، جلس أعضاء المجلس على مقاعدهم، وبحث كلٌّ منهم بمقعدته عن أكثر وضع مُريح له، هكذا يمكنهم المكوث في ثبات لبضع ساعات.

جلس موثِّق البلاط والسكرتير في مكانيهما.

مرت عشر دقائق، ولم يحدث أي شيء. لماذا التأخير؟ لم يحدث هذا من قبل. ثم ظهر رئيس المراسم، وتوقف على بعد خطوة من بداية القاعة.

قال:

- السادة الأجلاء أعضاء المجلس.

لم يقم أيٌّ من الأعضاء بأي حركة لينظروا إليه. مكثت وجوههم شاخصة إلى الأمام، ولم يظهر له سوى جانبها. لم ينظر إليه سوى موثِّق البلاط والسكرتير. لم يكن هذا طبيعيًّا.

كرر رئيس المراسم:

- السادة الأجلاء أعضاء المجلس.

لا شيء مرة أخرى. كأنه يتحدث مع ستة تماثيل.

عندئذٍ فكر رئيس المراسم في الأمر، ثم قال ما عليه قوله:

- ترسل السنيورة المركيزة اعتذارها، ولكنها لم يكن أمامها اختيار سوى أن تؤجل افتتاح الجلسة لمدة نصف ساعة.

انتظر رد فعل لم يحدث. عندئذٍ خرج وهرع ليخبر دونًّا إليونورا كيف تصرف أعضاء المجلس.

ابتسمت المركيزة.

مر نصف الساعة ولم يحدث أي شيء. ثم مر بعده ربع ساعة، وعاد من جديد رئيس المراسم.

- السيدة المركيزة تطلب الصفح من سعادتكم ولكنها مجبرة، لأسباب خارجة عن إرادتها، لتأجيل الجلسة إلى هذا المساء عند غروب الشمس.

مكث المستشارون في سكون، فيما عدا واحدًا منهم، وكان دون ألتيريو، الذي اعترض.

- لا لا لا! لا يمكن هذا! أنا هذا المساء لديَّ موعد لا يمكنني بأي حال من الأحوال إلغاؤه.

وهكذا، الوحدة التي أرادها كبير القادة تحطمت. ومن ثَمَّ كان لا بد من إعادة تأسيسها، وإلا ستصبح مثل تسريب في السفينة ويتسبب في غرقها. التفت الأمير إلى رئيس المراسم وقال له:

- أخبِر المركيزة بأن المجلس بأكمله لن يستطيع الحضور هذا المساء.

بمجرد أن خرج رئيس المراسم، استطاع الأعضاء أخيرًا أن يستريحوا. نظف الأمير أنفه، وذهب دون سيفيرينو ليتبول، وحك الأسقف مؤخرته، وذهب دون كونو ودون ألتيريو للتمشية لتحريك أقدامهما.

عاد رئيس المراسم بعد مدة وجيزة.

- تقول السنيورة المركيزة، إنه نظرًا إلى أن عدم انعقاد الجلسة كان بسببها، فهي تود من حضراتكم أن تقرروا متى يمكنكم الاجتماع المرة المقبلة. وسأعود لكم بعد قليل لأعرف ردكم.

طلب كبير القادة من موثِّق البلاط أن يخرج من القاعة ليتمكنوا من التشاور.

ثم، عندما جلسوا بلا غرباء بينهم، بدأوا يتبادلون العناق والتهاني، وهم يشدون على الأيادي ويربتون على الأكتاف.

صاح الأسقف:

- انتصرنا! انتصرنا!

قال كبير القادة بتفاخر:

- ألم أقُل لكم إن قوتنا في وحدتنا؟

فرك دون ألتيريو يديه، سعيدًا وراضيًا، وقال:

- الآن تعلم السيدة من الذي يصدر الأوامر هنا.

سأل دون سيفيرينو:

- إذن في أي يوم سنجتمع؟

قال الأمير:

- أنا مع الرأي بأن الأمور يجب أن تظل كما كانت. وهذا يعني أن المجلس لا بد أن يستمر في الانعقاد كل يوم أربعاء. متفقون؟

وافق باقي الأعضاء على كلامه. عندئذٍ أدخل الأمير من جديد موثِّق البلاط والسكرتير.

بعدها بقليل عاد رئيس المراسم.

- لتخبر السيدة المركيزة بأن أعضاء المجلس قرروا أن تنعقد الجلسة المقبلة يوم الأربعاء في الساعة العاشرة. وعُد لنا بالرد.

عاد رئيس المراسم تقريبًا على الفور.

- تقول السيدة المركيزة حسنًا.

نظر الأعضاء أحدهم إلى الآخر بسعادة: استسلمت المركيزة، والنصر كامل، على كل الجبهات.

سأل الأمير:

- من إذن سيغلق الجلسة؟

أجاب موثِّق البلاط:

- لا أحد. فهذه الجلسة لم تُفتح قَطُّ.

وفي المساء، توقفت عربة عائلة باتيكاني الخالية من الشعارات، كما حدث قبلها بليلتين، أمام البناية المنعزلة، وقال دون ألتيريو للحوذي أن يعود ليأخذه بعد ثلاث ساعات.

فتح له دون سيمونه الباب مبتسمًا.

- سيدي الدوق، مرحبًا بك دائمًا.

دخل دون ألتيريو وأُغلق الباب. ساد الصمت نفسه كما في المرة السابقة.

- عرفت أن أرملة نائب الملك تسببت لكم في بعض المضايقات.

قال دون ألتيريو:

- إيه! بالفعل.

لم تكن لديه أي رغبة في التحدث، ولا أن يضيع الوقت، كان يريد فقط أن يجد نفسه في أسرع وقت ممكن وسط ساقَي شيليستينا، وأن يرتاح بينهما.

كانت الليلة السابقة ليلة عذاب، إذ لم يستطع النوم قَطُّ بسبب رغبته الشديدة فيها. فهو يشعر بها تجري في عروقه، بدل الدماء، تحييه. أخذ يتقلب ويتلفت مدة طويلة، إلى حد أن زوجته سألته ماذا بك؟

- أشعر بمغص من طائر الحجل الذي أكلته.

واستمر في التقلب حتى طردته، بغضب، من الفراش دونًا ماتيلدا. فقضى ليلته ذهابًا وإيابًا حتى الفجر.

سأله دون سيمونه:

- هل تمنحني الشرف الرفيع وتتفضل لوهلة في مكتبي.

لم يستطع أن يرفض وتبعه.

المكتب عبارة عن غرفة صغيرة مكدسة بالأوراق، ذات نافذة صغيرة.

قال دون سيمونه:

- هنا أحتفظ بكل حسابات المؤسسة الخيرية. للأسف لا يوجد

قَطُّ ما يكفي من أموال. فالفتيات ما زلن صغيرات ولديهن شهية كبيرة للطعام.

تنهد وبعدها سأله:

- هل ترغب في أن تتذوق كأسًا من ليكور الروزوليو، يحضره لي رهبان سانتو سبيريتو؟ الأخ جوفاني ورئيسه، يأتيان كثيرًا لزيارة الصغيرات ومواساتهن.

لماذا يضيِّع دون سيمونه وقته يا ترى؟ إلى أين يريد الوصول بكل ذلك الترحيب؟ لماذا يستفيض في الحديث؟ من الأفضل قبول الكأس ومحاولة إنهاء ذلك في أقرب فرصة.

قال:

- أجل، شكرًا.

كان الروزوليو مقززًا. بينما يشربه نقطة نقطة، أخذ دون سيمونه ورقة وأطلعه عليها.

قال:

- ها هي ذي، القائمة الأولى للفتيات المؤهلات لتنضم إلى المؤسسة الخيرية. نحو عشرين. وأؤكد لك أن ثلاثًا أو أربعًا منهن أفضل ممن رأيتهن.

- كيف تختارهن؟

- بناءً على ترشيحات من قسوس القرى وقسوس الأبرشيات، رئيسات الأديرة والراهبات والرهبان... أنا أثق تمامًا بأناس الكنيسة الذين لديهم نظرة صائبة في النساء. ثم أفحصهن أنا بدوري واحدة واحدة لأرى إذا كانت لديهن الـ... المواصفات الضرورية.

لعق شفتيه عندما تذكر الفحص الذي أجراه للفتيات.
سأله:
- هل ترغب في الذهاب إلى الطابق العلوي يا سيدي الدوق؟
- أجل.
بدت السلالم لدون ألتيريو بلا نهاية، والممرات أيضًا. وأخيرًا وجد نفسه أمام الحجرة الصغيرة لشيليستينا.
قال دون سيمونه:
- تنتظرك.
قال دون ألتيريو ويده ممدودة ترتعش كأنه مُصاب بالحمى الثلاثية:
- المفتاح.
نظر دون سيمونه إلى كومة المفاتيح التي ترن في حزامه وظهرت تجعيدة على جبهته.
- لا أجده.
ضرب دون ألتيريو بقدمه على الأرض. كان يكفي أقل شيء ليثير غضبه.
- انظر جيدًا.
فحص دون سيمونه المفاتيح، واحدًا تلو واحد، واستغرقه ذلك مدة طويلة.
- لا يوجد. أين يمكن أن أكون قد تركته؟
بعدها ضرب يده على جبهته:
- آه، هذا الصباح عندما... لا بد أنه في مكتبي. سأذهب لأحضره. سأعود على الفور.

لم يستطع دون ألتيريو منع نفسه من النظر من ثقب الباب.

كانت شيليستينا تستلقي عارية على الفراش، فخذاها متباعدتان، ويداها خلف رأسها وتبتسم له. أخذ ينظر إليها، ولا يعرف كم من الوقت استغرق دون سيمونه ليعود.

قال بابتسامة خبيثة على وجهه:

- أنا آسف، ولكن لا يمكنني العثور عليه حاليًّا.

سأله دون ألتيريو، وهو يشعر بأنه تجمد:

- ماذا تعني حاليًّا؟

- تعني أنني سأعثر عليه فقط عندما تستطيع أن تحصل من جديد على موافقة على التبرع الذي ألغته دونًّا إليونورا. واضح؟

شعر دون ألتيريو على الفور برغبة في أن يقتله بيديه. لقد فعل ذلك القَوَّاد كل تلك الحركات المسرحية ليجعله يتوق بهذه الطريقة إلى شيليستينا. ولكن ماذا بإمكانه أن يفعل؟ لا شيء.

قال وقد ضغط على أسنانه:

- واضح.

الفصل السادس

المؤسسة الخيرية للعذارى المعرضات للخطر

بعد أن قضى ليلة أسوأ من السابقة، وأكثر مرارة وبؤسًا، وبعد العديد من الساعات التي أضاعها في محاولة للوصول إلى ما يمكن عمله حتى شعر برأسه يكاد ينفجر، وصلت أفكاره أخيرًا إلى نتيجة واحدة ممكنة ليتجنب أن يُجن جنونه، أو أن ينتحر بإلقاء نفسه من النافذة.

كان الحل هو أن يذهب بنفسه على الفور للتحدث مع دونًّا إليونورا ويقنعها بأن تغير رأيها.

وأن يدفع أي ثمن مقابل هذا، حتى وإن باع نفسه لها نفسًا وجسدًا، وهجر أصدقاءه في المجلس. حياته نفسها تتوقف على أن تعيد المركيزة النظر في طلب الدعم نصف السنوي لمؤسسة دون سيمونه الخيرية، وأن تتراجع عن قرار الإلغاء الذي أصدرته بنفسها.

لن يكون هذا أمرًا سهلًا، هذا مؤكد، ولكن ليس أمامه أي حل آخر. أو على الأقل، لم يستطع رؤية طريق آخر.

لكن ربما، فكر للحظة، أليس من الأفضل أن يكتب لها خطابًا؟

لقد أمعن طويلًا في بحث هذه الفكرة، وبعدها قرر أنه من الأفضل ألا يفعل هذا: فالوثائق المكتوبة خطيرة دائمًا. ماذا يُقال باللاتينية عن ذلك؟ الكلمات تطير، المكتوب يبقى.

لا فائدة، إنه فقط يضيع الوقت بهذه الطريقة.

كل ما عليه عمله هو استجماع شجاعته من يأسه، والذهاب إلى البلاط.

ولكن كيف سيتعامل مع النظرات المتسائلة لدونًّا إليونورا؟ هل سيتمكن من أن يقص عليها كذبة تلو كذبة، محتفظًا على وجهه بالتعبيرات الصادقة والمخلصة؟

في كل الأحوال، ما سيفعله مخاطرة شديدة يمكن أن تكلفه الغالي والثمين.

وهذا يعود إلى سببين. السبب الأول لأنه لا يستطيع أن يتخيل رد فعل دونًّا إليونورا، فربما أمرت بإلقائه خارج البلاط، بركلات كثيرة في مؤخرته. والسبب الثاني الطريقة التي سيتعامل بها باقي أعضاء المجلس مع الموقف عندما يعرفون ما حدث. بالتأكيد سيعدون ما فعله خيانة. وسيكون لديهم كل الحق في ذلك. لم يكن لديه ما يقوله، أن يذهب بمفرده لدونًّا إليونورا، ومن دون أن يخبرهم، فهو بذلك يحنث في الاتفاق بأن يتصرفوا جميعًا كأنهم شخص واحد.

ولكن شهوته تجاه شيليستينا، نحو جسدها المشتعل وفمها المخملي، نحو فخذيها الحريريتين وتماسك ثدييها، كانت أقوى من كل الهواجس.

ارتدى ملابسه، وخرج، وقرر ألا يأخذ العربة، وأن يقطع الطريق سيرًا على الأقدام. فهواء الصباح المنعش سوف يحسن من حالته.

في التاسعة وصل إلى البلاط وقال لرئيس المراسم إنه يرغب في مقابلة دونًّا إليونورا، وأضاف أن يخبرها بأن طلبه هذا شخصي، ولا دخل له بأمور المجلس.

أرسلت إليه المركيزة الرد بأنها ستستقبله في الصالون خلال نصف ساعة. دُهشت وشعرت بالفضول تجاه تلك الزيارة المبكرة في الصباح، التي لم تكن تتوقعها.

دُعي دون ألتيريو ليستريح، وأخذ يعيد من جديد كل شيء أراد قوله، وكيف يجب أن يقوله.

أخذ قلبه يدق بشدة، ورأسه يؤلمه بسبب قلة النوم.

ولكن عندما أصبح أمام دونًّا إليونورا التي استيقظت لتوها، وهي اللحظة التي يسطع جمالها فيها أكثر من نجمة الصباح، فقد تمامًا قدرته على التحدث، ولم يستطع سوى إصدار ما يشبه أنين الكلب وانحنى بشدة حتى كاد يفقد توازنه ويسقط برأسه في شقلبة كبيرة.

قالت المركيزة بتعبير جاد، وهي تجلس وتطلب منه أن يفعل بالمثل:

- أسمعك.

جمع دون ألتيريو شتات نفسه، وأدرك بوضوح أنه في تلك اللحظة يقامر بكل شيء.

فجأة، وبفعل معجز، بدأت الكلمات تخطر على ذهنه، مرتبة، ومحددة وواثقة:

- هل تتذكرين يا سيدتي، أنه من بين الإجراءات التي ناقشناها في الصباح الذي تُوفي فيه نائب الملك، وألغيتِها سيادتك، مسألة ما تتعلق بمركيز تريجونيلَّا دون سيمونه تريكَّا؟

قالت دونَّا إليونورا بجفاء:

- لا أتذكر.

لثانية، شعر بأنه يرغب في ترك كل شيء ويرحل، لكنه استطاع التماسك.

- الأمر يتعلق بالمساعدة نصف السنوية التي...

قاطعته المركيزة:

- هل المركيز مُعوِز؟

- لا، ليس بصفة شخصية.

- من إذن؟

بدت نافدة الصبر.

- المساعدة ليست له، ولكن من أجل عمل...

أوقفته المركيزة بأن رفعت يدها الطويلة رائعة الجمال التي تتحدث أفضل من أي فم. ظلت السبابة مفرودة بينما الأصابع الأخرى مثنية، ثم حركتها من اليسار إلى اليمين، ثم من اليمين إلى اليسار، برقة، وبتناغم، ولكن ظل معناها هو لا.

- أعتذر بشدة، ولكنني لا يمكنني تعديل قراري. لا يمكنني الرجوع إلى الوراء.

أغمض دون ألتيريو عينيه في يأس، ثم فتحهما من جديد، استنشق الهواء داخل رئتيه، وعثر على القوة ليتصرف. وخرج منه صوت مختلف، بين المستنكر والمتأثر.

- إذن ستجد خمس وعشرون فتاة يتيمات أنفسهن وقد أُلقيَ بهن في الطريق، بلا سقف فوق رؤوسهن، ولا طعام، بلا حماية، ومعرضات لكل المخاطر...

نظرت إليه دونَّا إليونورا متسائلة:

- ولكن لماذا تتحدث عن فتيات يتيمات؟

- بالتأكيد أتحدث عن اليتيمات! لأن المؤسسة الخيرية لدون سيمونه تريكًا، التي أسسها، تخيلي سموك، على نفقته الخاصة، مدفوعًا فقط من رحمته ومحبته المسيحية، وكرَّسها لإنقاذ أجساد يتيمات صغيرات جدًّا وأرواحهن، كان سيكون مصيرهن الضياع المؤكد. كن جميعًا عذارى في خطر، كما يطلق عليهن دون سيمونه، وانتزعهن هو للأمان من براثن الخطر، منفقًا من ماله الخاص.

شعر دون ألتيريو بالرضا عن نفسه.

لاحظ بالفعل أن المركيزة تحدق إليه بانتباه شديد. ورأى أن الموضوع يهمها.

بعد قليل، قالت مُفكرة، كأنها تلوم نفسها:

- لم أكن أعرف أن الأمر يتعلق بهذا.

أمسك دون ألتيريو نفسه عن الرقص بصعوبة. وطرق الحديد وهو ساخن.

- إذا لم يحصل على الدعم المادي، فلن يضطر دون سيمونه فقط إلى أن يتخلى عن مساعدته ليتيمات أخريات، وهو الشيء الذي كان ينوي عمله، بل سيُجبر، كما قلت لسيادتك، على غلق المؤسسة الخيرية. وماذا سيحدث لأولئك الفتيات المسكينات؟

عندئذٍ، وبعد أن مكثت بعض الوقت في صمت، قالت شيئًا لم يتوقعه قَطُّ:

- أريد رؤيته.

- المركيز؟ يمكنني اليوم أن...

- لا، أريد أن أزور مكان المؤسسة الخيرية.

شعر دون ألتيريو بقلبه يكاد يتوقف.

إذا وضعت تلك قدميها في المبنى الصغير فستدرك على الفور أن العذارى قد تعرضن بالفعل للأخطار المحيطة بهن منذ مدة. وسينتهي به الأمر هو ودون سيمونه في السجن.

تصبب عرقًا باردًا ولم يعرف ما يجب قوله.

ولكن أخرجته دونًا إليونورا نفسها من ورطته. قالت إنها تريد الذهاب إلى المؤسسة الخيرية في اليوم التالي في ساعة الغداء، وإن دون ألتيريو عليه أن يقابلها في الغد قبل منتصف النهار في الردهة. وستستخدم العربة التي عادة ما تستخدمها عند خروجها من البلاط خفية. وسيكون دون ألتيريو مرشدها.

بمجرد أن خرج، هرع دوق باتيكاني إلى منزل دون سيمونه، وهو

ينهج بشدة بسبب الجري، وقال له ما فعله والقرار الخطير الذي اتخذته دونًا إليونورا.

على عكس توتر دون ألتيريو، لم يقلق المركيز قَطُّ.

قال:

- أشكرك على اهتمامك الكريم للغاية، وأراك غدًا إذن في منتصف النهار.

نظر إليه دون ألتيريو مصدومًا:

- ألا تشعر بالقلق أن تفهم تلك المرأة على الفور حقيقة الأمور؟ وكيف ستتصرف في...

- لا تفكر في الأمر. ثق بي.

استسلم دون ألتيريو. كان يشعر بالتعب الشديد.

بادئ ذي بدء، جرى دون سيمونه إلى ورشة معلم تقطيع رخام، وطلب منه أن يصنع له شيئًا ويسلمه في الصباح قبل الثامنة.

تمتم المعلم معترضًا:

- ولكن عليَّ أن أعمل طوال الليل بهذه الطريقة.

- إذن لتعمل طوال الليل، وسأجزل لك العطاء.

بعدها، ذهب للتحدث مع الأم تيريزا، رئيسة دير سانتا لوتشيا، التي، ضمن أخريات، ترشده إلى اليتيمات المُعوزات اللاتي يتحلين بكل ما يبحث هو عنه، التي تعلم تمامًا ما يفعلن، وتتلقى مقابل ذلك نقودًا كثيرة.

قالت رئيسة الدير:

- يمكنني أن أعطيك ثماني عشرة.

- ولكنني أحتاج أيضًا إلى أربع راهبات من اللاتي لا بد ألا يسألن أي سؤال.

- لا توجد راهبة هنا تطرح أي سؤال.

- وهل يمكنني رؤية أولئك الثماني عشرة؟

- تفضل معي.

حظيت اليتيمات الثماني عشرة المقيمات في رعاية الدير برضاه الكبير.

سبع أُخريات استطاع أن يدبرهن له الأب آليانو، الذي لديه ملجأ للفتيات المعوقات ذهنيًّا أو الكسيحات. وتجاوزن كل توقعاته.

وعندما حل الظلام، شُحنت الفتيات الخمس والعشرون اللاتي سكن البناية مع الوصيفات والحراس داخل ست عربات وأُرسلن إلى منزل دون سيمونه الريفي. ستنام اليتيمات ليلة على الأرض، فهن صغيرات ولن يضرهن ذلك كثيرًا.

ستشغل حجراتهن الصغيرة اليتيمات الخمس والعشرون اللاتي حصل عليهن من رئيسة الدير والأب آليانو.

ستسكن الراهبات الأربع الطابق الأخير حيث سكنت معلمة الحياكة.

في الصباح، وبعد أن قاموا بعملية نظافة عامة كبيرة، قاد دون سيمونه التدريب الخاص بما يجب عمله أمام دونًا إليونورا. وفي ذلك الوقت، أحضروا ثلاثة طباخين خصيصًا لهذه المناسبة، الذين أعدوا أطباقًا تليق بملك.

أول شيء لاحظه دون ألتيريو عند وصوله هو اللوحة الرخامية المعلقة في الخارج والمحفور عليها:

المؤسسة الخيرية للعذارى المُعرضات للخطر

أخذ دون سيمونه يردد:

- يا له من شرف عظيم! يا له من شرف عظيم!

بينما يسير ويقفز مثل الصرصار وهو يقود دونًّا إليونورا ودون ألتيريو نحو قاعة الطعام.

- الفتيات يأكلن الآن...

دخلوا. نهضت الفتيات اليتيمات وبدأن الغناء بقيادة إحدى الراهبات:

تعيش تعيش دونًّا إليونورا
التي بزيارتها جلبت نورًا!
نحن يتيمات مسكينات
لكننا نتمنى لها كل الخيرات!
الحياة المديدة لنائب الملك
ليكن السلام والرخاء معك!

وبينما ينشدن، أخذ دون ألتيريو ينظر إليهن مسحورًا.

ولكن أين ذهبت لتنام الفتيات الجميلات اللاتي سبق أن رآهن نائمات هنا؟ أمامه توجد فقيرات، فتيات أجل، واحدة بلا أسنان والثانية قزمة، والثالثة تقريبًا طولها شبران ونصف الشبر، والرابعة

عيناها حولاوان، والخامسة بلا ذراع، والسادسة تسير كأنها مسنة، والسابعة مصابة بالرجفة، والثامنة يسيل مخاط من أنفها...

كان من الصعب النظر طويلًا من دون الشعور بنوع من الاشمئزاز. إلا أن دونًا إليونورا كانت تشعر بالتعاطف ومتأثرة بوضوح. بعد النشيد، أرادت أن تتذوق الحساء من طبق إحدى اليتيمات، ووجدته رائعًا.

ولكنها ذهبت، على الرغم من ذلك، إلى المطبخ، وزارت الكنيسة الصغيرة، وقاعة الحياكة، وكل الحجرات الصغيرة، بل والطابق الأخير أيضًا.

وفي لحظة الوداع، قالت لدون سيمونه إنها راضية، وإنها ستتخذ الإجراءات اللازمة. ركع أمامها، كأنه يسجد للعذراء، وحاول أن يمسك يدها ليقبلها، لكنها سحبتها ووضعتها خلف ظهرها بسرعة.

عندما جلست في العربة مع دون ألتيريو، مكثا بعض الوقت في صمت. وبمجرد أن وصلا إلى ردهة القصر. لم تقُل له سوى:

- شكرًا جزيلًا. يوم الأربعاء في المجلس، سأصدر أمرًا بإعادة الدعم لمركيز تريجونيلًّا.

كاد دون ألتيريو، من شدة سعادته، يصاب بسكتة قلبية.

ولكن قبل أن تتحرك لتخرج من العربة قالت شيئًا آخر:

- سأنتظرك خلال ساعتين.

بحق السماء! عبر دون ألتيريو فجأة من الفردوس إلى الجحيم. ماذا تريد تلك المرأة في المقابل؟

- أود أن أطَّلع على الوضع المالي الحالي لوزارة الخزانة، وكم من أموال موجودة تحت إمرة نائب الملك بصفة شخصية.

تنفس دون ألتيريو الصعداء. إنها لا ترغب في شيء سوى معلومات، يمكنه هو بوصفه رئيس الخزانة، أن يمدها بها. هذا أفضل، من حسن الحظ لن يأخذ هذا الأمر كثيرًا من وقته.

بعدها بساعتين، وبعد أن تلقت دونًا إليونورا التقرير من دون ألتيريو، صرفته على الفور. وأعطت الأوامر بإدخال موثِّق البلاط إلى مكتب نائب الملك الذي حولته إلى مكتبها.

شرحت له بالتفاصيل ما ترغب في قوله أمام المجلس يوم الأربعاء. واكتفى موثِّق البلاط بأن يبدي بعض الملحوظات.

ولكن عندما وصلت إلى الاقتراح بأن تتراجع في قرار إلغاء الدعم لمركيز تريجونيلَّا، لوى موثِّق البلاط فمه بوضوح. فقالت بالإسبانية:

- ألست موافقًا؟

- مع كل احترامي، نعم.

- ألا توافق بشأن الدعم أو الشكل؟

- أريد أن أوضح أنني لا أعرف أي شيء عن «تلك» المؤسسة الخيرية، ولا أعرف السيد المركيز شخصيًّا. ولكن واجبي أن أحذِّر سيادتك من أن الشكل يمكن أن يكون خطيرًا.

- لماذا؟

- أولًا، لأن أمر الإلغاء وُثِّق بالفعل في المحاضر، وإعادة النظر فيه لن تكون قانونية أو جادة. ثانيًا، لأنه في هذه الحالة يمكن أن يطالب أعضاء المجلس الآخرون، وهذا من حقهم، بعمل الشيء نفسه من أجلهم.

كان على حق تمامًا. أظهرت دونًّا إليونورا تعبيرًا محبطًا، مثل فتاة صغيرة منعوا عنها قطعة حلوى.

- لكنني أريد مساعدة المركيز!

عندما رأى موثِّق البلاط ذلك التعبير على وجهها، شعر بدمه يغلي. لا بد من عمل شيء ليسعدها مرة أخرى. فكر كثيرًا في الموقف، وفي النهاية قال لها إن هناك حلًّا بالتأكيد.

سألته دونًّا إليونورا عن الحل، فأجابها أن الحل الوحيد هو أن تسحب النقود الخاصة بالدعم من المال المخصص لنفقتها الشخصية ونفقات التمثيل الدبلوماسي. بالإضافة إلى ذلك، يمكنها عمل ذلك من خلال إجراء تلقائي «موتو بروبريو»، لأنها في هذه الحالة لن تكون مجبرة على شيء سوى إطلاع المجلس، من دون أن تطلب موافقتهم.

ابتسمت دونًّا إليونورا. سبق وتوقعت ذلك الرد من موثِّق البلاط، ولهذا السبب أرادت أن تعرف من رئيس المالية كم لديها.

لديها الكثير من النقود، فخلال عامَي تولي دون أنجيل منصبه، لم ينفق الكثير، تقريبًا لم ينفق شيئًا.

ستسر أميرة ترابيا عندما تعرف ما ستفعله من أجل اليتيمات.

في الوقت نفسه، لديها فكرة أخرى تدور في ذهنها منذ أيام. ستتناقش فيها مع دون سيرافينو عندما يأتي في زيارته المسائية المعتادة.

بمجرد أن خرج موثِّق البلاط سلَّمها رئيس المراسم خطابًا، يحمل الختم الملكي، وصل من إسبانيا.

كانت تتمنى بشدة أن يصل إليها مبكرًا، والآن ها هو ذا هنا، أمامها.

بعد أن قدم لها العزاء ودعم رغبة زوجها في وصيته. أخبرها صاحب الجلالة بأنه يعلمها، بناءً على طلب من دون أنجيل، الذي كررته هي، وبالتغاضي عن القاعدة التي تُملي بأن المفتش الملكي يجب أن يزور صقلية كل ست سنوات، أنه قرر إرسال دون فرانشيسكو بايرو بوصفه المفتش الملكي العام، الذي سوف يصل إلى باليرمو يوم الخميس المقبل.

كان هو بالفعل الرجل المناسب للمهمة المطلوبة.

شعرت دونًا إليونورا بقلبها ممتلئًا فرحة، وبدأت تغني بصوت منخفض لنفسها.

سبق وأتى دون فرانشيسكو بايرو إلى باليرمو منذ أربعة أعوام، بوصفه المفتش الملكي العام، وما زالت ذكرى ما فعله آنذاك حية وتبعث على الخوف.

كان رجلًا في الخمسين، كئيب الطلة، وممتلئًا بعض الشيء، هادئًا وحزينًا، ويبدو كموظف درجة ثالثة، لا أهمية له. إلا أنه أثبت أنه رجل شديد الخطورة وأمين، واعٍ ويقِظ وعنيد.

يتلقى كل مفتش عام ملكي أوامره مباشرة من جلالة الملك وحده، ويعطي تفسيرًا لتصرفاته له هو فقط، وله السلطة المطلقة على كل سلطة أخرى، فيما عدا نائب الملك. لهذا يجب أن تُفتح له كل الأبواب، وتُقدم له كل السجلات ليفحصها، وكل الحسابات تخضع لتفتيشه الدقيق.

مستخدمًا كامل سلطاته، أراد دون فرانشيسكو أن يفحص كل

شيء، حتى حسابات محاكم التفتيش المقدسة، لأيام وأيام كاملة، وفي النهاية عاقب، من دون أن يهتم بأي منصب، كل الذين ارتكبوا أي مخالفة بسيطة.

ومن ثَمَّ، من دون التفكير مرتين، ألقى في السجن كونت كاماراتًا وقائد الموانئ فيدريكو آباتيليس، القادر الذي لم يمكن لأحد المساس به، بعد أن أثبت أنه يستخدم جزءًا كبيرًا من نقود التاج لمصلحته الخاصة.

وطالب أيضًا بإقالة دون فينشينزو نيكولو ليوفانته، شخص آخر لم يتمكن أحد من المساس به، بتهمة أنه كان سخيًّا أكثر مما ينبغي له مع أصدقائه.

باختصار، تسبب في خسائر أكثر من وحش ضارٍ، وحين جاء موعد عودته إلى إسبانيا كان قد وضع في السجن ما يقرب من مائة شخص بين رؤساء وأساقفة، جامعي ضرائب ومحاسبين.

ظهر دون سيرافينو ومعه باقة زهور ريفية جمعها بنفسه. سلَّمها إلى دونَّا إليونورا من دون أن يتفوه بكلمة واحدة.

شكرته واحمرَّ وجهها قليلًا.

عندما رأى وجهها محمرًّا، تحول لون دون سيرافينو، من الأحمر، بسبب الانفعال الشديد، إلى البنفسجي.

ثم قالت دونَّا إليونورا:

- أشعر ببعض التعب.

متعبة؟ بدا وقع تلك الكلمة على دون سيرافينو كأنها قالت إنها على وشك الموت. نهض على الفور وبدأ يسأل:

- بماذا تشعرين؟ ألم في رأسك؟ في صدرك؟ ساقيك؟ هل ترغبين في الاستلقاء؟ هل تريدين مني أن أرحل؟

ابتسمت له دونًّا إليونورا.

- اهدأ. أشعر فقط ببعض التعب. ولا ترحل، يريحني وجودك.

عاد دون سيرافينو إلى مكانه. وجلس مستمتعًا بالنظر إلى دونًّا إليونورا التي أغلقت عينيها الآن.

فكر دون سيرافينو أنه إذا مات في تلك اللحظة، فسيموت سعيدًا.

ثم فتحت هي عينيها وسألته:

- هل قابلت ذلك الشخص؟

- أجل.

كانت متعبة جدًّا إلى حد أنها تتكلم بصعوبة:

- هل تحدثت معه؟

- أجل.

- هل وافق؟

- أجل.

- ما اسمه؟

- دون فاليريو مونتانو.

- أريد أن أقابله غدًا.

الفصل السابع
دونًا إليونورا تطلق المدفع وتفوز في الحرب

في نحو الساعة الرابعة بعد الغداء لذلك اليوم نفسه، في المبنى الذي أصبح الآن المقر الرسمي للمؤسسة الخيرية للعذارى المعرضات للخطر، عاد كل شيء كما كان عليه. عادت اليتيمات الخمس والعشرون المُستعارات إلى أماكنهن في الدير وفي الملجأ، واستعادت الخمس والعشرون الأخريات أماكنهن في حجراتهن الصغيرة، وعاد الحراس والوصيفات إلى حجراتهم. وبعد ساعة من غروب الشمس، عاد دون ألتيريو.

وبين التوتر العصبي الذي عاناه، والرغبة التي لا يمكن التحكم فيها نحو شيليستينا، أصبح وجهه شاحبًا، بل ظهرت هالات تحت عينيه، ولم يعتنِ بلحيته. بل يشعر ببعض الحمى أيضًا. قال لزوجته إن لديه اجتماعات مهمة وإنه سيعود في الصباح الباكر. هذه المرة قرر أن يأخذ كل الوقت الذي يريده.

أول شيء قاله له دون سيمونه بمجرد أن رآه:

- هل أنت بخير؟
- أشعر بأنني في أحسن حال.
وسيشعر بأنه في حال أفضل من هذه خلال بضع دقائق. يكفي ألا يبدأ دون سيمونه في عمل مراسمه المعتادة. نظر إليه المركيز مبتسمًا.
- هل ترغب في التفضل إلى مكتبي؟
يا إلهي! يا له من شخص ممل! ولكنه اضطر إلى الخضوع.
- حسنًا.
- ربما هذه المرة سأشرب أنا كأسًا من الروزوليو، لا بد أن نشرب نخب نجاح المؤسسة الخيرية!
اضطر دون ألتيريو إلى أن يتجرع المشروب.
قال دون سيمونه:
- لقد فعلت شيئًا عظيمًا للغاية. في الحقيقة لم أكن أتوقع هذا. والآن أنت سيد هنا، وأعني ما أقول. ماذا يمكنني أن أفعل لأسدد دَيني لك؟
- أنت تعرف.
نظر إليه دون سيمونه بخبث:
- ما زلت تريد شيليستينا؟ أم تريد التغيير؟ ربما هذه المرة فقط.
- أُريد شيليستينا.
قال دون سيمونه:
- توقعت هذا. وهل تعرف ماذا أقول لك؟ إنني أهديها لك، فهي ملكك.
أخرج من جيبه مفتاحًا وسلمه له.

- وجدته. إنه مفتاح حجرة شيليستينا. أنا عند كلمتي، احتفظ به، وبهذه الطريقة يمكنك أن تأتي عندما تريد، حتى في عدم وجودي.

لم يستطع دون ألتيريو التماسك أكثر من ذلك:

- هل يمكنني الصعود إليها الآن؟

- ألم أقُل لك إنك صاحب المكان هنا؟

صعد دون ألتيريو السلالم، اثنتين اثنتين.

وفي تلك الليلة كان مشغولًا جدًّا فلم يلحظ كل الازدحام المحيط به. للاحتفال بالحدث أتى أيضًا المركيز بولَّارا، والمركيز بنديكو، والبارون توريجروصًّا، والمُشرِّع بونسينيوره، كل الأشخاص الذين ترددوا على المؤسسة الخيرية منذ إنشائها.

ولكن في أثناء ارتدائه ملابسه مرة أخرى في الفجر واستعداده للخروج، قالت شيليستينا، المستلقية على الفراش تنظر إليه، شيئًا بصوت منخفض، فلم يسمعه. سألها:

- ماذا؟

أشارت إليه شيليستينا ليقترب، ثم مدت يدها، وجذبته حتى وصلت أذن دون ألتيريو على ارتفاع فمها، وهمست:

- يجب أن تساعدني.

- إلى ماذا تحتاجين؟

وضع يده في جيبه حيث يحتفظ بنقوده، مستعدًّا لأن يمنحها كل ما تحتاج إليه.

- أنا حبلى.

قال بذهول:

- ماذا؟

- أنا حبلى.

شعر دون ألتيريو بالضيق من المفاجأة. لم يعجبه الخبر لأنه الآن يعتبر شيليستينا ملكًا له. ولكن الشيء المؤكد أنه لم يكن هو السبب في حملها.

- من هو؟

- كيف يمكنني أن أعرف؟ جاء الكثيرون قبلك يا سيدي.

ابتلع دون ألتيريو ريقه. ألم يكن يعرف، في نهاية الأمر، نوع المهنة التي تمارسها اليتيمات في ذلك الملجأ الخيري؟ يستخدمهن دون سيمونه ليربح أصدقاء ذوي نفوذ ليساعدوه في الصفقات الشرعية وغير الشرعية التي يقوم بها.

- كيف يمكنني مساعدتك؟

- بأن تخرجني من هذا المكان.

- وأين تريدين الذهاب؟

- لا أعلم. ولكن لا بد أن أخرج من هنا.

- لماذا؟

- لأنني لو مكثت سيأمر المركيز بقتلي.

استنكر دون ألتيريو:

- ما هذا الذي تقولينه؟

- أقول الحقيقة. أنا متأكدة تمامًا من هذا. منذ ثمانية أشهر حبلت سافيريا، وأخفاها المركيز. وفعل الشيء نفسه مع أسونتا منذ ثلاثة أشهر.

- ولماذا تقولين إنهما قُتلتا؟ ربما أخذهما المركيز إلى مكان حيث...

- لا يا سيدي. جميعنا هنا مقتنعات بذلك. لقد أمر بقتلهما ودفنهما في مكان قريب من هنا، في الريف.

- ولكن من؟

- سيادتك لا تعرفهما، إنهما مجرمان: بيبو ناسكا وتوتو مبالوميني. يستخدمهما المركيز من حين إلى حين. ولا يدفع لهما فقط الأموال، ولكن يجعل اثنتين منا أيضًا في خدمتهما. وفي أحد الأيام وبينما بيبو ناسكا يفعلها مع نينوتزا، قال لها ما حدث لسافيريا وأسونتا. اسمع، إذا أنقذتني، فأقسم إني سأصبح خادمتك ما حييت.

- هل أخبرتِ أحدًا؟

- لا يا سيدي. هل تعتقد أنني غبية؟ قلت فقط لتيريزينا، الشقراء التي تشغل الحجرة الأولى، وصديقتي.

لم يستطع دون ألتيريو المكوث أكثر من ذلك، لا بد أن يعود إلى المنزل. ثم إن رؤيتها بهذا الرعب أعادت إليه رغبته. إذا مكث دقيقة أخرى سيجد نفسه وقد عاد إلى الفراش.

- حسنًا، سأفكر في الأمر.

- متى ستعود؟

- غدًا مساءً.

لم يكن ينقصه بالفعل هذا الإزعاج. لم يكن يصدق أن المركيز قتل الفتاتين، ولكنه بالتأكيد أخفاهما تجنبًا للكوارث. وربما سيخفي

شيليستينا أيضًا إذا وصل إلى علمه حملها. وبالتأكيد هو لا يرغب في حدوث هذا. ولكنه إذا أخرجها أين سيضعها؟ آه، فكرة! يمكنه أن يأخذها إلى سكافوتزو، حيث لديه منزل ريفي، لا تضع زوجته فيه قدمًا لأنه لا يعجبها. ولكن سكافوتزو بعيدة جدًّا، يمكنه الذهاب إليها كأقصى حد مرتين في الأسبوع. ولكن سيكون هذا أفضل من لا شيء.

بعد أن نام طوال الصباح، تناول دون ألتيريو الطعام وذهب ليزور دون سيمونه. خطر بباله فكرة يمكن أن تحل مشكلة شيليستينا.

سأله المركيز وهو يدخله إلى الصالون:

- إلى أي شيء أدين بهذه الزيارة؟

- لا بد أن أطلب منك خدمة كبيرة.

- تفضل.

- أريد شيليستينا.

نظر إليه دون سيمونه مصدومًا.

- أليست لك بالفعل؟

- أريدها دائمًا معي. يمكنني أن آخذها إلى منزل أمتلكه في سكافوتزو. ويمكنك إحضار واحدة أخرى تحل مكانها.

قال المركيز:

- إذا كان الأمر يعتمد عليَّ...

- أليس القرار لك؟

- حتى الأمس كان قراري. ولكن ألم تسمع ما قالته لي دونًا إليونورا بالأمس؟

- نعم.

- قالت لي إنها تريد قائمة بأسماء الفتيات اليتيمات تحت رعايتنا، وإنني مسؤول عنهن، وإنه لا يجب أن تغادر أي فتاة من دون أن يتبناها أحدهم، وإن أي حالة من حالات التبني لا بد أن تخضع لفحصها، لتقرر هي إذا كانت ستوافق أم لا. يا للأسف أرسلت إليها القائمة صباح اليوم، ولا أعتقد أن زوجتك ستوافق على تبنيها.

كل ما استطاع دون ألتيريو عمله في هذه اللحظة هو إطلاق اللعنات.

بل أطلق مزيدًا منها، عندما عاد إلى المنزل وعثر على طلب من دونًّا إليونورا بأنها تريد أن تعرف هذا المساء المبلغ الذي يمكن لوزارة المالية الملكية التخلي عنه. ولكنها لم تتنازل وتشرح له الغرض من ذلك.

لم يكن الأمر بهذه البساطة، استدعى دون ألتيريو نائب المالية لمساعدته، الذي وصل حاملًا الكثير من الأوراق. ثم اضطر إلى أن يستدعي مساعد نائب المالية أيضًا.

باختصار، لم يخرج من مكتبه حتى ساعة متأخرة من الليل، ولكن بعد أن أرسل رده إلى دونًّا إليونورا، أمر عربته أن تأخذه إلى المؤسسة الخيرية على الرغم من ذلك.

في التاسعة والنصف كان أعضاء المجلس في القاعة بالفعل.

قرروا تقريبًا على الفور أنهم سيتركون دونًّا إليونورا لتتحدث

أولًا، وهكذا سيكون أسهل بالنسبة إليهم أن يعرفوا ما في ذهنها وأن يتصرفوا بناءً على ذلك.

عندما فُتحت الجلسة، نظرت دونًّا إليونورا متسائلة إلى السكرتير الذي قال لها إن أعضاء المجلس لم يسألوا أي شيء في جدول أعمال اليوم.

فهمت دونًّا إليونورا مناورتهم على الفور، ولكنها قررت مجاراتهم.

قالت إنها تريد أن تستشير المجلس بشأن قانونين قررتهما بعد أن أخذت رأي بعض الشخصيات المعنية.

تبادل الأعضاء نظرات متوجسة وقلقة: من أولئك المعنيون الذين تتحدث عنهم، يا ترى؟

إذا كان الأمر كذلك، وأنها تعقد اجتماعات سرية وتتلقى المعلومات والنصيحة والاقتراحات من الأغراب، معنى هذا أنها في غاية الخبث، وأن عليهم بكل الطرق من الآن أن يضعوها تحت رقابة صارمة.

ولكن الحقيقة هي أن دونًّا إليونورا كانت تخدعهم. فبخلاف طبيب القصر، لم تقابل أي شخص آخر، ولكنها قرأت عشرات الخطابات كانت تصل إلى زوجها باستمرار ولم يُجب عليها أحد. ودوَّنت أيضًا ملحوظات حول إجراءات انتوى دون أنجيل أن يتخذها لو لم يمنعه المرض، ثم الموت، عن ذلك.

شرحت لهم أن القانون الأول لم يكن شيئًا جديدًا، بل أقرَّه عام ١٥١٤ نائب الملك أوجو مونكادا، ثم أُلغي في الأربعينيات إلى ما بعد ذلك، والآن هي ترغب في إعادة تفعيله.

كان قانونًا يُدعى «الآباء المثقلون»، ويعني آباء العائلات التي بها أكثر من اثني عشر من الأبناء، من دون التمييز بين الأغنياء والفقراء، الذين أُعفوا من بعض الضرائب الثقيلة والمصروفات. إلا أنها ترغب، وهذا هو الجديد في الأمر، في أن تخفض عدد الأبناء في القانون، إلى ثمانية.

- هل لدى المجلس الموقر أي ملحوظات؟

سألها أمير فيكاراتسي عندئذٍ سؤالًا:

- ما دام الأمر يتعلق بتخفيض تلك الضرائب والمستحقات التي ربما تتسبب في نقص في خزانة الدولة، ألم يكن من الحكمة معرفة رأي رئيس الخزانة أولًا؟

وجهت دونًّا إليونورا إليهم ابتسامة شهية كالعسل، وقالت نظرًا إلى أنها امرأة حكيمة فقد تحدثت بالفعل مع رئيس الخزانة.

عندئذٍ التفت جميع الأعضاء لينظروا إلى دون ألتيريو: كيف إذن لم يخبرهم بأنه استُدعي إلى القصر؟ ألم يتفقوا على عهد محدد؟

رفع دون ألتيريو ذراعيه بما معناه أنه نسي تمامًا إخبارهم. وهذا ما حدث بالفعل نظرًا إلى أنه في تلك الأيام لم يكن يفكر في شيء سوى شيليستينا.

ولكن استمر الأعضاء، من حين إلى حين، ينظرون إليه بتوجس.

انتقلت دونًّا إليونورا للتحدث عن القانون الثاني، وكان ذلك بالفعل جديدًا للغاية. في صقلية كلها، وخصوصًا في المدن الكبيرة، تحدث عادة مشكلات ليس فقط بين أصحاب المهن المختلفة، ولكن بين أصحاب المهنة الواحدة أيضًا. مشكلات تؤدي دائمًا

إلى مشاحنات ينتج عنها موتى وجرحى. بهذا القانون سيكون لكل مهنة، بداية من صناع الفضة إلى الجزارين، ومن سائقي العربات إلى الحائكين، ومن مربي الدواجن إلى صانعي الوسادات وهكذا، نائبٌ يختارونه بكامل حريتهم. وكل النواب سيعملون تحت إدارة هيئة قضائية للتجارة، التي ستكون لها السلطة أن تحكم بشكل مطلق في كل المسائل المقدمة إليها. وستكون لهذا الحكم قيمة تُعادل حكم المحاكم الشرعية.

أصيب أعضاء المجلس بالذهول، فلم يتوقعوا أن تفكر المركيزة في قانون معقد بهذه الطريقة. أول من فهم أن تلك الهيئة القضائية الجديدة يمكن أن تجلب الخير أو الشر على نصف صقلية كان الأسقف تورُّو ميندوزا.

قال الأسقف إنه يجد ذلك القانون شيئًا جيدًا، فقط إذا لم يكن عليهم التفكير طويلًا بمن عليهم اختياره لتلك المسؤولية العظيمة جدًّا.

ابتسمت له المركيزة مثلما فعلت مع الأمير، وقالت إنها فكرت كثيرًا وعثرت على الرجل المناسب لهذا الأمر.

سألها القائد الأعظم:

– هل يمكننا معرفة اسمه؟

– بالتأكيد. دون فاليريو مونتانو.

تجمَّد كل أعضاء المجلس.

كان دون فاليريو مونتانو، بارون سانت إليسيو، شخصًا في الخمسين من عمره معروفًا في كل باليرمو على أنه شخص شديد الأمانة والدقة والعدل، يعيش حياة منعزلة، ولم يقبل في السابق أي

منصب عام. لا يمكن قول أي شيء عنه، ولكن يمكن قول الكثير بالفعل عن الشخص الذي رشحه للمركيزة.

قال دون كونو وهو لا يزال مدهوشًا:

- وهل وافق دون فاليريو على هذا؟

- أعلمني بموافقته بنفسه.

كم كانت منشغلة إذن تلك الماكرة، التي بالتدريج تشحذ أظافرها لتخربش؟ لا بد من إيقافها مرة واحدة، ونهائية، قبل أن تتسبب في أي أضرار أخرى. كخطوة أولى، يجب وضع أشخاص موثوق بهم أمام بوابات القصر لمعرفة من يدخل ومن يخرج.

الشيء الأخير الذي فعلته دونًّا إليونورا أنها أخبرت المجلس بأنها قررت، بمبادرة شخصية، أن تمنح مساعدة مرتين سنويًّا للمؤسسة المستحقة: المؤسسة الخيرية للعذارى المعرضات للخطر، لدون سيمونه تريكًّا. وأنها ستقتطع ذلك المبلغ من الأموال المخصصة لنفقات نائب الملك الشخصية.

أضافت أنها قبل أن تمنحه ماديًّا المساعدة ستقوم ببعض الاختبارات، ولكنها لم تحدد نوعها.

ثم نظرت حولها، ولم يقُل أيٌّ منهم أي شيء. فقالت:

- رُفعت الجلسة.

نهضت فوقفوا جميعًا.

وبعد أن نزلت الدرجات الثلاث، توقفت دونًّا إليونورا، وبدت مرتبكة وتنظر نظرات متشككة، ثم لمست جبهتها في إيماءة من تذكَّر شيئًا، وقالت:

- سامحوني، كدت أنسى. غدًا صباحًا سيأتي إلى باليرمو المفتش العام.

صُدم أعضاء المجلس، وبدأوا على الفور في تبادل النظرات المضطربة والقلقة.

قال القائد الأعظم:

- ولكن لم تمر ست سنوات بعد على الزيارة الأخيرة.

- أعلم ذلك، لكن جلالة الملك استجاب لطلبي في إرساله قبل الموعد المحدد.

إذن فهي من وضع الجميع في هذا الخطر. تلك القطة الماكرة تجرح الجميع. ولكن في كل الأحوال يمكن ألا يحدث شيء. الكثير من المفتشين العموميين أثبتوا قدرتهم على إغماض عين بعد أول يوم، وربما الاثنتين أيضًا.

- لماذا لم تبلغينا من قبل؟

قالت دونًا إليونورا بصوت ملائكي:

- لم يكن في إمكاني هذا، لأن سيادتكم قررتم عقد اجتماع المجلس اليوم.

إذن لهذا لم تعترض، حتى تبلغهم فقط في اللحظة الأخيرة عن زيارة التفتيش.

سألها الأسقف:

- هل تعرفين من هو؟

- أجل أعرف. يبدو لي أن اسمه... اسمه... آه، ها هو ذا، اسمه دون فرانشيسكو بايرو.

ثم خرجت، بينما أعضاء المجلس يتساقطون على مقاعدهم، واحدًا تلو واحد بمجرد سماعهم الاسم، كأنهم أوانٍ أسقطتها كرة.

أول من استعاد تماسكه كان الأسقف الذي أمر السكرتير بأن يحضر مياهًا باردة للجميع. بمجرد أن وصل، شرب كلٌّ منهم نصف لتر كأنهم عطشى منذ أيام.

لا بد إذن أن يواجهوا الخبر الأخير بيقظة من دون أن يفقدوا دقيقة واحدة.

قال الأسقف أيضًا:

- إذا أمكن فليخرج موثِّق البلاط والسكرتير للانتظار في الخارج.

سأل القائد الأعظم:

- باسم الأم المقدسة، والآن ماذا نفعل؟

ناح دون كونو:

- لقد ضِعنا!

أوضح دون سيفيرينو:

- نُكحنا!

قال كبير القادة:

- نية المركيزة واضحة. استدعاء بايرو بمنزلة استدعاء السياف. لن يتردد في أن يلقي بنا جميعًا في السجن. وعندما نصبح في السجن، ستضع المركيزة مكاننا أشخاصًا تثق بهم، وستكون نهايتنا جميعًا.

قال دون كونو:

- لا يهمني بالتأكيد أن أفقد منصبي، ولكنني لا أريد أن تكون نهايتي في السجن.

قال كبير القادة:

- ولماذا تظن أنني أرغب في ذلك؟

قال دون أركنجيلو، الذي لم يفتح فمه إلا الآن:

- ربما يكون هناك حل.

- وما هو؟

- أن نغتاله بمجرد أن يرسو.

عارض دون سيفيرينو:

- ستعرف المركيزة على الفور أننا مَن فعل هذا.

شرح دون أركنجيلو:

- لكنني كنت أفكر في شيء يبدو كالحادث. مثل أن نُدبر مشاجرة بين بعض البحارة في الميناء، وأحدهم، عن طريق الخطأ...

قاطعه الأسقف:

- أنا غير موافق. ولكن ليس على القتل، لأكون واضحًا، لكن لأن شيئًا مثل هذا لا بد من إعداده جيدًا، ونحتاج إلى وقت لا نملكه.

سأله كبير القادة بعد أن عادوا إلى نقطة البداية:

- إذن ماذا سنفعل؟

ساد الصمت. وبدا لكل واحد منهم أنه لا يوجد مخرج من هذا الوضع. شعروا كأنهم فئران في قفص.

وفي هذه اللحظة دخل موثِّق البلاط.

- إذا لم تكونوا سعادتكم في حاجة إليَّ...

عندئذٍ خطرت للأسقف فكرة.
- انتظر لحظة. أريد أن أسألك شيئًا.
- تحت أمرك.
التفَّ الأعضاء الآخرون حول الأسقف يحدوهم الأمل.
- السؤال الذي سأطرحه عليك، مجرد افتراض، ولا يعود إلينا نحن أعضاء المجلس، لأننا جميعًا نتمتع بضمير نظيف، ولا نخشى شيئًا من المفتش العام. ولكن، بالتحدث دائمًا بشكل افتراضي، إذا وجد أحد المستشارين نفسه، يمكننا أن نقول، في مأزق، وأراد أن يتهرب...
قال موثِّق البلاط:
- لم أفهم جيدًا.
والحقيقة أنه فهم جيدًا جدًّا، لكنه أراد أن يتسلى.
أخذ الأسقف نفسًا عميقًا وأكمل:
- فلنفترض أن أحد الأعضاء فعل شيئًا لا يجب عمله، مثلًا خدمة لأحد الأصدقاء وحصل بناءً على ذلك على ربح مادي، أو تلقى مثلًا في المقابل هدية، أو استفاد من شيء لم يكن له... ماذا يمكنه أن يفعل ليتجنب أن يضعه المفتش العام خلف القضبان؟
صاح موثِّق البلاط:
- الآن اتضح كل شيء! دعوني أفكر للحظة.
جلس في مكانه، وأمسك برأسه بين يديه، بينما اجتمع المستشارون حوله في صمت.
ثم رفع موثِّق البلاط يديه من فوق رأسه وسأل الأسقف:

- ما زلنا نتحدث عن مسألة افتراضية؟

أجابه تورُّو ميندوزا:

- بالتأكيد.

عاد موثِّق البلاط ليضع رأسه بين يديه، ومكث هكذا بعض الوقت. وحتى لا يزعجوه أخذ المستشارون يتنفسون بصوت منخفض. ثم نظر إليهم موثِّق البلاط واحدًا واحدًا، وقال:

- ربما يوجد حل.

سأل الستة في صوت واحد:

- ما هو؟

- القانون واضح بهذا الصدد. مكتوب أن المفتش العام ليست له سلطة ضد أي مستشار، ارتكب أي مخالفة، إذا استقال من منصبه قبل وصول المفتش. إذا، وما زلنا هنا نتحدث بصورة افتراضية، قلتم للمركيزة قبل المساء إنكم مستقيلون من مناصبكم، فلن يكون للمفتش علاقة بكم. والآن، اسمحوا لي، يجب أن أنصرف.

ثم استأذن وانصرف.



الفصل الثامن
وصل المفتش العام الأعظم
لكنه ليس بايرو

ساد الصمت ثقيلًا جدًّا. اخترقت كلمات موثِّق البلاط مباشرة رؤوس المستشارين الستة، ولكن رفضت عقولهم أن تستوعب معناها كاملًا. ثم أخيرًا، ربما أصبح المعنى نفسه واضحًا وانفجر داخل رؤوسهم، وتركهم جميعهم في حالة ذهول.

صاح دون سيفيرينو فجأة، وهو يضع يده على قلبه ويسقط كالجوال الفارغ على أقرب مقعد.

- آه، أيتها العذراء، يا له من ألم!

أخذ يتلوى من شدة الألم في صدره، ولم يستطع التنفس. ربما أصيب بأزمة قلبية، ولكن لم ينتبه له أحد.

كل واحد منهم، مع كل احترام، كان لديه «برازه» ليفكر فيه.

قال الأسقف بحسم:

- بالنسبة إليَّ، لن أفكر ولو للحظة واحدة، وأعلن لكم أنني قد قررت ألا أستقيل حتى ولو متُّ.

فكر دون ألتيريو في الأمر قليلًا، أو ربما لم يفكر على الإطلاق، وتحالف مع تورُّو ميندوزا، وذهب ليقف بجواره:

- ولا أنا.

قال دون أركنجيلو لافيرلا بوجه قاتم:

- أما أنا فليس أمامي سوى تقديم استقالتي. لا يوجد مجال للاختيار بين المنصب والسجن.

قال دون كونو جالُّومباردو:

- وأنا موافق.

قال دون سيفيرينو لوماشو، وهو لا يزال يتلوى من الألم:

- وأنا... أنا... سأستقيل أيضًا معكما.

علَّق كبير القادة بنبرة هجومية ومهددة بعض الشيء متوجهًا إلى الأسقف ودون ألتيريو:

- يا للسعادة، يا للسعادة بالفعل! يبدو أنكما أنتما الاثنان فقط في المجلس الملكي المقدس اللذان تتمتعان بضمير نظيف مثل سطح مرآة.

أجابه الأسقف:

- الأمر لا يتعلق بضمير نظيف. جميعنا يعرف أنه ولا طن من المنظفات يمكنها تنظيف ضمائرنا جميعًا هنا. لكنني مقتنع أن دون فرانشيسكو بايرو، على الرغم من أنه رجل حاسم، لن تكون لديه الشجاعة ليعادي الكنيسة الأم المقدسة.

تدخل دون كونو:

- يبدو أن ذاكرتك ضعيفة. دعني أُذكرك أنه منذ أربع سنوات،

عندما فتش بايرو حسابات محكمة التفتيش، ولم يجدها مضبوطة، أجبر دون نيستروس بينيتس، وهو الرجل الثاني الذي يلي كبير المفتشين، على الاستقالة والعودة إلى إسبانيا، إذ قُبِض عليه فور وصوله. فَلَكَ أن تتخيل كم سيخشاك أنت، وأنت مجرد أسقف.

عندما تذكر الموقف بأكمله، قال ميندوزا:

- يا للشقاء، هذا حقيقي.

والسبب الوحيد الذي جعله ينسى هو أنه على الرغم من أنه يشغل منصب الأسقف قبلها بأربعة أعوام، فإنه كان بعيدًا في فيتربو.

قال كبير القادة:

- وماذا عنك يا دون ألتيريو؟ من تظنه سيحميك؟ ألا ترغب أن تقول لنا؟ ربما دونًّا إليونورا بنفسها، نظرًا إلى أنك تقابلها في السر؟

خاف دون ألتيريو بشدة أن تُعرف قصة زيارته الخاصة لصالح دون سيمونه تريكًّا والمؤسسة الخيرية، فكان رد فعله هو أن رفع صوته:

- أنا أتيت عندما استدعتني المركيزة بوصفي رئيس الخزانة! نحن لا نتحدث سوى عن الأرقام! وإذا لم أكن قد ذكرت هذا لكم، وأعتذر مرة أخرى عن ذلك، لأنني نسيت.

- لا بد أن تعترف على الأقل أن أمر السهو هذا غريب بعض الشيء.

- السبب أنني هذه الأيام لديَّ... حالة مرضية في العائلة.

قال كبير القادة:

– لكن لا بد أن تقوم سيادتك أيضًا، دون ألتيريو المحترم، في كل الأحوال، بتقديم استقالتك.

– لماذا؟

– لسبب بسيط هو أنه لا يمكننا أن نظهر أمام صقلية كلها في مظهر الخمسة غير الأمناء، وأنت الوحيد الذي يدعي الأمانة. واضح؟

– لكن ما معنى هذا الحوار؟

– يعني ما يعني. على كل حال، إذا لم تستقِل، سيُبلَّغ دون فرانشيسكو بايرو، في الوقت المناسب، بأنك أنت أيضًا، يا من تدعي الأمانة، لديك بعض المصائب المدفونة.

– أنا لم أستغل قَطُّ أي...

– نعرف هذا. لكنك لم تستطع رفض بعض الخدمات لأصدقائك. هل تريد أن أتلو عليك أسماءهم؟

قال دون ألتيريو:

– لا.

ورفع ذراعيه مستسلمًا:

– حسنًا، سأستقيل أنا أيضًا.

تدخل عندئذٍ الأسقف الذي التزم الصمت بعد أن تراجع ليفكر في الأمر، وقال:

– لديَّ اقتراح ويبدو لي جيدًا. بدلًا من أن نقدم للمركيزة ستة خطابات استقالة، واحدًا من كل واحد منا، لنقدم لها خطابًا واحدًا، ونوقعه نحن الستة.

سأله الأمير:

- ولماذا؟

- لأننا في الخطاب سنكتب أن السبب الوحيد والحقيقي لقرارنا الذي لا رجعة فيه، لأنه يجب أن تكون الاستقالات نهائية، هو الإهانة التي لا تُغتفر، التي وجهتها إلينا المركيزة باستدعائها المفتش العام. فهي باستدعائه تعني أنها لا تثق بنا، وبالنسبة إلينا عدم الثقة هذا إهانة. وهكذا لا يمكن لأحد أن يفكر أننا استقلنا لأننا نخشى زيارة كبير المفتشين.

وعلى الفور أعلن الجميع حماسهم لهذا الاقتراح.

قال الأمير:

- لنكتب الخطاب على الفور.

اعترض الأسقف:

- أليس من الأفضل أن نفكر في الأمر قليلًا أولًا؟

- نعم، سنكتبه الآن ونرسله إليها على الفور. وبهذه الطريقة ستُدرك شدة وعفوية شعورنا بالإهانة.

وافق الأسقف:

- حسنًا.

سأل دون سيفيرينو، الذي تماثل للشفاء واستطاع أن ينهض على قدميه.

- من سيكتبه؟

قال كبير القادة:

- سأكتبه أنا.

ثم ذهب وجلس على مكتب موثِّق البلاط والسكرتير، حيث يوجد ورق وريشة ومحبرة.

اقترح دون كونو:

- لماذا لا نكتبه بالإسبانية؟ في رأيي سيكون تأثيره أقوى.

سأل الأمير:

- من منكم يعرف الإسبانية جيدًا؟

واتضح أن جميعهم يمكنهم التحدث بها جيدًا ولكن ليس كتابتها.

باختصار، ضيَّعوا ساعة قبل بداية الخطاب، وثلاث ساعات للانتهاء منه. ثم سلموه إلى رئيس المراسم.

عندما تلقت دونَّا إليونورا خطاب المستشارين الستة، قرأته، وكان في صحبتها دون سيرافينو.

صاحت بالإسبانية:

- لقد فزنا! لقد تخلصنا منهم!

ومأخوذة بالحماس، ومن دون أن تُدرك حتى، أمسكت بيد طبيب البلاط اليمنى بين يديها وضغطت بها بشدة على ثديها.

أمام هذا التصرف شديد الحميمية، تحول وجه دون سيرافينو في لحظة من اللون البنفسجي إلى اللون الأصفر ومن الأصفر إلى الأبيض شديد الشحوب. ثم لم تستطع فجأة قدماه أن تحملاه، ولم يستطع الوقوف أكثر من ذلك، فسقط على الأرض مغشيًّا عليه.

صاحت دونَّا إليونورا في فزع:

- طبيب! طبيب!

هرعت إليها إستريلَّا، ولكن من حسن الحظ لم تكن في حاجة إلى الخروج والبحث عن طبيب، لأنه بعدها بدقيقة فتح دون سيرافينو عينيه مرة أخرى، واعتذر وهو يشعر بالخجل من نفسه.

قالت دونَّا إليونورا وهي تنظر إليه بحب:

- لقد أفزعتني. ماذا إذا فقدت صديقي الوحيد الحقيقي...

هذه المرة، احتاج دون سيرافينو إلى قوة خارقة كي يتجنب الوقوع في شلل كامل.

في الأمسية نفسها ذهب دون ألتيريو مسرعًا إلى المؤسسة الخيرية وهو يكاد يموت شوقًا لشيليستينا.

إلا أنه قبل أن يخرج، أضاعت دونَّا ماتيلدا وقته، حيث بدأت في مشاجرة قوية بمجرد أن وصل إلى علمها خبر تقديم استقالته من منصبه، فهي فخور جدًّا بوصفها زوجة رئيس الخزانة! والآن، بسبب وجود تلك العاهرة الإسبانية... وفعلت الكثير، وقالت أشياء أكثر إلى حد أن دون ألتيريو وصل إلى المؤسسة الخيرية بعد الساعة التاسعة.

كالعادة صرف عربته، وبعدها طرق على الباب. ولكن لم يدعه أحد يدخل.

كيف يمكن هذا؟ لم تحِن الساعة العاشرة بعد.

أخذ يطرق ويطرق، حتى أدرك أنه لا فائدة من هذا. ولكنه لم يكن سيسمح لأي شيء في العالم يمنعه من قضاء الليلة مع شيليستينا.

عندئذٍ أراد أن يتأكد أن الجميع نيام، وبالدوران حول ركن المبنى

ذهب إلى الخلف واتجه إلى النافذة الصغيرة لغرفة المركيز. رأى المصاريع مغلقة، ولكن يظهر من خلفها بعض الضوء. من دون أن يفكر للحظة، انحنى، وتحسس بيده، حجرًا ضخمًا، أمسك به وضربه بكل قوته على خشب النافذة الصغيرة. وكانت الضربة قوية.

سأل المركيز من الداخل:

- ما هذا الذي يحدث؟

لم يجبه، بل ألقى حجرًا آخر ضخمًا.

فتح دون سيمونه النافذة وتراجع على الفور إلى الوراء وأخرج خنجرًا.

وسأل المركيز من دون أن يتعرَّف على الشخص الذي رآه في الظلال:

- من أنت؟

قال دون ألتيريو:

- إنه أنا.

قال المركيز:

- سيدي الدوق! سموك! انتظر حتى أذهب وأفتح لك الباب الأمامي.

قال دون ألتيريو:

- لا داعي لهذا.

وضع يديه على الحافة وقفز إلى الداخل. فرغبته في شيليستينا جعلته يعثر على قوة مَن في العشرين.

بمجرد أن دخل، رأى رجلًا آخر في المكتب. شخص يرتدي

ملابس بالية، ولديه سحنة من الأفضل للمرء أن يتجنبها ليلًا، بل ونهارًا أيضًا. يجلس في سكون، عيناه محدقتان كالثعبان، من دون أي تعبير.

قال المركيز:

- صديق أثق به، توتو مبالوميني. اعذرني على هذا، ولكنني كنت مقتنعًا، نظرًا إلى تأخر الوقت، أنك لن تحضر اليوم. ومن ثَمَّ...

قاطعه دون ألتيريو الذي لم يرغب في إضاعة مزيد من الوقت قائلًا:

- مساء الخير.

خرج، وهرع دون سيمونه خلفه.

- انتظر! إلى أين ستذهب؟

أجابه دون ألتيريو، وهو مستمر في السير بحسم:

- وأين تعتقد أنني ذاهب؟

أصر دون سيمونه وهو يمسك بكمه:

- انتظر.

حرر دون ألتيريو نفسه من قبضة دون سيمونه، واستمر في طريقه.

- يجب أن أقول لك شيئًا مهمًّا!

- قُلْه لي في الغد.

- معذرة سيدي الدوق...

في هذه اللحظة كانا قد وصلا عند بداية الدرج، واضطر دون ألتيريو إلى التوقف ليمرر رجلًا آخر في طريقه إلى أسفل.

في أثناء مروره سأل الرجل المركيز:

- أين توتو؟

- ينتظرك في مكتبي.

عندما بدأ دون ألتيريو في الصعود على الدرج، لاحظ أن المركيز قد توقف عن إزعاجه وذهب خلف الرجل الآخر.

قبل أن يفتح الباب، خطر بباله أن ينظر من ثقب التلصص، واضطرب.

كانت شيليستينا تقف عارية، شاحبة، وترتجف بجوار حوض موضوع على حامل ثلاثي، تحاول أن تنظف نفسها بقطعة قماش مبللة بالدماء التي تسيل على ظهرها.

فتح الباب ودخل. وقفت شيليستينا وظهرها للجدار. حاولت أن تبتسم له، ولكن لم ينتج عن ذلك سوى تعبير متألم.

- ماذا حدث؟

- لا شيء.

- كيف لا شيء؟ ما كل هذه الدماء؟

- قلت لك لم يحدث شيء!

نظر دون ألتيريو إلى الفراش، ورأى أن الملاءة أيضًا مبقعة بالدماء.

- دعيني أرَ ظهرك.

لم تستدِر الفتاة. عندئذٍ أمسكها دون ألتيريو من وسطها وأجبرها على الدوران.

كان ظهرها مغطى كليًّا بعشرات من الجروح الصغيرة غير الغائرة، صنعها طرف خنجر لتسبب الألم أكثر من الأذى.

- من فعل هذا؟

- لا تهتم.
- قولي لي وإلا لن أساعدك.
- بيبو ناسكا هو الفاعل. هذا المساء أرادني ولم يستطع المركيز أن يدفعه إلى تغيير رأيه. ولكن بيبو كان مثل الوحش، ثم فكر أنك لن تحضر اليوم، وعندئذٍ...

إذن فهو الرجل الذي قابله عند بداية الدرج. فلهذا أراد المركيز إذن أن يضيع وقته، ليتجنب دخوله بينما الآخر لا يزال مع شيليستينا.

- ولماذا استخدم الخنجر؟
- يحب بيبو أن يفعل ذلك وهو ينكح.

في الواقع، على الرغم من مظهره الهادئ، كان دون ألتيريو يغلي من شدة الغضب. فالفتاة ملكه الآن، ولا يستطيع المركيز أن يفعل ما يحلو له بها. كان عليه أن يعيد الأمور إلى نصابها.

- الآن استمري أنتِ في تنظيف نفسك، وسأذهب أنا لأتحدث مع المركيز.
- لا يا سيدي أرجوك!
- لماذا لا تريدين أن...
- لأنه بعد ذلك، عندما ترحل حضرتك، سيحطم المركيز عظامي! حضرتك لا يمكن أن تتخيل ما يمكن لهذا الرجل أن يفعل! أرجوك فكر فقط في كيفية إخراجي من هنا.

تلك الليلة قضاها دون ألتيريو في التمريض، وفي تشغيل عقله ليصل إلى طريقة لتحرير الصغيرة. ولكن على الرغم من محاولاته المضنية، فإنه لم يصل إلى أي فكرة. وفي أثناء عودته إلى المنزل

خطرت في ذهنه كلمات دونَّا إليونورا للمجلس، عندما أعلنت عن دعمها للمؤسسة الخيرية.

قالت إنها ستفعل ذلك بعد أن تجري تفتيشًا معينًا. أي نوع من التفتيش هذا؟

إذا استطاع معرفة هذا قبل عمله، يمكنه أن يمتلك في يده ورقة يستخدمها ضد دون سيمونه، وفي مقابل تلك المعلومات يمكنه الحصول على حرية شيليستينا.

ولكن كيف يفعل ذلك؟

لم ترَ دونَّا إليونورا قَطُّ دون فرانشيسكو بايرو وجهًا لوجه، سمعت فقط قصصًا عنه. كانت تشعر بالفضول لمقابلته. عندما أعلن لها رئيس المراسم عن وصول كبير المفتشين العموميين ويطلب المقابلة، قالت إنها ستقابله على الفور في الصالون، كانت تريد أن تتحدث معه على انفراد قبل الجلسة الرسمية.

يمكن لكبير المفتشين العموميين أن يكون رجلًا عظيمًا وجنرالًا ولكنه رجل في نهاية الأمر، ورجل بمجرد أن أصبح في حضرة الجمال الرائع لدونَّا إليونورا، شعر بأن قلبه بدأ يفقد بعض نبضاته.

انحنى انحناءة عميقة، ثم ركع على ركبته وقال:

– سيدتي، أرجو أن تقبلي كل التكريم بالنيابة عن ملكنا المحبوب.

– أرجوك أن تنهض يا دون فرانشيسكو.

نهض وقد بدا عليه الارتباك، وقال:

– بماذا ناديتِني؟

- دون فرانشيسكو.
- لماذا؟
- ماذا تعني بـ«لماذا»؟ أليس هذا اسمك؟
- نعم، اسمي إستبان.
هذه المرة بدا الارتباك على دونَّا إليونورا.
- ولكن ألست كبير المفتشين العموميين؟
- بلى، أنا هو! وإليكِ خطاب جلالة الملك.

أخذته دونَّا إليونورا وفتحته. وفيه يعلمها جلالة الملك بأن دون فرانشيسكو بايرو أصابه المرض في لحظة رحيله، وأنه فكر حتى لا يضيِّع أي وقت، أن يرسل بدلًا منه دون إستبان ديلًّا تييرنا، رجلًا شجاعًا وحاسمًا، الذي وإن لم يكن مثل دون فرانشيسكو إلا أنه أقرب تمثيل له.

أرادت دونَّا إليونورا أن يمكث دون إستبان ليتناول الطعام معها. وكان المدعوان الآخران هما دون سيرافينو، ودون فاليريو مونتانو، المعين لتوِّه قاضي التجارة.

تحدثوا كثيرًا جدًّا بعد العشاء أيضًا.

أرادت المركيزة أن يفكر معها دون سيرافينو ودون فاليريو في أسماء المرشحين ليشغلوا مناصب المستشارين المستقيلين. في النهاية، أرادت دونَّا إليونورا المكوث بمفردها مع دون سيرافينو. فهي تريد أن تسأله عن شيء ما يتعلق بالمؤسسة الخيرية للعذارى المعرضات للخطر.

بمجرد أن أعلن منادو باليرمو عن قانونَي دونَّا إليونورا الجديدين،

ووصل إلى علم الناس أنها استطاعت الحصول على استقالات أولئك المستشارين المحتالين والمرتشين من المجلس المقدس، غيَّر ثلاثة أرباع المناهضين لوجود امرأة في منصب نائب الملك رأيهم. فهذه امرأة تعرف ما تفعله ويمكنها أن تعلم الرجال بعض الأشياء.

عندما تقابل الأسقف تورُّو ميندوزا وأمير فيكاراتسي ودون كونو في أحد الأعراس، انتحوا جانبًا ليتحدثوا عن الموقف.

سأل الأسقف:

- هل عرفتم الأخبار؟

قال الأمير:

- هناك أخبار كثيرة...

- أقصد واقع أن المركيزة أفزعتنا بقولها إن المفتش العام هو فرانشيسكو بايرو وبدلًا منه أتى شخص يُدعى «إستبان ديلَّا تييرنا».

قال دون كونو:

- أعرف الأخبار. لأن دون فرانشيسكو أصابه المرض وهو على وشك الرحيل.

أخذ أمير فيكاراتسي يضحك. وبعدها، بينما ينظر إلى الآخرين، وضع يده اليمنى على شفتيه، وبدأ يهزها بأصابعه إلى الأمام وإلى الخلف مرات عديدة.

قال:

- لقد بلعتموها، لقد بلعتموها.

سأله الأسقف:

- ألم يكن الأمر كذلك؟

- نعم.

- وكيف كان؟

- ولكن كيف لا تفهمان؟ من المؤكد أن السيدة المركيزة كانت تعلم من البداية عن وصول ديلّا تييرنا هذا. ولكن قالت لنا نحن المستشارين، إن من سيصل هو دون فرانشيسكو. وهربنا نحن فزعًا. كان هذا ما أرادته بالتحديد. باختصار، يا محترمون، لقد ركلتنا امرأة جميعنا في مؤخراتنا.

قال الأسقف:

- إذا كان الأمر كذلك فهي شيطان حقيقي!

سأل دون كونو:

- ماذا يمكننا أن نفعل؟

قال الأمير:

- أنا أحاول جمع بعض المعلومات. هناك آراء متنوعة عن هذا الزائر. البعض يقول إنه رجل عاقل، والبعض الآخر يقول إنه لا يمكن معه الوصول إلى شيء. وأنا أريد أن أعرف شخصيًّا إذا كان...

قاطعه الأسقف:

- أجل، لكن الرجل الآن لا يمكنه أن يفعل لنا أي شيء.

- انتبه. لا يمكنه عمل شيء لنا نحن كمستشارين سابقين، ولكن لك كأسقف أجل. هل حسابات الكاتدرائية سليمة؟

والأبرشيات؟ إذا زرعت دونًا إليونورا الشكوك في ذهنه... ثم إن هناك شيئًا غاية في الأهمية لم يخبرنا به موثِّق البلاط، ذهبت أنا وبحثت عنه بنفسي.

سأله الأسقف:

- ما هو؟

- صحيح أن المفتش لا يمكنه أن يتخذ أي إجراء ضد مستشار سابق، ولكن له الحق في المطالبة بإعادة كل النقود، كلها فعلًا، التي حصل عليها عن غير استحقاق. وإذا رفض عضو المجلس فمن حق المفتش أن ينزع عنه ممتلكاته.

سأل دون كونو:

- ما معنى هذا؟

- معناه إذا أرادت دونًا إليونورا، يمكنها أن تتركنا جميعًا بالكاد بما يغطي أجسادنا من ملابس.

قال دون كونو وقد شحب وجهه:

- أوه! أيتها العذراء المقدسة!

وصاح الأسقف:

- آه، أيتها العذراء المباركة!

قال الأمير:

- لا فائدة من استدعاء الأمهات والسيدات. نحتاج إلى أن نتحرك على الفور، ومن دون أن نضيِّع أي وقت. لديَّ فكرة.

نظر إليه الآخران نظرة متسائلة:

- غدًا صباحًا سأدعو إلى الطعام دون إستبان هذا في منزلي. أريد

أن أشرح له أننا ليست لدينا مشكلات شخصية معه، ولكن مع المركيزة التي استدعته. وهكذا ونحن نتحدث، سأرى أي نوع من الرجال هو وإذا كان يمكن التعامل معه.

سأله دون كونو:

- وماذا إذا لم يمكن التعامل معه؟

قال الأسقف بمرارة:

- لنصلِّ التُّساعية للعذراء في الكاتدرائية.

في أثناء خروجه من منزله ليذهب إلى مكتبه الخاص بوصفه رئيس الخزانة ليأخذ أوراقًا شخصية تركها هناك، شعر دون ألتيريو بدوار خفيف.

بين قصة شيليستينا والاستقالات والشجار المستمر لزوجته، فقد تمامًا قدرته على التحمل.

لم يكن للدوار أي عواقب على الإطلاق إذا لم يكن دون ألتيريو في تلك اللحظة على قمة الدرج ذي السلالم الأربع عشرة التي تقود إلى الردهة في الأسفل.

فقد توازنه وتدحرج على السلالم حتى وصل إلى قاع الدرج.

وظل هناك وهو يصرخ من الألم. لم يستطع تحريك قدمه اليسرى وأخذ ينزف من جرح في رأسه.

وليزداد الوضع سوءًا، جرت دونًا ماتيلدا التي رأته، وفي أثناء نزولها تعرقلت، وسقطت فوقه بوزنها البالغ مائة كيلوجرام، قبل أن تفقد الوعي.

الفصل التاسع
آلام دون ألتيريو
ومصيبة أمير فيكاراتسي

على الفور استدعوا طبيب البلاط الذي تدخلت العناية الإلهية ليعرف الخدم أنه ذهب إلى كاسَّارو قبل أن يعثروا عليه.

فحصه دون سيرافينو ليتأكد من عدم حدوث أي ضرر في أي أجزاء أخرى من جسده، ثم وضع على قدمه، التي تعرضت لخلع بسيط، خليطًا من الأعشاب، ثم ضمدها وضمد رأسه أيضًا، الذي من حسن الحظ كان الجرح فيه سطحيًّا.

بالنظر إلى السقطة، فهو سعيد الحظ إلى حدٍّ كبير.

أراد دون ألتيريو أن يجلس بعض الوقت مع الطبيب ليثرثر معه، ولكن الأخير قال له إنه لا يمكنه هذا لأن عليه العودة إلى أنحاء كاسَّارو، بسرعة، ليبحث عن قابلة، يعرف أنها تعيش هناك، ويأتي بها إلى القصر لأن دونَّا إليونورا تحتاج إليها.

دُهش دون ألتيريو، وسأل:

- هل دونّا إليونورا حبلى؟
- ولكنها أرملة!
- حسنًا، ولكن ربما حدث ذلك ودون أنجيل لا يزال على قيد الحياة، في أيامه الأخيرة على الأرض...
- لا بد أنك تمزح!
- إذن، لماذا؟
- أعتقد أنني يمكنني إخبارك، نظرًا إلى أن المركيزة قالت لي بنفسها، إنك أنت الذي ذهبت وأقنعتها بأن تمنح المساعدة لدون سيمونه تريكًا، لمؤسسته الخيرية.
ارتعب دون ألتيريو.
- هل قالت لك أنت فقط إنني ذهبت إليها؟
- بالتأكيد. تعرف دونّا إليونورا مع من يمكنها التحدث.
هدأ دون ألتيريو. ثم سأل:
- إذن لماذا تريد القابلة إذن؟
أكمل دون سيرافينو:
- هذه القابلة التي تُدعى «سيدونيا بونيفاتشو»، لديها خبرة كبيرة، وهي عجوز أمينة وأنا أعرف أنه يمكن الوثوق بها.
- ولماذا تحتاج إلى قابلة بهذه المواصفات؟
- سيُطلب منها أن تتأكد من أن اليتيمات المقيمات في ملجأ دون سيمونه ما زلن عذارى، ولم يتعرضن لأي اعتداءات في أي جزء من أجسادهن. أنت تعرف ما أعني.

- بالتأكيد.

- هكذا تريد المركيزة، وهكذا يجب أن يحدث. هذا هو شرطها لتمنح الدعم. ولن تتراجع عن طلبها.

أراد دون ألتيريو أن يتعمق أكثر في الأمر، إذ وجد أن المسألة مثيرة للغاية، وبالفعل يمكن أن يستخدمها لصالحه.

قال دون ألتيريو:

- قُل لي شيئًا أيها الطبيب، رجل لرجل. بالنسبة إلى العذرية، أستطيع أن أفهم هذا. من السهل معرفة إذا كانت الفتاة عذراء أم لا. ولكن كيف يمكن معرفة إذا حدث أي اعتداء على أجزاء أخرى من جسدها؟

- يوجد أسلوب قديم، ليس أسلوبًا علميًّا جدًّا، ولكنه الطريقة الوحيدة، وسيدونيا بونيفاتشو تعرف كيف تطبقه.

- وكيف هو؟

- تأخذ بيضة، وتسلقها حتى تجمد، ثم تضعها وتغطي نصفها بسواد شمعة، وبعدها تقرب ببطء النصف المُدخن من الأجزاء التي تفترض أنها تعرضت لانتهاك، وتسحبها ببطء إلى الخارج برفق.

- وماذا ترى؟

- سترى إذا كانت الثنيات الداخلية قد تم اقتحامها.

قال دون ألتيريو الذي فجأة ذهبت عنه كل الآلام:

- آه، فهمت، أشكرك.

ثم أكمل:

- متى يمكنني أن أسير من جديد؟

- غدًا صباحًا سأعود لأضع لك ضمادة جديدة، وأتمنى أن تتمكن من السير بعد غد، ربما مستندًا إلى عصا.

لكن حتى إذا اضطر إلى أن يزحف على أطرافه الأربعة، فإن دون ألتيريو ينوي أن يذهب ليزور ذلك المركيز القَوَّاد المتعفن، ويملي عليه شروطه.

الآن له اليد العليا ويعرف كيف يستخدمها، فهو في هذه اللحظة يضمن حرية شيليستينا.

في صباح اليوم التالي وجد دون سيرافينو أن قدمه لم تعد متورمة على الإطلاق، إلى حد أنه لم يضع له أعشابًا أخرى، إلا أنه ربطها بضمادة أخف. وخفف أيضًا من الضمادات على رأس الدوق. قال له إنه يمكنه النهوض، ويكتفي بنصف ساعة من السير.

- متى يمكنني الخروج؟

- غدًا.

- هل عثرت على القابلة؟

- لا، ليست في باليرمو. استدعوها لولادة ابنة بارون بينيزي. ستعود خلال يومين.

تمامًا ما أراد أن يسمعه.

في أثناء خروج الطبيب، أدرك دون ألتيريو فجأة أنه لن يستطيع أبدًا أن يقضي الليلة التالية من دون أن يتمكن من ضم شيليستينا بين ذراعيه.

قرر أن يذهب إلى المؤسسة الخيرية بحلول الظلام، حتى وإن

كان عليه أن يستند إلى عصا، وأن يلصق قبعة على رأسه ليخفي الضمادة. سيذهب لينام مع الفتاة ولن يقابل دون سيمونه حتى اليوم التالي.

في نهاية الأمر، إذا كانت القابلة لن تقابل دونًّا إليونورا إلا بعد يومين، فما زال أمامه وقت.

ولكن وضَع الشيطان لمسته على الأمر، بأنسب شكل له: النار.

بمجرد أن عرفت دونًّا ماتيلدا، أنه يرغب في الخروج ذلك المساء بعد العشاء، شنَّت هجومًا ضاريًا، وبدأت في إحباطه بشدة، وأمطرته بالأسئلة:

- وأين تظن أنك ذاهب بقدمك هذه؟

وبرأسك المشجوج؟

ولكن ألا ترى أنك لا تستطيع أن تقف متوازنًا؟

ألا تريد أن تفهم أنك لم تعد شابًّا؟

تظاهر دون ألتيريو أنها لا تتحدث معه، واستمر في تناول الطعام، وكل ما فكر فيه أنه بعد قليل سيترك المنزل ويسرع بالذهاب إلى شيليستينا.

كان قد انتهى للتو وعلى وشك أن يترك المائدة عندما هرع كبير الخدم بيبينو نحوه.

- المطبخ يحترق.

جرى دون ألتيريو، ولم يستطع فعل أي شيء سوى أن يلاحظ الارتفاع الشديد للنيران. وبين خدم المنزل وعشرين خادمًا من

القصور المجاورة استغرقهم الأمر حتى منتصف الليل ليخمدوا الحريق الذي انتشر أيضًا في حجرتين بالإضافة إلى المطبخ.

واضطر دون ألتيريو إلى أن يظل جائعًا لشيليستينا هذه الليلة أيضًا.

ونظرًا إلى أن دونًّا ماتيلدا اقتنعت أن هناك من ألقى بعين حسود على المنزل، أجبرته أيضًا على أن يمكث ساعتين راكعًا، بجوارها، ليصلي.

إلا أنه في الأمسية التالية، ساعة بعد الغروب، طرق دون ألتيريو على الباب الضخم للمؤسسة الخيرية. وبينما يطرق الباب، أخرج مفتاح حجرة شيليستينا. وهذه المرة لم يكن ينوي أن يعطله دون سيمونه بمراسمه.

فُتح الباب الضخم، ونظر دون ألتيريو مباشرة إلى وجه توتو مبالوميني المجرم.

مكث بلا كلمات للحظة.

قال توتو:

- مساء الخير يا سيدي اللورد.

أجاب دون ألتيريو:

- مساء النور.

تجاوزه ودخل، وتوجه نحو السلالم. جرى مبالوميني نحوه، وتجاوزه، وسد عليه الطريق.

- يرغب المركيز في التحدث إليك.

- ابتعد عن طريقي.

- يرغب المركيز في أن يشرح لك...
- لا يوجد ما يشرحه.
- اسمع يا سيدي...
- اغرب عن وجهي أيها الوغد.

لم يتزحزح الآخر، ابتسم في وجهه ابتسامة سخرية، كأنه يتحداه أن يحاول ويتجاوزه.

فجأة فكر دون ألتيريو أن مشهد الليلة السابقة يتكرر. وأنه بدلًا من المركيز يقف مبالوميني، من المؤكد أنه يضيع وقته، لأنه في تلك اللحظة ينكح بيبو ناسكا شيليستينا، ويعذبها بطرف خنجره.

لوهلة رأى ذلك المنظر، واسودَّت الدنيا في عينيه.

عندما عاد ليرى بشكل طبيعي، كان توتو مبالوميني مطروحًا على الأرض يئن، ويقبض على أسفل بطنه بيديه. كانت الركلة التي تلقاها للتو فجائية وعنيفة جدًّا، وضربة العصا العنيفة على رأسه قوية للغاية تركته في حالة من الذهول التام. لم تكن لديه أي قوة ليرد حتى عندما انحنى دون ألتيريو، وأخذ الخنجر من حزامه وصعد السلالم جريًا.

كانت حجرة شيليستينا مفتوحة على مصراعيها ولم يكن بداخلها أحد.

الفرشة ملفوفة فوق الألواح الخشبية، ولم تكن هناك ملاءات ولا أي قطعة من الملابس في الخزانة. بدت الحجرة كأنها خالية منذ الأزل.

مكث حيث هو، في ذهول، يحدق إلى الحجرة الفارغة.

خطرت بباله مائة فكرة مضطربة، كلٌّ منها أسوأ من الأخرى.

كان أمله الأخير أن يكونوا قد نقلوها إلى حجرة أخرى، ولكنه على الفور اقتنع بأنه لا يوجد أي سبب لعمل ذلك. من الواضح أن المركيز علم أن شيليستينا حبلى وأخفاها. مثل الاثنتين الأخريين.

ولكن ربما لم يقتلها. لم يستطع أن يقنع نفسه أن المركيز قادر على شيء كهذا. قصة القتل تلك لا بد أنها من نسج خيال الصبية.

بدأ ينزل السلالم ببطء، وهو يفكر ويحاول أن يهدئ نفسه.

لا بد أن يزن كلماته، ويتحكم في إيماءاته، ويظل منتبهًا. الغضب سيصبح عدوه، وسيجعله يقول الأشياء الخاطئة، وذلك يمكنه الإضرار بشيليستينا.

عندما دخل إلى مكتب المركيز وجده بمفرده، لم يكن توتو مبالوميني هناك، ولكنه بالتأكيد مختبئ في مكان ما، مستعد أن يصل على الفور إذا استدعاه المركيز.

نصح نفسه بأن احترس يا ألتيريو، تذكر أن مصير شيليستينا بين يديك.

ألقى بغضب الخنجر على المكتب.

- أعطِه لصاحبه.

وجلس أمام دون سيمونه من دون أن ينطق بكلمة.

تحدث دون سيمونه من دون أن يرفع عينيه عن الخنجر، قائلًا:

- كنت أريد أن أجنبك تلك المفاجأة السخيفة. ولكن حضرتك لم ترغب في الاستماع إلى مبالوميني... لقد آلمته، هل تعرف ذلك؟ ذلك المسكين لم يفعل سوى تنفيذ أوامري...

قاطعه، وهو يجبر نفسه على التحدث بهدوء بقدر استطاعته:

- أين شيليستينا؟

رفع المركيز ذراعيه ولم يفتح فمه.

كرر:

- أين؟

- هل تصدقني إذا قلت لك لا أعرف؟

- لا.

- إلا أن الأمر كذلك.

- لماذا ليست في حجرتها؟

- لأنها هربت.

- وكيف فعلت ذلك.

- في المساء. من تُغلق عليها حجرتها وصيفة اسمها فيليبا. هذا الصباح عثرت الوصيفات الأخريات على حجرة شيليستينا مفتوحة وخالية. ذهبن للبحث عن فيليبا ربما تعرف أين ذهبت. لم يجدنها هي أيضًا، فقد هربت مع شيليستينا.

- وكيف يمكن أن تقنعها شيليستينا أن تفعل ذلك؟ بالتأكيد ليس بواسطة النقود نظرًا إلى أنها لم تملك أيًّا منها.

- يبدو أن فيليبا تعشقها.

لم يكن للحكاية أي معنى. تظاهر دون ألتيريو أنه يصدقها.

- ولكن هل بحثت عنها؟

- بالتأكيد. هذا ما فعله بيبو ناسكا وتوتو مبالوميني منذ فجر اليوم. لم يرَهما أحد.

- هل تعرف إذا كان لها أقارب من بعيد؟
- أجل، ابنة عم تسكن أسفل جبل بيليجرينو.
- إذن يمكن...
- فعلت هذا بالفعل، أرسلت بيبو ناسكا. لا يعرفون شيئًا. ولكن قُل لي شيئًا. هل قلت لشيليستينا من تكون؟
- لا.
- إذن لا يمكن أن نضع في الحسبان أنها ربما تنتظرك أمام منزلك.
توقف للحظة ثم استمر.
- أعرف أنك كنت متعلقًا بشيليستينا، لكن... لا بد أن تريح قلبك يا سيدي الدوق، فلديَّ شعور أنك لن تراها بعد الآن.
كانت تلك النظرة السريعة التي نظر بها المركيز إلى دون ألتيريو بعد تلك الكلمات ما جعلته يتأكد أن شيليستينا قُتِلت. ولكنه استطاع أن يتماسك. لأنه إذا تصرف بعصبية واتهم المركيز بأنه قاتل، فذلك كفيل بأن يقتله هو أيضًا.
أكمل دون سيمونه:
- في كل الأحوال، لا داعي لأن تعتقد أن دَيني نحوك ينتهي هنا. ما زلت مصرًّا على أن أدفع لك دَيني كله. إذا أردت أن تصعد وتختار أخرى...
خطر ببال دون ألتيريو فجأة أنه ربما تكون هناك فتاة أخرى قد سمعت شيئًا ما يساعده على كشف ما حدث لشيليستينا.
قال:
- تقريبًا...

- أحسنت! هكذا يجب التصرف! تعالَ معي وسأساعدك على الاختيار.

- لقد اخترت بالفعل. الفتاة ذات الشعر الأحمر في الطابق الثاني.

كانت ذات الشعر الأحمر هي الأقرب إلى شيليستينا. أظهر دون سيمونه أسفه.

- آه، إنها مشغولة هذه الليلة مع شخص تعرفه جيدًا، زميل لك في المجلس.

يمكن فقط أن يكون دون كونو جالُّومباردو. في الواقع كان هو أول من تحدث معه عن المؤسسة الخيرية، وشرح له كيف تعمل.

قال دون ألتيريو:

- لا يهم.

- يؤسفني أنك اضطررت إلى أن تقوم برحلة بلا فائدة يا سيدي الدوق. ولكن اسمع، يوم الأحد مساءً سأعد وجبة فاخرة لأحتفل بالموافقة على الدعم. سأكون أنا، ودون كونو جالُّومباردو، الكونت شارافولو، والمركيز بولَّارا، والمركيز بنديكو، والبارون توريجروصَّا، والمُشرِّع بونسينيوره. وإذا أردت أن تمنحني هذا الشرف العظيم، سنكوِّن رقمًا زوجيًّا، ثمانية. ومعنا ثمانٍ من أجمل يتيمات المؤسسة الخيرية. ومن يرِد يمكنه أن يستكمل الأمسية بمفرده مع فتاة، سيكون سيد قراره.

تظاهر دون ألتيريو بأنه يفكر في الأمر قليلًا.

- حسنًا سأحضر.

- هل عربتك في الخارج؟

- لا، ستعود خلال ساعتين.
- إذن سأجعلهم يصحبونك بعربتي.
- أشكرك. أريد أن أطلب منك خدمة. لا بد أن تقول لمبالوميني وناسكا أن يستمرا على قدر استطاعتهما في البحث عن شيليستينا. إذا عثرا عليها، أو تمكنا من إخباري بأي شيء عنها، سأجزل لهما العطاء.
- سأخبرهما، ولكنني لا أظن...

ولا حتى هو كان يظن أن ناسكا ومبالوميني يمكنهما الإتيان بأي خبر عن شيليستينا. أقصى شيء يمكنهما إخباره به هو أين دفناها. قال هو ذلك فقط ليقنع المركيز بأنه ابتلع قصة هروبها تلك.

لم يسنح الوقت لأمير فيكاراتسي أن يدعو دون إستبان ديلَّا تييرنا، لأن دون إستبان استدعاه أولًا. لا ليأكل، ولكنه استدعاه في البلاط الملكي للنقاش في أمور عاجلة. عاجلة إلى حد أن الضابط والعسكريين المرافقين له الذين أحضروا له بطاقة الاستدعاء، انتظروا أن يستعد، وحملوه معهم على العربة التي أتوا بها، وأخذوه إلى حجرة في الطابق الأرضي للبلاط، أقام فيها كبير المفتشين العموميين مكتبه. كان المفتش يجلس خلف مكتب مغطى بالأوراق، ويقف على جانبيه رجلان من كل جانب، مساعدان أحضرهما معه من إسبانيا. بمجرد أن دخل دون جوستينو، نهض دون إستبان، اقترب منه وهو يبتسم، وأجلسه على كرسي بمسندين في مقابل مكتبه.

اطمأن الأمير عندما رآه بهذا الترحاب.

قال دون إستبان، بعد أن اعتذر عن إزعاجه، وهو يشير إلى الأوراق، إنه فحص الممتلكات التي حصل عليها الأمير في أثناء شغله لمنصب كبير قادة العدالة، ورأى أنها كلها في وضع سليم، لا غبار عليه.

تنفس الأمير سرًّا الصعداء. كان متأكدًا أنه لم يترك أي شيء مكتوب يدينه، ولكن لا أحد يمكنه التأكد.

استمر دون إستبان، وقال إنه يوجد فقط شيء واحد غير واضح له قليلًا. ولكنه أمر لا أهمية له، وأنه واثق بأن سمو الأمير يمكنه شرحه.

- تحت أمرك.

- هل تتذكر، سمو الأمير، شيئًا عن الأحداث التي وقعت في روكَّالوميرا قبل وصول طيب الذِّكر نائب الملك دون أنجيل، بأربعة أشهر؟

أجابه الأمير بأنه لا يتذكر بالتحديد. يتذكر بالتقريب أن الأمر كان يتعلق بثورة الشعب ضد الـ...

عندئذٍ قاطعه دون إستبان، وطلب منه إذا سمح له سعادة الأمير، سيذكره بالأحداث، من خلال التقرير الذي قدمه هو بوصفه، كبير القادة، إلى المرحوم نائب الملك. إذا كان هو يوافق على ذلك.

قال له الأمير إنه موافق جدًّا.

إذن، حسب التقرير، ثار شعب روكَّالوميرا، برئاسة تاجر أقمشة كبير، شخص يُدعى «أنجيلو بوتيرا»، ضد الكونت دون فينشينزو أريكو دي سانتا نوفيلَّا، حاكم تلك البلدة، لأن ابنه جاكوبو، البالغ من العمر عشرين عامًا، ضرب فلاحًا مسنًّا بالعصا حتى قتله، بلا

أي أسباب، فقط من أجل المتعة. ولكن سعادة الأمير، بمجرد أن وصل إلى المكان، سيطر بقبضة من حديد على التمرد، وأعلن أن الأمور كانت مختلفة عما قيل، وأن الفلاح مات لأنه سقط في وادٍ عميق. وأن أنجيلو بوتيرا اخترع كل هذا، وحرَّض الشعب ضد دون فينشينزو وابنه، بسبب مجموعة من الأقمشة الشرقية التي، بعد أن طلبها جاكوبو، رفض أن يدفع ثمنها لأنها لا تعجبه إذ لم تكن من أفضل الأصناف كما ينص الاتفاق. وكانت نتيجة ذلك، أن قبض كبير القادة على التاجر الذي لا يزال حتى الآن في السجن. هل حدث الأمر على هذا المنوال؟

بالتأكيد صار الأمر كذلك. الآن يتذكر جيدًا جدًّا.

هل يؤكد سمو الأمير إذن ما حدث؟

نعم يؤكد.

عندئذٍ أراد دون إستبان أن ينقل إليه خبرًا جديدًا. وسأله إذا كان يعرف أن جاكوبو، ابن دون فينشينزو أريكو العشريني، قُتل في كاتانيا، بعد أربعة أشهر من ذلك الحدث.

قال الأمير إنه يعرف هذا.

وإذا كان يعرف أن دون فينشينزو مات كمدًا على فقدانه لابنه الوحيد بعدها بثلاثة أشهر.

ربما يكون الأمير قد عرف هذا أيضًا.

ولكن ربما لم يكن يعرف إذن أن دون فينشينزو أريكو، على فراش الموت، كتب خطابًا لدون أنجيل، خطابًا لم يقرأه نظرًا إلى مرضه الشديد. ولكن قرأته دونَّا إليونورا.

وسأله لو كان يريد أن يعرف، إذا لم يكن هذا يزعجه، ما جاء في ذلك الخطاب.

أراد الأمير أن يعرف، ولكن ببساطة بدافع الفضول، نظرًا إلى أنه استقال، وتبعًا للقانون لا يمكن مقاضاته بسبب أي خطأ ارتكبه بينما كان في منصبه.

أخرج دون إستبان الخطاب من بين الأوراق على المكتب، وأطلعه عليه قائلًا:

- هذا هو الخطاب، وفيه يعترف دون فينشينزو بأن الثورة اندلعت لأن جاكوبو، ابن الحاكم، خطف ثم قتل ابنة التاجر أنجيلو بوتيرا، بعد مدة طويلة من الانتهاك. وأن سيادتك، يا سمو الأمير، اتفقت معه على قصة مختلفة، وأخذت مقابل ذلك ثلاثة أكياس كبيرة من العملات الذهبية. وألحق دون فينشينزو بخطابه، شهادة رئيس الخدم نينو شيليتشي، الذي ذهب بنفسه ليأخذ الأكياس، وكان حاضرًا في الغرفة عندما سلمك إياها. ولكن يلزم هنا أن أعرفك يا سيادة الأمير، أن كبير الخدم هذا، قد أكد شفهيًّا، في حضورنا، ما جاء في الخطاب. وسلم لنا جوالًا فارغًا مشابهًا لذلك الذي في حوزتك. الخلاصة، لا يمكنني أن أرسل سيادتك إلى السجن كما تستحق، ولكنني يمكنني أن أطالبك بدفع ما يساوي ثلاثة أضعاف الأكياس الثلاثة من النقود الذهبية.

استطاع الأمير أن يسأل بصوت واهن أقرب إلى الموت من الحياة:

- لماذا ثلاثة أضعاف؟

ابتسم دون إستبان بخبث:

- صحيح. حضرتك لا تعرف بعد. إنه القانون الجديد الذي أقرته اليوم دونَّا إليونورا الذي يُعدل القانون السابق، الذي ينصُّ أيضًا على حبس من يحاول أن يتهرب من الدفع. يمكنك العودة إلى المنزل، وأمامك مهلة أسبوع لتدفع. غدًا صباحًا سأخبرك بالمبلغ المطلوب بالضبط. لا بد أن نقوم ببعض الحسابات. وأكرر لك: لا تحاول الهروب، لأنه سيتم القبض عليك وحبسك. يمكنك الذهاب.

لم ينهض ولم ينظر إليه حتى.

خرج الأمير من القصر وهو يسير كالسكير، يستند بيده إلى الجدران حتى لا يسقط. حتى لو باع قصر فيكاراتسي، وإقطاعية بيتراليا والقصر الذي يملكه في باليرمو، فلن يتمكن من جمع كل النقود الكافية. دخل ثريًّا إلى البلاط من ساعة، والآن خرج منه ووضعه أسوأ من متسول.

الفصل العاشر
يوم أحد لا يُنسى

فقط عند الساعات الأولى من الصباح، عندما استقر قلبه على أن شيليستينا الآن ضاعت إلى الأبد، اتضحت لدون ألتيريو فكرة ما يجب، بل ويرغب في، تنفيذها. وكل ما عليه وأراد أن يفعله يمكنه أن يتلخص في كلمة واحدة: الانتقام. ولكنه لم يستطع أن يفهم، ولكن الأمر ليست له أي أهمية، إذا كان يريد أن ينتقم من أجل محبوبته شيليستينا، أو من أجل كرامته التي جرحها دون سيمونه.

بعد ذلك على الفور، كأنه تحرر من ثقل ما، نام نومًا عميقًا.

استيقظ لأن دونًا ماتيلدا أخذت تهزه وهي تقول له إنها ساعة تناول الطعام. فتح عينيه بصعوبة:

– لا أشعر بجوع.

– هل أنت بخير؟

يا للسماء! يا لها من مزعجة.

– أنا بخير.

– إذن لماذا ترغب في البقاء في الفراش؟

سبَّ ولعن في ذهنه، لأنه لو فعل ذلك على مسمع من زوجته سيُجبر على أن يركع على الفور ويطلب المغفرة من الرب.

- اسمعي، سأنهض الآن. هل أحضر لي الخياط ملابسي الجديدة؟

- أجل، هذا الصباح.

- دعيهم يُعدوا لي المياه الساخنة.

وعندما قال له بيبينو إن المياه جاهزة، ذهب إلى غرفة الاستحمام، وجلس فيها وهو يغسل نفسه بعناية شديدة. بمجرد أن انتهى شعر بأنه يريد أن يغسل نفسه مرة أخرى.

ارتدى ملابسه الجديدة ثم خرج. قال للحوذي أن يُخرِج أكثر العربات أناقة، تلك التي عليها شعار الدوقية الذهبي، وأن يأخذه إلى البلاط. وعندما دخل العربة، أنزل الستائر حتى يمكنه التفكير في كل كلمة لا بد أن يقولها لدونَّا إليونورا.

فجأة توقفت العربة. فكر أنه ربما يكون هناك عائق ما.

ولكن بعدها بلحظة فُتح الباب، ودخل رجل بسرعة، وجلس بجواره، وأغلق الباب خلفه.

كان دون سيفيرينو لوماشو، شاحبًا ومرتعبًا.

قال:

- كنت أمرُّ بعربتي، وعرفت عربتك فأوقفتها.

لاحظ دون ألتيريو أنه يرتجف.

- ماذا حدث لك؟

- سأهرب من باليرمو.

- لماذا؟

- إنهم يبحثون عني.

- من؟

- حراس كبير المفتشين العموميين. يبحثون عني نظرًا إلى أنني هذا الصباح لم أستجب لاستدعائه.

- ولماذا لم تذهب؟

نظر إليه دون سيفيرينو مدهوشًا.

- ألم تسمع أنه بالأمس، في خلال أقل من ساعتين، حوَّل دون إستبان أمير فيكاراتسي إلى شخص فقير ومجنون؟

هذه المرة دُهش دون ألتيريو.

- حقًّا؟

حكى له دون سيفيرينو ما حدث.

- لكن هروبك لن يحل أي شيء. سيستولي الرجل على أملاكك سواء أكنت هنا أم لا.

- في كل الأحوال هذا الصباح بِعت اثنتين من إقطاعياتي ومنزلي إلى دون أنورفيو سوكاتا، وجعلته يدفع لي نقودي نقدًا. خسرت كثيرًا، ولكن يبدو لي هذا أفضل من لا شيء. سأذهب لأختبئ في مكان ناءٍ بالقرب من جيرجينتي، حيث لن تتمكن كلابهم من العثور عليَّ. وأنت ما الذي تنوي فعله؟

- سأذهب عندما يستدعيني.

قال له دون سيفيرينو، وهو يخرج من العربة:

- حظًّا سعيدًا.

قال دون ألتيريو لنفسه بينما تتحرك العربة مرة أخرى: «أشكرك. أحتاج إليه بالفعل».

كانت الساعة قبل العاشرة بقليل، كانا في صالون المسكن الخاص، دونَّا إليونورا تجلس على مقعدها، بينما يقف دون ألتيريو أمامها.

دعته المركيزة لأن يجلس لكنه رفض، ووقف بثبات أمامها كالجندي، حتى وإن أخذت قدماه ترتعشان قليلًا.

احتفظت دونَّا إليونورا طوال استماعها إليه بتعبير اللامبالاة تقريبًا، ثم قالت:

– إذا كنتُ قد فهمتُ جيدًا، هل كنت تعرف، عندما أتيت إليَّ لتقنعني بأن أمنح الدعم للمؤسسة الخيرية، الغرض البشع الذي من أجله وُضعت اليتيمات هناك؟

– أجل، كنت أعرفه.

– وحضرتك، عندما أتيت معي إلى الملجأ، وأدركت الحيلة التي لعبها دون سيمونه، لم تقُل أي شيء؟

– هذا صحيح.

– وحضرتك فعلت كل هذا لأنك وقعت في غرام واحدة من الفتيات اليتيمات؟

– للأسف، نعم.

– وأنت تشك أن المركيز أمر بقتل فتاتين، والفتاة التي وقعت، حضرتك، في حبها، لأنهن كُنَّ حبالى؟

– لديَّ أسباب تجعلني أعتقد أن هذا ما حدث.

- ويوم الأحد ستكون هناك حفلة خاصة في الملجأ، بين ثمانية من سادة المؤسسة المترددين عليها بانتظام؟

- أجل.

- وهل تعرف العواقب الوخيمة التي يمكن أن تقع عليك بسبب كلامك هذا؟

- أعرفها تمامًا.

- هل تشعر بالندم على ما ارتكبته؟

- لا.

عندئذٍ ظلت دونًا إليونورا صامتة لوقت طويل، ثم قالت:

- سأطرح عليك سؤالًا، أعرف أنه سيكون من الصعب عليك الرد عليه، ولكن لا بد أن تجيبني بصدق.

- تفضلي.

- في المرة الأولى التي صوَّت فيها المجلس من أجل الدعم المُقدم للمركيز، هل كان الجميع يعرفون أن زوجي، نائب الملك، كان ميتًا بالفعل؟

كان حلق دون ألتيريو جافًا، الآن شعر كأنه الصحراء.

أراد أن يقول نعم، ولكن صوته لم يخرج منه.

أسقط رأسه في إشارة إيجاب.

- السؤال الأخير الذي عليه سيتوقف قراري. لماذا تفعل كل هذا؟

مرر دون ألتيريو لسانه الجاف على شفتيه الجافتين. كان يمكنه أن يخترع مائة سبب وسببًا، كلها مختلفة، ولكن من الأفضل مع هذه المرأة الالتزام بالصدق.

قال:

- بدافع الانتقام.

عندئذٍ نهضت دونًّا إليونورا ببطء شديد.

وجهها شاحب بعض الشيء، ولكن صوتها لم يتغير، الصوت الهادئ والمتناغم نفسه. نظرت إلى دون ألتيريو في عينيه.

هل هناك شيء مثل فتيلة سوداء يمكن أن يشتعل بالسواد والعنف؟ للحظة رأى شيئًا يشبه تلك الشعلة الغامضة يشتعل في حدقتَي المركيزة. وشعر بخوف لم يسبق أن شعر به في حياته كلها.

قالت دونًّا إليونورا:

- أفهم ما تشعر به. لأني أنا أيضًا تحركني رغبة في الانتقام. حضراتكم في المجلس سخرتم من شخص ميت، واستغللتم بلا أي شرف جثة زوجي. لن أسامحكم أبدًا. وربما يكون انتقامي من سيادتك هو ألا أجعلك تحصل على انتقامك.

عند سماعه تلك الكلمات شعر دون ألتيريو بأنه يُحتضر. إذن هل كان كل هذا بلا فائدة؟ هل دمر نفسه بلا أي مقابل؟

استمرت المركيزة:

- إلا أنني لن أفعل هذا. ستحصل على انتقامك بشرط.

- ما هو؟

- أن تشارك في الحفل يوم الأحد.

- سامحيني، أنا لا أرغب في وضع قدمَي هناك مرة أخرى.

- لكن يجب عليك هذا.

- ولكن لماذا؟

- لا أعتقد أنه يمكن اتهام السادة المزعومين الذين سيشتركون في الحفل مع الفتيات الثماني اليتيمات بأي شيء. الوحيد الذي يمكنني أن ألقي القبض عليه في تلك الليلة هو المركيز. ولكنني أرغب، بكل قواي، أن أعرضكم جميعًا، للفضيحة العامة، وبهذه الطريقة ستُلطخ أسماؤكم المحترمة بالعار إلى الأبد.

قال دون ألتيريو:

- سأفعل ما تريدين.

وفي المساء انتشرت شائعة بأن دون سيفيرينو لوماشو قُبض عليه بينما يحاول الهروب، ومن ثَمَّ أُلقي به في السجن. وانتشر أيضًا الخبر بأن دون أركنجيلو لافيرلا، أدميرال الأسطول السابق، بعدما خضع للتحقيق لثلاث ساعات مع كبير المفتشين، أصبح يتسول في الطرقات. إذ صُودرت كل أملاكه، الكثيرة جدًّا.

وبمناسبة الاجتماع الأول لمستشاري الحِرف، أعلن دون فاليريو مونتانو قانونًا جديدًا أصدره نائب الملك، دونًّا إليونورا.

والقانون، الذي أطلق عليه «الأثلاث الثلاثة» ينصُّ على أن أي شخص يطلب عملًا من أي من أعضاء الطوائف لا بد أن يدفع ثلث التكاليف التقديرية في بداية العمل، وثلث القيمة في نصف المدة، والثلث الأخير في نهايتها. ومن ثَمَّ لن يكون ممكنًا بالنسبة إلى النبلاء ولا الأغنياء ولا ميسوري الحال، أن يدفعوا أجر من يعملون عندما يحلو لهم، أو أن يدفعوا نصف المستحقات فقط، أو ألا يدفعوا على الإطلاق كما يحدث عادة.

سعِد المستشارون، ودعوا إلى مسيرات كبيرة للشكر، حددوا موعدها يوم الأحد في العاشرة صباحًا أمام البلاط.

ونظرًا إلى أن بين أصحاب الحِرف يوجد الكثير من «الآباء المُثقلين»، انتشرت الشائعات أيضًا أن كل «الآباء المثقلين» في باليرمو قرروا الاشتراك في حملة الشكر.

وفي اليوم نفسه أيضًا، استقبلت دونًّا إليونورا في قاعة المجلس الأشخاص الستة الذين وافقوا على أن يصبحوا المستشارين الجدد. اختارهم واحدًا واحدًا دون سيرافينو ودون فاليريو، رجال لا غبار على أمانتهم واستقامتهم.

كانوا: قداسة دون بنديتو أروزيو، أسقف باتِّي، ودون فيليبو أركاديبانه، أمير ميليتيلُّو، كبير قادة العدالة، ودون سيباستيانو كونسولو، دوق شانو، كبير المالية، ودون جايتانو كورُّو، مركيز فيومارا، قاضي الملكية، ودون ميكيله جالاتزيو، كونت شاكًّا، قائد البحرية، ودون أرتيدورو جامَّارًا، بارون سان ميكيله، كبير الحُكام. وأُعيد تثبيت موثِّق البلاط والسكرتير في مواقعهما، وشهدا مراسم إعلان المستشارين الستة للطاعة.

وتحدد أن يجتمع المجلس مرتين في الأسبوع، يومَي الثلاثاء والجمعة.

في الرابعة بعد الغداء اجتمع أعضاء طوائف الحرف الاثنان والسبعون في المدينة، ومائة وثمانون من «الآباء المُثقلين»، ومعهم زوجاتهم وأبناؤهم، في الميدان أمام البلاط.

لم يرَ أحد، من قبل، كل هؤلاء الناس يجتمعون بهذه الطريقة، والشيء الأغرب بالفعل، أنهم كانوا جميعًا سعداء.

رُفعت أيضًا بعض اللافتات على دعامات خشبية، أكبرها تقول:

باليرمو تولد من جديد! آن الأوان!
ولهذا نشكر ونشيد بملكتنا الرشيدة!

البعض يصيح بصوت مرتفع: «تعيش الملكة إليونورا!»، والبعض الآخر يصيح: «نحن جميعًا معك»، ولكن رويدًا رويدًا اجتمعت كل الأصوات في جوقة واحدة: «اخرجي لنا! اخرجي لنا!».

لم تكن دونًّا إليونورا، التي تراقب الموقف من خلف النافذة من دون أن يراها أحد، ترغب في أن تظهر. ولكن أقنعها رئيس المراسم:

- إذا لم تظهري فلن يرحلوا أبدًا.

فتحت دونًّا إليونورا النافذة وظهرت لهم.

بمجرد أن رآها الناس، ذُهلوا، وأبهرهم جمالها.

فجأة ساد الصمت التام والمخيف. عندئذٍ، أحد الذين لم يكن يرى جيدًا سأل بخوف:

- ماذا حدث؟ ماذا حدث؟

بعدها بثانية ارتفع صخب شديد، تسبب في اهتزاز الأرض.

ارتعش أيضًا الأسقف تورُّو ميندوزا عندما عرف ما حدث أمام البلاط.

الآن أصبحت المركيزة تمسك باليرمو بقبضة يدها. وبالتأكيد، هي مسألة أيام ويستدعيه كبير المفتشين، الذي سيجرده من كل شيء.

عندئذٍ اتخذ قرارًا فجائيًّا، قرارًا خطيرًا. ولكن لم يكن لديه ما يخسره...

وهكذا في قداس منتصف النهار، فوجئ المؤمنون الذين دخلوا الكاتدرائية، باعتلاء الأسقف المنبر، إذ إنه لم يكن يوم احتفال خاص.

بدأ الأسقف بالقول إنه يريد أن يفتح أعين الناس المخلصين الذين على وشك أن يقعوا في فخ أعده لهم الشرير. قال إن الشرير ربما يُمثل بذيل وقرنين، ولكنه كثيرًا ما يغير مظهره إلى صورة رجل عادي، أو الأسوأ - وهو شيء يحدث كثيرًا - امرأة شديدة الجمال، لها مظهر الملائكة.

ولا يمتلك الشيطان المُمثل في امرأة قوة الجمال فقط، بل ويحمل مشاعر جميلة وسخية، ومستعد لعمل الخير.

- امرأة بهذا الشكل، تبدو كأنها تُقدم إليكم سلة من الفاكهة الطازجة، حلوة المذاق. وأنتم، المساكين، كيف يمكنكم معرفة أنها خدعة؟ تشكرون وتمدون أيديكم، وتتقدمون لتأخذوا واحدة. كم هي طيبة! وترغبون في واحدة أخرى. تمدون اليد الثانية ولا تدركون أن هذه المرة توجد حية سامة راقدة داخل السلة التي تلدغ أصابعكم. لا تنتبهون، ولكن السُّم الشيطاني نفذ إليكم بالفعل، ولا يمكن فعل شيء. الآن، أيها المؤمنون الأعزاء، يمكنكم أن تسألوا أنفسكم: لكن كيف يتحدث بهذه الطريقة عن امرأة تفعل أشياء لصالحنا؟

عندئذٍ سأسألكم: كيف أن تلك الإنسانة منذ أن وصلت إلى هنا، وقد مرَّ تقريبًا عامان على هذا، لم تشعر بحاجة قَطُّ إلى الاعتراف؟ هل يبدو لكم هذا صوابًا؟ أنا أسألكم أنتم يا من تعترفون وتتناولون من الأسرار المقدسة بانتظام.

وأيضًا: كيف أن نائب الملك المسكين، وصل إلى هنا بصحة جيدة، ولكن منذ أن وصلت هي، بدأت تتدهور صحته؟
والشيء الأخير: لماذا تحتفظ بجسد زوجها الميت داخل حجرة من حجرات البلاط، ولا ترغب في أن تمنحه دفنًا مسيحيًّا مناسبًا؟ ألا تعرفون كم تعاني نفس الميت...

ثم توقف للحظة، لأن فكرة لمعت في ذهنه، عندئذٍ أكمل ليختم عظته:

- ... كم تعاني نفس ميت متروك بلا صلاة وبلا قداس؟ لا بد أن تفكروا في تلك الأشياء. أنتم، المؤمنين المخلصين، لتجعلوا أصدقاءكم أيضًا الذين لم يحضروا اليوم يفكرون في ذلك.

وبمجرد أن انتهى من الوعظ، ذهب إلى غرفة المقدسات، وقال لسكرتيره أن يذهب ليستدعي على الفور دون أشولًّا، قس كنيسة البلاط.

لا بد أن يأتي على الفور بلا أي دقيقة تأخير، وسينتظره في مقر الأسقفية.

وما إن وصل إلى مكتبه، حتى استدعى الأسقف دون شيبيونه ميتساتيستا، وهو قس شاب، استخدمه في الماضي في أمور من الأفضل عدم الخوض فيها. إذا عُرفت لانتهى أمرهما في قبضة المجمع المقدس.

قال له ما يريده منه. وقال له دون شيبيونه إنه تحت أمره كالمعتاد.
مع دون أشولًّا كان الأسقف سريعًا ومتعجلًا.
- هل رأيت دونًّا إليونورا اليوم في كنيسة البلاط؟

- لا يا سيدي، فهي لا تضع قدميها فيها أبدًا.
- هل حاولت إقناعها، لا أن تأخذ الأسرار المقدسة، ولكن أن تأتي يوم الأحد لتحضر القداس المقدس؟
- لم أحاول قَطُّ.
- ولماذا؟
- لأنه لا فائدة مع تلك المرأة.
- ولا فائدة منك أنت أيضًا، يا دون أشولَّا. منذ الآن ستنتقل إلى هنا. سيذهب دون شيبيونه ميتساتيستا ليحل محلك في كنيسة البلاط.

مع اقتراب الليل، وفي هدوء شديد، دخل نحو أربعين جنديًا، تحت إمرة القائد ميجيل أورتيز إلى المنطقة المحيطة ببناية المؤسسة الخيرية واتخذ كلٌّ منهم موقعه. عثر القائد على مكان يمكنه منه أن يراقب البوابة، وأخذ يحصي العربات التي تصل ثم ترحل فارغة. عندما وصل العدد إلى سبعة، عرف أن كل المدعوين قد حضروا، نظرًا إلى أن المركيز كان بالداخل بالفعل منذ مدة.

الآن لم يبقَ أمامه سوى الانتظار.

عندما مرَّ أكثر من ساعة وحل الظلام الدامس، وصلت عربتان وتوقفتا بالقرب من المبنى. من الأولى ترجل كبير قادة العدالة شخصيًّا، دون فيليبو أركاديبانه. وفي الثانية كانت توجد القابلة سيدونيا بونيفاتشو مع مساعدتين: ماريا وكونشيتًّا. تمسك ماريا بسلة بها ثلاثون بيضة مسلوقة وخمس شمعات.

وفي الوقت نفسه في الداخل، في قاعة الطعام، بُسطت الوليمة الفاخرة والشراب في جو من المرح والتسلية. حتى دون ألتيريو تظاهر بأنه يشارك في كل هذا على الرغم من حزنه الشديد.

بجوار كل ضيف جلست صبية تعمل على جلب الأطباق من المطبخ وملء قدور النبيذ إذا فرغت.

بل وخطر لدون سيمونه تلك الفكرة الرائعة: أن ترتدي الفتيات الثماني زي الراهبات، من دون أن يرتدين أسفله أي شيء. وكل زي من أزياء الراهبات تلك، ثُقب أربعة ثقوب: اثنان يبرز منهما الثديان، والثالث من الأمام يمكن لليد أن تصل من خلاله بسهولة إلى الوادي السفلي، أما الرابع والموجود بالخلف، فكان أكبرها، ومن خلاله يمكن التربيت بكل راحة على القمر الكامل.

سأل دون فيليبو القائد:

- كيف تنوي التصرف؟

أجاب القائد أنه سوف يحاصر المبنى أولًا، ليمنع أيًّا منهم من الهروب، ثم يهجم.

- ولكن إذا لم يفتحوا؟

عندئذٍ سوف يحطمون البوابة.

قال دون فيليبو:

- ولكن هكذا سنفقد عنصر المفاجأة! وربما تمكنوا من إعادة تنظيم أنفسهم. أليس من الأفضل أن ترسل أحد جنودك الخبراء ليجد طريقة لدخول المنزل من دون اقتحام البوابة؟

وافق القائد، وأرسل أحد الملازمين، وهو محارب محنك قديم.

عاد بعد نصف ساعة وقد أحضر معه خبرًا جيدًا. والخبر مفاده أن البوابة شبه مفتوحة وأمامها يوجد رجلان في دور الحراسة.

وقال للقائد إنه إذا أعطاه ثلاثة جنود، يختارهم هو، يضمن له أن يتمكن من القبض على الرجلين بحيث لا يتمكنان من تحذير الآخرين.

وهكذا، في لمح البصر، وجد بيبو ناسكا وتوتو مبالوميني نفسيهما على الأرض، فاقدَي الوعي، بضربتين قويتين على الرأس، كأنهما سقطا من السماء.

بعدها بعشر دقائق، عبر دون فيليبو أركاديبانه، والقائد وعشرة جنود مسلحين البوابة الرئيسية ليدخلوا البناية الصغيرة.

قال دون فيليبو بمجرد أن دخل إلى قاعة الطعام:

- لا أحد يتحرك.

كلمات بلا فائدة، لأنهم جميعهم أصيبوا بالشلل. دون سيمونه وهو يمسك بين أسنانه ربع دجاجة، والبارون توريجروصًّا بينما ينحني ليقبل حلمتَي الصبية الجالسة بجواره، والمُشرِّع بونسينيوره بينما يحول انتباهه على قمر متكامل لفتاة أُجبرت، من أجل هذا الغرض، لتقف وهي تأكل...

أول من استطاع التصرف كان دون كونو جالُّومباردو.

- هذا حفل خاص، وليس من حقك أن تقبض عليَّ!

عندئذٍ، أفاقوا جميعهم.

خار الكونت شارافولو:

- أنتم لا تعرفون من أنا!

صاح المركيز بولّارا:

- نحن لا نفعل أي شيء مخالف للقانون!

وقال المركيز بنديكو، مؤكدًا:

- اعتداء صريح! ليس لديكم أي حق.

أجابهم كبير القادة ببرود شديد:

- منذ دقيقة واحدة، في الواقع، لم يكن لديَّ أي حق. وكان لا بد أن أقبض فقط على المركيز تريكًّا لأنه يدير دارًا للدعارة متظاهرًا بأنها مؤسسة خيرية، ولكن الآن أستطيع أن أقبض عليكم جميعًا.

قال دون كونو:

- لماذا؟

سأله البارون توريجروصًا مقاومًا:

- من قال هذا؟

- قاله القانون. لقد فاجأناكم بينما ترتكبون فعل تجديف واضحًا وصريحًا، مستخدمين ملابس دينية في أعمال فاحشة وفاسقة. والأهم من ذلك كله أن كل راهبة مزيفة ترتدي في عنقها صليبًا.

كان هذا حقيقيًّا، خرسوا جميعهم.

استمر دون فيليبو:

- ليس أمامكم سوى الاختيار: إما أن أقبض عليكم أنا، وإما أن أسلمكم إلى المجمع المقدس.

لم يتردد أيٌّ من الثمانية في الاختيار ولم تبدر عنهم أي مقاومة عندما ربط الجنود أياديهم خلف ظهورهم.

في ذلك الوقت اصطحب القائد الفتيات إلى حجراتهن.

مكث عشرة جنود بأمر من أحد الملازمين في المؤسسة، ومعهم دون فيليبو.

أُقتِيد الثمانية المقبوض عليهم، ومعهم توتو مبالوميني وبيبو ناسكا، إلى السجن سيرًا على الأقدام، يصحبهم الجنود.

أخذ دون ألتيريو يبكي وهو يسير. لم تكن دموع العار أو اليأس، ولكن دموع التحرير، كأنه يشعر براحة كبيرة.

ثم أدخلوا القابلة إلى البناية، ومعها المساعدتان والسلة بالبيضات الثلاثين. وبدأت القابلة في الفحص.

عندما نزلت بعد ساعة قالت إنها لم تجد فتاة واحدة بين اليتيمات لا تزال عذراء. ولذلك لم تكن في حاجة إلى البيض.

جعلها كبير القادة توقع على ورقة، ثم انصرف، وانصرفت أيضًا القابلة والمساعدتان. مكث الجنود العشرة ليحرسوا المكان.

بعد ذلك بثلاث ساعات اعترف بيبو ناسكا وتوتو مبالوميني بأنهما قتلا ثلاثًا من الفتيات اليتيمات، بناءً على أوامر من دون سيمونه. وأخبرا أين دفنا الجثث.

الفصل الحادي عشر
شبح دون أنجيل يظهر
ويتسبب في خسائر كثيرة

فُتحت الجلسة الأولى للمجلس الجديد في تمام الساعة العاشرة صباحًا يوم الثلاثاء.

في البداية تحدث كبير قادة العدالة الذي حكى ما حدث في مبنى المؤسسة الخيرية، وكيف اضطر إلى القبض على الجميع. بعد ذلك حكى عن اعترافات القاتلين، وأنه أرسل حراسًا للبحث عن جثث الفتيات الثلاث. عثروا عليها بالقرب من المؤسسة الخيرية، وُضعت الجثث في أكفان وأُعيد دفنها في أرض مقدسة.

وفي الصباح الباكر أصدرت المحكمة أمرًا بمصادرة أملاك كل الموجودين، وحُكم بالسجن خمس سنوات على من حضروا الحفل، فيما عدا دون سيمونه الذي حُكم عليه بالإعدام لجرائم القتل الثلاثية ومعه ناسكا ومبالوميني.

أُخذت الأربع والعشرون يتيمة، بناءً على أوامر محددة من دونًا إليونورا، إلى دير سانتا تيريزا.

وفي مساء اليوم السابق أيضًا، وبعد الاعترافات الكاملة لدون سيمونه، قُبض أيضًا على شركائه الذين كانوا يُحضرون له أجمل الفتيات إلى الماخور، من بينهم الأم تيريزا، رئيسة راهبات دير سانتا لوتشيا، والأخت مارتينا، رئيسة دار الأيتام التي تديرها مع دير القلب المقدس، ودون آليانو، الذي يدير بيت ضيافة لليتيمات، والأخ آجينوره، مساعد رئيس الفرنسيسكان.

وأنهى كبير القادة بقوله إن المركيز سلَّم قائمة من الممتلكات حصل عليها من خلال عمله المخزي هذا، وكانت النتيجة مذهلة.

بعده اقترح كبير الحُكام أنه عندما ينتهي عمل دون إستبان مع أعضاء المجلس السابقين، يجب أن يُنقل إلى ميسينا ليمارس بعض الضغوط على رئيس الترسانة هناك.

وبعد ميسينا، لا بد أن يذهب إلى بيفونا ليرى ما يفعله دون أوريليو سبانُّو، مركيز بونتاميتسا، نظرًا إلى الأخبار المؤكدة أن السيد المحترم يملأ جيوبه من دخل الضرائب، حسب ما يتهمه شعب بيفونا. وفي النهاية قال إنه نتيجة لكل المصادرات من أموال وأملاك من الفاسدين، فإن كل تلك الإيرادات ربما تسمح بالتخفيف قليلًا من الضرائب.

أظهرت دونًّا إليونورا اهتمامًا كبيرًا بهذا الموضوع، وطلبت شرحًا أكثر من رئيس الخزانة الذي أجابها بأن الأموال تتدفق إلى خزائن الدولة بكثرة.

ثم أمرت المركيزة أن يُعلن عن القبض على دون سيمونه ورفاقه لعامة الشعب، من خلال المنادين الذين يجب أن يمروا في كل شوارع العاصمة.

ثم أعلنت أن كل ما ترغب في فعله سوف تشرحه في الاجتماع المقبل للمجلس يوم الجمعة.

ورُفعت الجلسة.

لم تكن ترغب في التأخر، لأنها كانت قد دعت على الغداء أميرة ترابيا ودون سيرافينو. كانت تريد أن تتحدث معهما طويلًا حول المشروعات التي في ذهنها.

عندما تُغلق بوابة القصر في المساء، كانت العادة أنه بالإضافة إلى الحراس في الخارج، الذين يقفون وبينهم مسافة عشر خطوات الواحد بجوار الآخر يحيطون بالجدران، يمكث في الداخل اثنا عشر جنديًّا مختارين، يُبدلون كل أسبوع، وهم تحت قيادة الملازم راميرز الذي لا يتغير.

من بين أولئك الجنود الاثني عشر، يحرس ثلاثة السكن الخاص بنائب الملك، واحد أمام الباب، والثاني في منتصف الممر، والثالث أمام السلم الذي يؤدي إلى الطابق الأسفل.

عادة، بعد نحو ساعة، نظرًا إلى أنه لا يحدث أي شيء داخل البلاط على الإطلاق، يستلقي الجندي الواقف أمام السلم على الأرض وينام.

ويفعل الآخران أيضًا الشيء نفسه، ولكن وهما واقفان مثل الأحصنة، وظهراهما مستندان إلى الجدار.

في ذلك الأسبوع كان الجنود الثلاثة المعينون لحراسة السكن هم: أوزوريو، المعين ليقف أمام الباب، وفاناسكو، من يقف في منتصف الممر، ومارتينز، الذي يقف أمام السلم.

في تلك الليلة، وبينما هم في نوم عميق، يساعدهم على ذلك شبه الظلام الناتج عن بعد الشعلة الوحيدة التي تضيء الردهة، استيقظ أوزوريو فجأة على شيء ما، لم يفهمه في البداية.

هل كان صوتًا صادرًا عن إنسان أم حيوان؟

أنصت السمع، وبعد قليل اقتنع أن الصوت لإنسان يئن:

- آه ه ه ه! آه ه ه ه! آه ه ه ه!

وماذا يفعل رجل داخل السكن الخاص الذي من المفترض أن تسكنه نساء فقط، أي دونًا إليونورا والوصيفات الأربع؟

نظرًا إلى استمرار الأنين اليائس، ذهب إلى فاناسكو النائم وأيقظه.

- تعالَ معي.

- ماذا حدث؟

- تعالَ لتسمع.

تبعه فاناسكو، وسمع الأنين.

يمكن أن يكون شخص ما تسلل إلى الداخل من باب مختلف. ولكن هذا الباب يقود مباشرة إلى الحجرة الموجود فيها نعش دون أنجيل.

بسرعة، ذهبا إلى مارتينز، وأيقظاه.

- هل رأيت أحدًا يعبر من هنا؟

ردد مارتينز وهو ناعس:

- أحد؟

- أجل، رجل.

قال مارتينز، إذ إنه في نومه العميق لم يكن ليشعر بجيش كامل يمر:

- لا.

ذهب ثلاثتهم ليسمعوا أصوات الأنين إذا كانت لا تزال مستمرة. وكانت مستمرة.

قال أوزوريو بقلق:

- سأذهب لأستدعي سيادة الملازم. أنتما، لا تتحركا من هنا.

وصل الملازم راميرز بسرعة وهو يحمل شعلة في يده. وسمع هو أيضًا الصرخات، التي أصبحت مرعبة أكثر.

والآن أصيب جميعهم بالفزع.

- اذهب لتوقظ رئيس المراسم، ليأتِ إلى هنا بمفتاح المسكن الخاص.

المفتاح الآخر في حوزة إستريلّا، رئيسة الوصيفات.

وصل رئيس المراسم في ملابس النوم، وفتح. وهرعوا جميعًا نحو الغرفة الداخلية.

واتضح على الفور أن الأنين يأتي من الغرفة التي فيها نعش دون أنجيل.

وقف شعر رؤوسهم جميعًا، وبدأوا يرتجفون، مرتعبين.

سأل راميرز:

- من لديه مفتاح تلك الغرفة؟

- المفتاح مع دونًّا إليونورا.

- ألا يوجد أي باب آخر؟

أجاب قائد المراسم:

- أجل، يوجد باب آخر يؤدي إلى المصطبة. ولكنه مغلق منذ الأزل.

- ومن معه المفتاح؟
- لا أعرف.
عندئذٍ اقترب الملازم من الباب، وسأل:
- من أنت؟
لم يكن هناك أي رد. ولكن الأنين أصبح مُرعبًا.
سأل الملازم مرة أخرى، وصوته يرتجف قليلًا:
- هل تحتاج إلى مساعدة؟
أجاب صوت عميق بدا كأنه يأتي من أعماق الأرض:
- أجللللل!
سقطت الشعلة من يد الملازم المرتعب وانطفأت، وأغرقتهم في الظلام.
عندئذٍ ارتعبوا وهربوا نحو الردهة. ومكثوا هناك، مقطوعي الأنفاس، متشبثين بعضهم ببعض.
وفي هذه اللحظة بالتحديد توقف الأنين.
أخذوا كلهم يصيخون السمع، ولكن لم يسمعوا شيئًا آخر.

في صباح اليوم التالي ذهب رئيس المراسم ومعه الملازم راميرز، وطلبا من دونًا إليونورا باحترام إذا كان بالإمكان أخذ مفتاح الغرفة الموجود بها النعش.
قال قائد المراسم:
- هذه الليلة سمعنا صوت رجل يئن هناك في الداخل.
وأضاف الملازم:

- وكان يطلب المساعدة.
- هل أنتما متأكدان؟
- متأكدان جدًّا.
- سأذهب معكما.

في الداخل كان كل شيء في نظام تام. الشموع الضخمة على الشمعدانات لا تزال مشتعلة. ذهب الملازم راميرز وفحص الباب الآخر. وبدا أنه لم يُفتح منذ أعوام.

شعر رئيس المراسم والملازم بالاستياء. ولكن النظرة التي نظرت بها إليهما دونًا إليونورا جعلتهما يشعران بمزيد من الاستياء.

في ذلك الصباح نفسه، قال الجندي أوزوريو، الذي تربطه علاقة بإحدى خادمات البلاط، عملها هو شراء المؤن من المدينة، عن الرعب الذي شعر به. ونقلت هي ما حدث، لأنها ثرثارة كبيرة، لكل من في السوق.

في الليلة التالية لم يحدث أي شيء. ولكن حدث الهرج والمرج في ليلة ما بين يومَي الخميس والجمعة.

في الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل، استيقظ جنديا الحراسة في الطابق الأول وهما ديل روخو وسانشيز، اللذان ينام أحدهما مستندًا إلى الآخر، بسبب اندفاع مفاجئ للهواء البارد.

ونظرًا إلى أنها كانت ليلة من الريح والأمطار، فلا بد أن دفعة ريح فتحت نافذة في مكان ما. بعدها بثانية، هبت، ربما، رياح أخرى أطفأت الشعلة المعلقة على الجدار.

شعرا على الفور بالقلق لأنهما كانا يعلمان ما حدث منذ ثلاث ليالٍ.

لم يستطيعا أن يذهبا لإشعال الشعلة، إذ إن أنينًا لروح متألمة شلَّهما.

بعدها بقليل، في ضوء إحدى الصواعق، رأيا شيئًا مُرعبًا.

شبح، ذراعاه مرفوعتان، يقترب منهما مهددًا، وهو يخور بطريقة لا يمكن لأحد ألا يموت رعبًا عندما يسمعها.

صاح ديل روخو:

- تجلٍّ!

صرخ سانشيز:

- شبح!

وهرب كلاهما وهما يصرخان بعنف حتى أيقظت صرخاتهما نصف القصر.

وكان الطريق الوحيد المفتوح أمامهما هو السلم. جريا فيه وهما يعبران جريًا أمام مارتينز الناعس.

- تجلٍّ!

- شبح!

أخذ مارتينز يجري خلفهما، وأضاف صوته إلى صراخهما.

عندما وصل الجنود الثلاثة إلى فاناسكو، الذي كان الأشجع بينهم جميعًا، تركهم يعبرون ولكنه مكث ثابتًا في موقعه، ممسكًا بالشعلة منتظرًا وصول الشبح.

جرى أوزوريو أيضًا ووقف بجواره.

وظهر الشبح الأبيض في بداية الردهة، ولكنه لم يكن بمفرده. بجواره كان هناك شبح آخر.

صعب جدًّا التعامل مع شبحين. عندئذٍ استدار فاناسكو وأوزوريو، وبدآ في الجري خلف الثلاثة الآخرين، حتى نهاية الردهة.

- تجلِّيان!

- شبحان!

وهكذا لم يستطيعوا أن يلحظوا شيئًا عجيبًا حدث. وهو أن الشبح الأول، عندما سمع أنينًا عاليًا خلفه، استدار، ورأى الشبح الثاني، فسقط على الأرض مغشيًّا عليه.

لأن الشبح الأول لم يكن شبحًا حقيقيًّا، ولكن رئيس المراسم الذي استيقظ بسبب الضوضاء وخرج بقميص النوم الأبيض، والقبعة البيضاء ذات الشرابة التي يضعها على رأسه ليلًا.

متجاوزًا الشبح على الأرض، استمر الشبح الثاني في التقدم بأنين نفس ضائعة.

في تلك اللحظة كاد الجنود يفقدون صوابهم، ولم يكن لديهم أي مكان للهرب، سوى النافذة.

في تلك اللحظة تذكر سانشيز أن أسفل النافذة توجد مصطبة صغيرة، صغيرة وضيقة، ولكنها مصطبة على الرغم من ذلك.

ومن دون أن يفكر مرتين فتح النافذة وألقى بنفسه إلى أسفل، وتبعه الأربعة الآخرون، وهم ما زالوا يصرخون:

- تجلِّيان!

- شبحان!

أيقظت الضوضاء الشديدة في تلك اللحظة دونًّا إليونورا. نهضت من الفراش وخرجت من المسكن وإلى الردهة، عندئذٍ قابلت الملازم، الذي يسند قائد المراسم من كتفيه وهو يرتجف، وعيناه جاحظتان ويقول:

- شـ شـ شبح! شـ شـ شـ بح!

بعدها بنصف ساعة عُرف أن سانشيز وهو يقفز من النافذة، قفز بعيدًا وبدلًا من أن يهبط على المصطبة الصغيرة، انتهى أمره على الأرض على بعد عشرين مترًا، بالقرب من جدار البلاط، ومات على الفور.

قررت دونًّا إليونورا أنه لم يكن مناسبًا عقد اجتماع المجلس في صباح اليوم التالي. وذلك الذي تريد أن تقوله للمستشارين ستقوله في المجلس يوم الثلاثاء.

ونظرًا إلى أنها لم تستطع أن تتحدث على الفور مع رئيس المراسم، أرسلت لتستدعي نائبه وطلبت منه أن يخبر أعضاء المجلس، في الصباح الباكر، عن تأجيل الجلسة.

ولأن النوم جافاها، ذهبت إلى المكتب لتقرأ الخطابات التي وصلت إليها. لأن الآن بدأوا يكتبون إليها من كل أنحاء صقلية.

لم تؤثر فيها قصة الشبح تلك، ولكنها تنوي التحدث عن الموضوع في الصباح مع الملازم راميرز. فهي متأكدة أن الأمر يتعلق بمزحة ثقيلة بين الجنود، ولكن للأسف انتهت نهاية مأساوية.

ولكن عند أول ضوء للنهار ظهر من النافذة، حضرت إستريلَّا تخبرها عن قس ينتظرها في حجرة الاستقبال ويرغب في التحدث إليها بصورة عاجلة. نهضت وذهبت للقائه.

كان القس، الذي لم ترَه من قبل، شابًّا. عيناه جريئتان، يرتدي رداءً فضفاضًا، ويمسك بيده دلوًا به ماء مقدس ومنضحة. لم يحيِّها، اكتفى بأن يحدق إليها.

- ماذا تطلب سيادتك؟

- أنا دون شيبيونه ميتساتيستا، القس الجديد لكنيسة البلاط. نُقل دون أشولًّا إلى مكان آخر.

- وماذا تطلب؟

- مفتاح الحجرة حيث يوجد نعش زوجك.

- لماذا؟

- أعتقد أنه واجبي أن أصلي على الفور على المرحوم. شبح هذه الليلة هو شبحه كما هو واضح، فهو يجول يئن لأنه لم يُدفن بعد حسب الطقوس المسيحية.

ظهرت شعلات سوداء في عينَي دونَّا إليونورا.

- اخرج من هنا!

- سأخبر نيافة الأسقف أن...

- اخرج من هنا!

استدار القس وخرج.

في ذلك الصباح نفسه، أرسل الأسقف ليقول لكل قسوس الأبرشيات بأن يبلغوا الرعايا أنه في الغد، يوم السبت، يريد الأسقف الجميع في الكاتدرائية لأنه، بعد قداس سيقيمه من أجل روح النفس المسكينة لدون أنجيل، سيلقي عظة خاصة، وأنه

يوم الأحد ستكون هناك مسيرة عظيمة، ستنطلق من الكاتدرائية لتصل إلى القصر.

في منتصف نهار يوم السبت في الكنيسة الكبيرة، لم تكن هناك قدم لشخص. احتشد جمع غفير من الناس، البعض منهم لم يتمكن من الدخول فظل واقفًا في الخارج.

وليصعد على المنبر اضطر الأسقف إلى أن يشق طريقه بين الناس الذين يقفون حتى على درجاته.

كان يعرف أنه بدأ معركة حامية مع دونًّا إليونورا، التي لا يمكن أن تنتهي إلا باختفاء، بطريقة أو بأخرى، أحدهما. وقرر أن يتحدث من دون أن يلقي أي لعنات، مستخدمًا كلمات تمس القلب.

افتتح عظته مؤكدًا أن كل ذهب الأرض لن يقنعه بألا يقول ما هو على وشك أن يقوله. خصوصًا أن تلك الكلمات، إذا أُخذت على محمل سيئ، يمكنها أن تؤدي إلى تهم خطيرة ضده، وبالتحديد تهمة التمرد على سلطة من يُمثل ملكنا المحبوب ملك إسبانيا.

إذن لماذا يتحدث؟

ليس الغرض هو التمرد على قوى أعلى، ولكن فقط من أجل أن يمنح صوتًا لضميره كراعٍ يجب عليه أن يجد سُبلًا تسمح لكل المؤمنين أن يسيروا في الطرق المقدسة. وبين تلك الطرق المقدسة، طريق لا يمكن لأحد أن يخالفه: وهو طقس دفن الموتى.

- إخوتي وأخواتي الصغار، أبنائي وبناتي، هل خطر ببالكم على الإطلاق ألا تمنحوا دفنًا مقدسًا لأي شخص عزيز عليكم؟ لأبيكم؟ لأمكم؟ بالتأكيد لم يحدث قَطُّ، أنا متأكد من ذلك

ومقتنع به. إذن من يكون ذلك الذي يرفض دفن الموتى؟ إنسان أم وحش؟ ستقولون أنتم: وحش. ولكن احترسوا، يا إخوتي وأخواتي: هناك أناس لهم هيئة آدمية ولكن مشاعر الوحوش. أولئك الأشخاص لا يمكن إلا أن يكونوا ملبوسين بالشيطان أو هم تجسيد للشيطان نفسه. وهنا في باليرمو، أقول لكم بقلب يدمي لقولي هذا، توجد امرأة إذا لم تكن شيطانًا، فهي تنتمي إلى الشيطان. هل تعرفون عمن أتحدث؟

قالت آلاف الأصوات:

- أجل.

أكمل الأسقف:

- هذه المرأة، ترفض دفن زوجها، وتحتفظ بالميت في منزلها. لماذا تفعل هذا؟ ربما، وأرتجف لمجرد الفكرة، ذلك الميت يخدمها في بعض الأعمال السحرية الشيطانية؟ والليلة السابقة، كما تعرفون جميعكم، روح الميت المسكينة أخذت تسير وتسير وهي تئن وتطلب المساعدة، لأن زوجته لا تمنحه السلام الذي يستحقه.

قال صوت حاد جدًّا، شبه هستيري:

- ملعونة هذه المرأة.

رددت جوقة من مئات الأصوات:

- ملعونة! ملعونة!

استمر الأسقف:

- وهل تريدون معرفة أمر آخر؟ صباح الأمس جرؤت على طرد القس الذي أراد أن يصلي على الميت ليريحه بعض الشيء!

بدأت همهمات طويلة من الصدمة والاستياء.

عندئذٍ، بمجرد أن سقطت امرأة واحدة على الأرض، وهي تزبد من فمها، حتى تبعها العشرات على الفور. ركع البعض وأخذوا يضربون صدورهم بأيديهم، وآخرون أخذوا يقطعون شعورهم، والبعض تلوَّوا على الأرض وأعينهم تزوغ لأعلى...

بكل قوة في رئتيه، أعلن الأسقف أن المسيرة المهيبة ستنطلق من الكاتدرائية في التاسعة من صباح اليوم التالي، ثم نزل من على المنبر.

كان راضيًا عما استطاع إنجازه.

ونظرًا إلى أن مضمون عظة الأسقف لم يتأخر في الوصول إلى البلاط، طلب الملازم راميرز، تحسبًا لما يمكن حدوثه، أن يزيد عدد الجنود القائمين على الحراسة الخارجية إلى ثلاثة أضعاف في صباح اليوم التالي، وهذا ما حدث.

ولكن الأسقف عقد أيضًا اجتماعًا طويلًا مع ميتساتيستا، وأربعة من القسوس المقربين، حددوا فيه كل تفاصيل المسيرة وما سوف يليها.

وفي أول الظهيرة أتى دون سيرافينو مسرعًا، قلقًا إلى دونًّا إليونورا ليحذرها من التوتر الشديد الناتج في المدينة عن مسألة عدم دفن زوجها، والشبح المزعوم في القصر. ونظرًا إلى أنه لم يكن يعلم أي شيء مما حدث، حيث لم يذهب إلى القصر منذ الثلاثاء السابق، جعلها تحكي له كل شيء. بعدها مكث في صمت قليلًا ثم سأل دونًّا إليونورا عن مفتاح غرفة النعش. أعطته له المركيزة من دون أن تطرح أي سؤال.

ذهب طبيب البلاط ليتحدث مع رئيس المراسم.

– أريد أن أسألك عن أحداث الليلة السابقة.

- عندما رأيت الشبح؟
- لا يهمني الشبح.
- إذن ماذا تريد أن تعرف؟
- من أين أتى الأنين؟
- بالتأكيد من الحجرة التي يوجد بها نعش نائب الملك.
- هل صحيح أن الملازم سأل من يئن إذا كان بحاجة إلى مساعدة؟
- بالتأكيد، والشخص قال نعم. سمعته أنا أيضًا بأذنَيَّ. وأتى الصوت من الداخل.
- قيل لي إن للحجرة بابًا آخر.
- هذا صحيح.
- ومن معه المفتاح؟
- لا أعرف.

شكر الطبيب رئيس المراسم، وذهب ليفتح باب الحجرة حيث النعش وأغلقه خلفه.

لم يكن دون سيرافينو يؤمن بوجود الأشباح. تُصدر الشمعات الأربع ضوءًا كافيًا، أخذ ينظر حوله.

لاحظ أنه في الجدار الأيمن يوجد تجويف عميق، على جانبيه نُحت ما يشبه عمودين يحملان قنطرة. لا بد أن تلك الحجرة في الماضي كانت كنيسة صغيرة.

اقترب من الباب الخلفي، كان كبيرًا وقديمًا، وفحصه طويلًا، وتوقف كثيرًا عند القفل.

بدأ يكوِّن فكرة ما، ولكنه يحتاج إلى طرح بعض الأسئلة.

الفصل الثاني عشر
مسيرات، مصادمات، أجساد تتكلم، أشباح، وأشياء أخرى

ذهب دون سيرافينو إلى الكنيسة الصغيرة في الطابق الأرضي. وجد الباب مواربًا. دفعه وفتحه ودخل. لم يكن أحد في الداخل. ذهب إلى غرفة المقدسات، ولم يكن بها أحد أيضًا.

في طريقه إلى الخارج، وهو ينوي العودة في وقت لاحق، سمع أصواتًا من باب صغير يؤدي إلى سكن قس الكنيسة الخاص.

ذهب إلى هناك ووجد أمامه دون أشولّا الذي كان يضع بعض الملابس داخل صرة. يعرفه دون سيرافينو منذ أعوام ويقدره. بدا له دائمًا شخصًا لا يتدخل فيما لا يعنيه، متحفظًا، حريصًا على أداء عمله كقس فحسب. تبادلا التحية بلطف.

بدأ دون سيرافينو:

- عرفت أنك استُبدِلت.

- بالفعل. بعد عشرين عامًا هنا. لقد شهدت بعض نواب الملك! ولم يحدث قَطُّ أن... لا يهم.

- يؤسفني هذا. ولكن لماذا استبدلوك؟
رفع الأب أشولًا ذراعيه قائلًا:
- لم يرَ نيافة الأسقف أنني أستحق أي تفسير. ولا يمكنني سوى الطاعة. لتكن إرادة الرب. عثرت عليَّ هنا بالمصادفة، لقد أتيت لآخذ بعض متعلقاتي.
- وأين القس الجديد؟
- في الأسقفية مع الأسقف. فهو ونيافته، بكل احترام، مثل المؤخرة ولباسها. فهما يُعدان المسيرات الحاشدة. ولكنني أتساءل وأقول: ما الضرر إذا أرادت تلك الأرملة المسيحية المسكينة أن تدفن زوجها في إسبانيا؟ لقد صليت عليه أنا صلاة تقديس الميت، ومنحته البركة. ومن ثَمَّ، إذا نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر الكنيسة، فكل شيء على ما يرام.
- هل تعرف متى يعود بديلك؟
- كيف لي أن أعرف؟ لا أعتقد أنه سيعود قبل الغد بعد الغداء.
- ساعدني في شيء. حضرتك لا بد أن تعرفه نظرًا إلى أنك في البلاط منذ عشرين عامًا. الحجرة في السكن الخاص التي بها نعش دون أنجيل، فيمَ كانت تُستخدم؟
- كانت الكنيسة الصغيرة. ثم، قبل أن آتي بعام، انتهوا من بناء هذه الكنيسة، الأكبر حجمًا، ونقلوا إليها الأشياء التي كانت بها، وأصبحت تلك مجرد حجرة عادية مثل أي حجرة.
- كم بابًا يوجد في الكنيسة القديمة؟

- بابان منذ الأزل. نائب الملك وعائلته يدخلون من الباب الموجود في السكن الخاص، والآخرون جميعًا، ومعهم القس، يستخدمون الباب الآخر، وذلك الذي يطل على المصطبة، ومن وقتها أصبح مغلقًا.

- وهل تعرف حضرتك أين يوجد مفتاح الباب الثاني.

- بالتأكيد. موجود هنا.

توجَّه نحو قطعة أثاث، الجزء الأعلى منها مكون من مجموعة كبيرة من الأدراج الصغيرة، فتح أحدها، وأخرج مفتاحًا كبيرًا مربوطًا بخيط، معلقة به قطعة من الورق مكتوب عليها:

مفتاح الكنيسة القديمة.

- هل يمكنني استعارته؟ سأعيده على الفور.

- حسنًا، ولكن بسرعة، لأنني على وشك الرحيل.

ذهب إلى أعلى إلى الطابق الثاني، وتوقف أمام الباب، أدخل المفتاح، أداره، ولكنه لم يتحرك. تعطل القفل. حاول مرة أخرى وأداره بقوة أكبر، بلا فائدة.

يوجد احتمالان: إما أن القفل صدئ تمامًا، وإما أنه ليس المفتاح الصحيح.

ولكن يمكن أن يكون...

أخرج قميصه، وأمسك بطرفه، ولفه ليصبح رفيعًا جدًّا، ووقف على أصابع قدميه، ووضعه داخل فتحة المفتاح وهو يدفعه إلى الداخل على قدر الإمكان.

أخرجه مبقعًا. ليس بالصدأ ولكن بالزيت.

نزل من جديد وسلَّم المفتاح إلى القس. ثم سأله أسئلة منطقية كان لا بد أن يسألها.

- ما اسم القس الذي حل محلك؟

- دون شيبيونه ميتساتيستا.

- هل يعرف قصة الكنيسة القديمة؟

- أجل، قال لي إن نيافة الأسقف حكى له عنها. بل عندما وصل إلى هنا، أراد أن يعرف مكان المفتاح.

- وجربه؟

- لا أعرف. لماذا سيجربه؟ أراد رؤيته فحسب.

عندئذٍ خرج دون سيرافينو من الكنيسة الصغيرة راضيًا.

كان متأكدًا من أن تخمينه صائب. وأراد أن يذهب ليقص ما حدث على الفور لدونًّا إليونورا. قال لها، وشرح ما يفكر في عمله، ومنحته المركيزة الحرية ليفعل ما يراه مناسبًا.

أمام الكاتدرائية اجتمع نحو ألفَي شخص، وفي الداخل نحو ألف أو أكثر. بذل قسوس الأبرشيات كل جهودهم، هددوا بالحرمان الكنسي والأمراض والعقوبات الإلهية. وكل واحد من أولئك الأشخاص استطاع من خلال الصراخ، والوعيد، والتكفير واللعنات الموجهة لنائب الملك، أن يتسبب في ضوضاء ثلاثة أضعاف قدراته.

وقف نحو ثلاثين قسيسًا، موزعين بشكل متناسق سواء في الخارج أم في الداخل، أخذوا يوزعون صلبانًا بأحجام مختلفة ومئات

الجماجم من الورق المقوى، المكتوب على جبهتها «ادفنوني» التي سيتم رفعها على قمة الرماح.

تقدم رهبان وراهبات، أتوا من كل أديرة باليرمو، المسيرة وهم يتلون صلوات المسبحة.

خلفهم سار مائة قس يصلون صلوات من أجل نفوس الموتى.

على الفور بعد ذلك، ظهرت مظلة الأسقف يحملها أربعة قسوس. ومن النوافذ والشرفات يلقي الناس عليهم وردًا وزهورًا. أسفل المظلة يسير، ببطء شديد، الأسقف الذي يرتدي رداءه الذهبي، ويرفع أمامه بكلتا يديه، الحُق الذهبي، وبداخله القربان المقدس.

خلفه، صف من مائة قس يتلون طقس الصلاة على الموتى.

ثم ثلاثة آلاف شخص، من الرجال والنساء، يصيحون وهم يحركون في الهواء الصلبان والجماجم، يحثهم ويحفزهم باستمرار ما يقرب من ثلاثين قسًّا مندسين بينهم.

«اصرخوا بقوة أكبر! ألا يوجد هواء في رئاتكم؟ ارفعوا الصلبان والجماجم أعلى. أليست لديكم قوى في أذرعتكم؟».

عندما وصلت المسيرة إلى الميدان الكبير أمام البلاط، لاحظ الجميع وجود ثلاثة أضعاف عدد الجنود يحيطون بالمكان لحمايته.

لذلك توقف الرهبان والراهبات الذين يتقدمون المسيرة بالقرب من البلاط، وبدأوا في تلاوة صلاة المسبحة بأعلى الأصوات حتى تُسمع التلاوة داخل القصر.

ثم بعد مدة وجيزة، فتحوا ممرًّا بحيث يتقدم من يحملون الصلبان والجماجم إلى الصف الأول ويبدأون في الإنشاد بأعلى صوت.

نشيد تدربوا عليه وهم داخل الكاتدرائية.

تقول مجموعة منهم:

ارحلي عن باليرمو، أيتها المرأة الملعونة!

ارحلي بمفردك كما أتيتِ!

ثم تُكمل مجموعة أخرى:

ادفني الميت في أرض مقدسة،

أيتها المرأة التعيسة، أيتها المرأة الشريرة!

ثم تجتمع الأصوات كلها:

يا امرأة، ادفني الميت

ثم اذهبي إلى الجحيم!

ثم بعد أن يكرروا هذا النشيد ثلاث مرات، ينسحبون، ثم يتقدم ببطء الأسقف ليقف حيث كانوا، بلا مظلة ولكن حاملًا القربان المقدس.

يركع كل الحاضرين. يتلو الأسقف صلاة لا تنتهي، وبعدها يرشم علامة الصليب ثلاث مرات في الهواء بالقربان المقدس.

تنتهي المسيرة، وبعد أن يمنح الأسقف البركة للحضور يعود إلى الكاتدرائية، ولكن يصحبه فقط القسوس الأربعة الذين يحملون المظلة.

ولكن لا ينتهي الأمر بهذه الطريقة.

مكث الرهبان والراهبات وقسوس الأبرشيات والثلاثة آلاف شخص في الميدان، حيث أقاموا أربعة مذابح مؤقتة. وهناك، أُقيمت قُدَّاسات مستمرة من أجل خلاص نفس دون أنجيل، حتى الغروب.

ولكن أجمل جزء كان، عندما ذهب نصف باليرمو، بعد الغداء، ليروا ما يحدث أمام البلاط، وبعد قليل لم يعد هناك مكان ولا حتى لسردينة مملحة. بل قامت بعض المشاحنات بين من توافدوا على المكان، حيث بعضهم في صف الأسقف، ولكن البعض الآخر يدعم حق دونًا إليونورا في أن تدفن زوجها في الوقت والمكان اللذين تريدهما.

بعد غروب الشمس، والانتهاء من القُدَّاسات، عاد الأسقف إلى الميدان ليبدأ الجزء الثاني من الاحتجاج الكبير على عدم دفن نائب الملك، وهو عبارة عن تلاوة صلوات التُّساعية الليلية، على ضوء الشعلات، التي يجب أن تستمر بلا انقطاع حتى الخامسة صباحًا.

وقبل منتصف الليل بقليل، اقترب الأب شيبيونه ميتساتيستا الذي مكث طوال الوقت وسط المؤمنين لحثهم، اقترب من الأسقف، وتحدث معه بصوت منخفض، حيَّاه ثم عاد إلى البلاط من خلال الباب الثاني الأقرب إلى كنيسة البلاط.

على الرغم من الصخب الشديد في الخارج، كان كل شيء هادئًا في الداخل.

التطور الجديد الوحيد هو أن جنود الحراسة للطابقين الأول والثاني صُرفوا قبل موعدهم وحل محلهم جنود آخرون اختارهم الملازم راميرز بنفسه.

ولكن على الرغم من ذلك، بعد منتصف الليل، شعروا بالنعاس وناموا.

وهكذا استطاع الشبح، الذي ظهر في الطابق الأرضي، أن يصعد

السلالم من دون أن يراه أحد، ويصل إلى نافذة الطابق الأول المفتوحة. أطل منها وهو يهز ذراعيه في الهواء كمن يطلب المساعدة بإلحاح.

ونظرًا إلى أنه توجد شعلة أسفل تلك النافذة تمامًا، استطاع عدد من الناس أن يلمحوه وبدأوا في الصراخ:

- الشبح!

وانتشر الخبر، من فم إلى فم:

- الشبح!

عندئذٍ صرخ الأسقف:

- هل ترونه؟ إنها الروح الهائمة لدون أنجيل! إنها تلك المرأة الشيطانة التي حوَّلته إلى هذه الحال!

وسقط الجميع على ركبهم.

وفي ذلك الوقت انسحب الشبح، وصعد إلى الطابق الثاني ووقف أمام باب الكنيسة السابقة.

فتحه من دون أن يتسبب في أي ضوضاء، ودخل، وعلى الفور اشتم رائحة الميت في الغرفة - على الرغم من أن طبيب البلاط وبعده صانع النعش، قاما بعمل رائع - ولكن ذلك لم يستطع حتى أن يغلق الباب خلفه، لأنه فجأة من داخل النعش جاء صوت عميق، بشع، مُرعب.

- من أنت حتى تزعج موتي الأبدي؟

صرخ الشبح فزعًا حتى الموت:

- آهههههههه.

والتفت ليهرب خارج الغرفة.

نهض جندي الحراسة، الذي تبعًا للأوامر تظاهر بالنوم، ودخل فجأة وحاول القبض عليه، ولكن الشبح هرب وبدأ ينزل السلالم جريًا. إلا أنه عند الدرجة الرابعة تعرقل وتدحرج حتى الطابق الأسفل.

نهض، وحرر نفسه من الملاءة التي تغطيه، واتجه وهو يعرج نحو الباب الثاني بينما يطارده الجنود ودون سيرافينو الذي كان ينتظره منذ ساعة خلف نعش دون أنجيل حتى يتمكن من أن يمزح معه تلك المزحة الخبيثة.

أدرك الأب شيبيونه ميتساتيستا أنه إذا استطاع الوصول إلى الأسقف فربما تجنب القبض عليه. بمجرد أن ظهر في الميدان وهو يجري، أخذ يصرخ.

- أنا الأب ميتساتيستا! النجدة! ساعدوني! إنهم يقبضون عليَّ.

عندئذٍ لحق به الجنود وأمسكوه، حملوه وأخذوه إلى الداخل. حيث ينتظره دون سيرافينو ومعه الملازم راميرز.

قال له دون سيرافينو:

- يا لخبثك! أخذت المفتاح من درجه، وبدلته بآخر يشبهه، بل وأضفت أيضًا البطاقة التعريفية. ولكن سارت الأمور بشكل سيئ في كل الأحوال.

قال الأب شيبيونه بعد أن هدأ فجأة:

- أرغب في التحدث مع كبير قادة العدالة.

- لماذا؟

- أريد أن أخبره بأنني فعلت كل ذلك طاعةً لأمر صاحب السمو الأسقف. وأتمنى أن يأخذ هذا في الحسبان.

أنهى راميرز الحديث ليوضح الأمور:

- من واجبي أن أخبرك بأنك مقبوض عليك.

في أثناء ذلك في الخارج، قُطعت تلاوة التُّساعية.

بين ظهور الشبح وخبر القبض على الأب ميتساتيستا، اشتعل شيء كالفتيل وبدأت نيرانه تنتشر بين هذا الحشد من الناس حتى انفجر في غضب واهتياج.

أخذ الجميع يرتعشون في رغبة لا تقاوم للتنفيس، منتظرين قرار الأسقف المحاط ببعض القسوس، ويقف جانبًا.

شعر تورُّو ميندوزا بالقلق الشديد، لأنه نظرًا إلى علاقته الوثيقة بالأب ميتساتيستا، يعرف أنه لا يمكن الوثوق به، فهذا إن عاجلًا أو آجلًا سيعترف بكل شيء، ويكشف أن فكرة الشبح المزيف لم تكن فكرته. ولن يتردد في أن يعلن عن اسمه على أنه المسؤول الوحيد لتلك الخطة. لذلك لا بد من إطلاق سراحه في أقرب فرصة ممكنة.

لم يكن يعرف أن الأب ميتساتيستا قد حاول بالفعل البحث عن عقوبة مخففة، وأي محاولة الآن لكيلا يتحدث لم تكن لها فائدة.

عندئذٍ قال الأسقف للقسوس أن يزيدوا إلى أقصى حد يستطيعونه يأس وهستيريا المؤمنين، ثم يرسلوهم لمهاجمة الجنود الذين يعملون على حماية البلاط.

قال أحد القسوس:

- ولكن أولئك سيقتلوننا بكل سهولة. فليست لدينا أي أسلحة!

أجابه الأسقف بقسوة:

- سلاحنا هو إيماننا!

أجاب القس نفسه:

- حسنًا، ولكن بالإيمان يمكننا فقط الموت، وليس أن نحطم رأس أي جندي.

- إذن لتأمروا أن يتسلح الجميع بحجر أو خشب، أو قضبان حديدية، أي شيء يمكن الإمساك به. اكسروا أفرع الأشجار الموجودة في الميدان واصنعوا منها عِصيًّا.

وفكر الأسقف بينه وبين نفسه: «وربما حالفنا الحظ وسقط أحدهم ميتًا».

وبهذه الطريقة تحول غضب المؤمنين إلى أمر لا يمكن إيقافه، وخمن الجميع كيف سينتهي الأمر.

وما إن رأى القائد فيلَّاسيفاليوس، الذي يقود قوات الجنود الخارجية المتضاعفة ثلاث مرات، الناس يتسلحون بالحجارة والعصي، حتى أدرك أن الأمور بدأت تتخذ منحى شديد السوء. لم يعد الأمر يتعلق بأصوات وصلوات، ولكن بعنف، وعنف شديد. عندئذٍ أرسل ملازمًا للتحدث مع دونًّا إليونورا ليعرف منها كيف يجب التصرف.

تلقى منها أمرًا محددًا. تريد المركيزة ألا تقع أي خسائر في الأرواح وألا يسقط جرحى، بأي ثمن بين الناس، في حالة الهجوم على البلاط. يمكن بالفعل للجنود استخدام سيوفهم، ولكن فقط من الناحية العريضة، وليس من الطرف ولا النصل.

فجأة اندفع نحو خمسمائة شخص ضد الجنود وهم يصرخون

بغضب: «اتركوا ميتساتيستا! تدنيس! أخرِجوا الشيطان من باليرمو!».

صُدت الهجمة الأولى. أُخذ نحو خمسة أو ستة جنود إلى الداخل برؤوسهم المشجوجة بفعل ضربة عصا أو حجر.

مر نصف ساعة بين الهجوم الأول والهجوم الثاني. تولى القيادة دون فالنتينو بوليا، الذي قبل أن يصبح قسًّا كان جنديًّا وكان موضع ثقة الأسقف، ونظم جيدًا الحشد المكون من ثلاثمائة شخص، الغاضبين الذين فقدوا صوابهم ولا يرغبون فقط في دفن دون أنجيل وتحرير الأب ميتساتيستا، ولكن أيضًا في طرد دونًّا إليونورا من باليرمو.

في الوقت نفسه وصلت مئات المذاري والهراوات والسيوف من المنازل المجاورة، ووزعت على الرجال الذين بدوا الأكثر حماسًا.

الهجمة الثانية كانت أعنف من الأولى. استطاع الجنود بالكاد أن يدفعوا المهاجمين إلى الخلف، ولكن فقط بعد صدامات طويلة، التي كانت أحيانًا جامحة للغاية حتى إن الجنود فقدوا مجموعة أخرى من الرجال الذين أصيبوا بجروح شديدة.

من الواضح أنه في حالة هجمة ثالثة، وإذا لم يتمكنوا من استخدام أسلحتهم، سيستسلم الجنود. حبس القائد فيلّاسيفاليوس أنفاسه مع كل دقيقة تمر، إذ إنه أرسل في طلب قوات دعم للطوارئ، ويخشى ألا تصل في الوقت المناسب.

ولكن تضاءلت مع الوقت احتمالات ألا يكون هناك جرحى بين المهاجمين. لم يكن مستبعدًا أن يضطر أحد الجنود، لو وجد

نفسه في وضع خطير، إلى أن يستخدم سيفه ليس كالعصا، ولكن كسيف فعلي.

عندئذٍ، عندما رأى دون سيرافينو أن الوضع أصبح خطيرًا، حاول أن يقنع دونَّا إليونورا بأن تترك البلاط وأن تذهب، مؤقتًا، لتمكث في ثكنة الجنود، أو على متن إحدى السفن الحربية الراسية في الميناء، ولكنها لم تستمع لصوت العقل، ولم تكن هناك وسيلة لحثها على تغيير رأيها.

وفي الوقت الذي يعطي دون فالنتينو بوليا فيه الأوامر للهجوم من جديد، وفي هذه المرة بحشد من ألفَي شخص، مُسلحين جميعهم بأدوات قاتلة، حدث أمر لا يتوقعه أي شخص في العالم.

وصل إلى الميدان بسرعة شديدة ثلاثمائة شخص، جميعهم شباب وأقوياء. وأخذوا يصيحون بكل نفس في صدورهم: «تعيش دونَّا إليونورا! دونَّا إليونورا تخصنا!».

كانوا أعضاء طائفة عمَّال التحميل في الميناء الذين بدأوا في لكم وركل المؤمنين. ومع كل ركلة يفقد أحد المؤمنين الوعي.

بعدها هرول أيضًا إلى الميدان نحو خمسمائة شخص ينتمون إلى حرف مختلفة، الذين استيقظوا في منتصف الليل ليأتوا لمساعدة دونَّا إليونورا.

عندئذٍ أمر فيلَّاسيفاليوس بالهجوم المضاد.

وبهذا وجد المؤمنون أنفسهم مهددين من الأمام ومن الخلف.

كان الأسقف أول من هرب.

وبمجرد أن اختفى، اندلعت الفوضى العامة.

بعد نصف ساعة، لم يعد هناك أي شخص في الميدان، لأن الحرفيين عادوا إلى منازلهم، في محاولة للعودة إلى النوم مرة أخرى، وعاد الجنود ليقفوا حول أسوار القصر.

في اليوم التالي، بعد الغداء مباشرة، طلب دون فيليبو أركاديبانه التحدث مع دونًّا إليونورا ليخبرها بأنه سيذهب في أقرب فرصة ليستجوب رسميًّا الأب شيبيونه ميتساتيستا.

نظرًا إلى أن الأخير اعترف بالفعل في الليلة السابقة، أمام طبيب البلاط والملازم راميرز، بأن فكرة الشبح المزيف من تدبير الأسقف ورغبته ليضعها في مأزق، يمكن أيضًا في أثناء التحقيق ألا يكتفي بتكرار الاعتراف، ولكن ربما يضيف إليه اتهامات الأسقف بأفعال أكثر خطورة، التي تتضمن حث الشعب على ثورة ضد الشخص الذي لا يُمثل السلطة المطلقة فقط، بل يُمثل أيضًا جلالة الملك.

في الماضي، كل من فعل أمرًا من هذا القبيل، قُبض عليه وحُكم عليه بالموت.

ونتيجة لهذا، وحيث إن القانون يؤيده، وبوصفه كبير قادة العدالة، فأول شيء لا بد من القيام به هو إلقاء الأسقف في السجن.

ولكن هذا سيتسبب بالتأكيد في رد فعل خطير في المدينة، حيث تبدو الأوضاع هادئة فقط في الظاهر، ولكن كل شيء يشتعل تحت الرماد.

ولذلك أراد معرفة كيف يجب أن يتصرف.

ردت دونًّا إليونورا بأن عليه أن ينتظر عندما يحقق مع الأب

ميتساتيستا بعد الغداء في اليوم التالي، يوم الثلاثاء، لأنه في الصباح ستكون لديه جلسة المجلس المقدس. فهو قرار لا بد من التفكير فيه مليًّا ومناقشته مع الجميع.

في منتصف الظهيرة، بدأ الأب ميتساتيستا، الذي حتى تلك اللحظة مكث هادئًا في حجرة الحارس، بدأ في الصياح بأنه يرغب في قس لأنه يريد الاعتراف، والتناول في صباح اليوم التالي.

لم يعرف الملازم راميرز، عندما أخبره بذلك أحد الجنود، إذا كان عليه قبول طلب المسجون أم لا.

عندئذٍ تحدث في الأمر مع رئيس المراسم الذي ذهب بدوره ليخبر دونًّا إليونورا.

وافقت على الطلب، ولكنها أوصت الجنود بأن يراقبوه كل لحظة.

الفصل الثالث عشر
دونًا إليونورا وقوانينها

بعدها بساعة، قدم دون فالنتينو بوليا، القس الذي اختاره الأسقف بنفسه وتلقى منه تعليمات مُفصلة سرية عن كيفية التعامل مع المسجون، إلى حارس البلاط.

كان الأسقف واثقًا بأن ميتساتيستا سيطلب منه ثمن صمته. ولم يكن مخطئًا.

استمر لقاء الأب ميتساتيستا مع دون بوليا تقريبًا أكثر من ساعتين، وبدا للحراس الذين يقفون خلف الباب، من الأصوات الغاضبة التي تصيح، أن ما يحدث بالتأكيد ليس اعترافًا بل شجار.

عندما خرج، قال دون بوليا لقائد الحراس إنه سيعود في اليوم التالي في الساعة السادسة صباحًا، ليتمكن من إقامة القداس في الكنيسة الصغيرة. لذلك لا بد من إحضار المتهم بعد السادسة بقليل، لأنه يريد التناول من الأسرار المقدسة.

أسرع بعدها دون بوليا لينقل للأسقف ما يريده الأب ميتساتيستا في مقابل عدم تأكيد اعترافه الذي أدلى به لدون سيرافينو والملازم

راميرز لكبير قادة العدالة. وأنه مستعد ليقسم بأن تلك الكلمات قالها في لحظة غضب، وأن فكرة الشبح المزيف كانت فكرته، وأن الأسقف ليس فقط لم يتدخل في الأمر بل إنه لم يعرف عنه أي شيء، بشرط...

قال الأسقف:

- الخلاصة، ميتساتيستا يريدني أن أضمن له أن يحكموا عليه بأخف عقوبة، وأن أدفع له خمسة آلاف سكودو على الفور، وبعدها، بعد أن يقضي مدته، يريد أن يُعين قسًّا في أبرشية القلب المقدس، الأكثر ثراءً في المدينة، التي تدخلها أغنى التبرعات. أليس كذلك؟

قال دون بوليا:

- بلى هو كذلك.

- إذن، لتخبره بأنني لا يمكنني الموافقة على مطلبين من مطالبه الثلاثة. لا بد أن يكتفي فقط بالخمسة آلاف سكودو. قُل له هذا قبل أن تعطيه التناول.

- وإذا لم يوافق؟

خفض الأسقف رأسه مُفكرًا. ثم رفعه. وقبل أن يتحدث، نظر إلى عينَي دون بوليا طويلًا الذي فهم كل شيء من ذلك الحوار الصامت.

- إذا لم يوافق، أعطِه التناول.

عندما وصل دون بوليا إلى الكنيسة الصغيرة، كانت الساعة السادسة صباحًا. أعد القس كل شيء للقداس، ووضع قربانة واحدة، أحضرها معه داخل الكأس، وأغلق بيت القربان.

بعدها بقليل وصل الأب ميتساتيستا بين جنديين.
قال لدون بوليا:
- هذه الليلة ارتكبت خطيئة بالفكر، وأرغب في الاعتراف.
قال القس:
- حسنًا.
وذهب ليجلس في كرسي الاعتراف.
وذهب الأب ميتساتيستا ليركع.
أخرج دون بوليا رأسه من ركن الاعتراف، وترجى الجنديين الابتعاد حتى نهاية الكنيسة.
بعدها بقليل سمع الجنديان الأصوات الغاضبة للاثنين. فاقتربا، ولكنهما لم يصلا في الوقت المناسب، لأن الأب ميتساتيستا نهض في فورة غضب واتجه نحو دون بوليا، وبدأ يركله، والذي رد عليه بلكمة قوية أرسلت برأس الأب ميتساتيستا ليصطدم بالركن الخشبي لكرسي الاعتراف.
بعدها بلحظة سقط الأب ميتساتيستا على الأرض وهو يزبد، وفقد الوعي.
عندما أفاق، بدا رجلًا مختلفًا. طلب من دون بوليا أن يغفر له، واعترف مرة أخرى، صلى بينما يستمع إلى القداس، ونهض ليتناول من الأسرار المقدسة وعاد إلى مكانه.
عندما انتهى القداس، عاد إلى زنزانته من دون أن يثير قلاقل، قال فقط للجنود إنه يشعر بألم شديد في رأسه من جراء الخبطة.
بعدها بنصف ساعة نظر جندي من ثقب التلصص ووجده منطرحًا

على الأرض. فتح الباب، ودخل ولمسه، ولكن لم يكن هناك ما يمكن عمله. مات الأب شيبيونه ميتساتيستا.

قال الجنديان اللذان شهدا على المشهد في الكنيسة الصغيرة لدون سيرافينو إنهما واثقان بأنه مات من تأثير إصابة رأسه.

ولكن إصابة الرأس - ودون سيرافينو يعرف ذلك تمام المعرفة لأنه طبيب ماهر - لا تسبب تورمًا في كل الجسم، ولا تسبب زرقة في شفتَي الضحية.

تلك علامات واضحة على التسمم.

لا بد أن السم قد أُعطي له خلال المناولة، عن طريق القربان المقدس.

وحتى هو، الذي لم يكن يؤمن بأي شيء، شعر باضطراب شديد من جراء هذا.

إلا أن دونَّا إليونورا، عندما ذهب إلى المكتب ليطلعها على النتائج التي وصل إليها، ظلت باردة للغاية. لم يهدأ دون سيرافينو.

- اعذريني يا سيدتي، ربما لم أشرح جيدًا. قام الأسقف...

قاطعته دونَّا إليونورا بأن رفعت يدها:

- عزيزي دون سيرافينو، لقد قضيت شبابي كله في الدير ولم أعرف سوى رجل واحد، زوجي، ولكنني أعرف كيف أُقيم الرجال بالغريزة. وحتى الآن لم أخطئ مرة واحدة. منذ أول لحظة عددتُ تورُّو ميندوزا رجلًا قادرًا على ارتكاب أشياء بشعة وجرائم، ولذلك لا أشعر بالدهشة من قصتك.

- سيدتي، أتمنى أن تدركي أنك أمام عدو لن يتردد في اللجوء إلى...

مرة أخرى رفعت دونَّا إليونورا يدها:

- أعرف. وأفكر في كيفية الدفاع عن نفسي.

- ولكن لا يمكننا إضاعة الوقت! لماذا لم يستدعِه المفتش العام حتى الآن؟

- لقد قررت أنا ذلك.

- ولكن لماذا؟

- لأن تورُّو ميندوزا ذو ثراء فاحش، ويمكنه أن يدفع ثلاثة أضعاف ما هو مدين به بلا أي مشكلات. سيصبح فقط أقل ثراء، قليلًا، مما كان، ولكن من دون أن يفقد أي قدرة، بل وسيزداد عطشه للانتقام. لا، هذا الرجل مثل الثعبان، لا بد من تحطيم رأسه.

انتهت من التحدث، ثم نظرت نظرة طويلة إلى دون سيرافينو. فقَدَ طبيب البلاط ثقله فجأة، وأصبح خفيفًا كالورقة، وأخذ يطير في الهواء.

قالت دونَّا إليونورا بصوتها الملائكي:

- لا تقلق عليَّ يا صديقي.

أفلتت الكلمات من دون سيرافينو:

- لا يمكنني سوى هذا، لأنني، أتعرفين، أحـ...

توجهت إصبع دونَّا إليونورا رائعة الجمال، الرفيعة، المتناسقة، الرقيقة، الوردية نحو فمه، ووضعت طرفها فوق شفتيه، ثم أمرته بصوت ناعم:

- لتصمت! لا ترتكب خطأ التحدث. الآن اذهب، أحتاج إلى أن أعد للمجلس الملكي المقدس. آه، من فضلك، تعالَ إلى العشاء هذا المساء. وأخيرًا، هل يمكنك مقابلة دون أشولًّا وتقول له إنني أرغب في رؤيته اليوم بعد الظهر في الساعة الرابعة؟

بدأ المجلس الملكي المقدس في موعده تمامًا. وطوال مدة انعقاده تحدثت دونًّا إليونورا فقط.

في البداية، أخبرت كبير قادة العدالة بالموت المفاجئ للأب شيبيونه ميتساتيستا، وأنه من ثَمَّ لن يستطيع التحقيق معه، وهذا عمليًّا يمنع أي إمكانية لاتخاذ إجراء ضد الأسقف.

ولم تعلق بكلمة واحدة حول الأحداث التي وقعت يوم الأحد والليلة التي تلت ذلك.

من ناحية أخرى، قالت إنها تقترح قانونًا مهمًّا جدًّا، إذا تمت الموافقة عليه فسيبدأ العمل به على الفور في الغد. نظرًا إلى أن رئيس الخزانة ومعه رئيس الإدارة أخبراها عن الزيادة الضخمة للدخل القومي التي حدثت مؤخرًا وتلك المتوقعة بسبب الضرائب، خصوصًا بعد المصادرات ونزع الأملاك التي حدثت للمستشارين السابقين، فقد قررت أن تلغي الضرائب المفروضة على الدقيق المستخدم في صناعة الخبز.

إذا قُبِل مشروع القانون المُقدم، فهذا يعني أنه بداية من هذا اليوم في صقلية كلها، سيهبط سعر الخبز إلى نصف ثمنه. وهذا سيصب في مصلحة عائلات متعددة ومئات من الفقراء لا يكفيهم ما يحصلون عليه

لشراء الخبز. وعلى الكاتاباني – أي المعينين ليراقبوا الأسواق – أن يشرفوا على تطبيق الأفران للأسعار المخفضة.

هل يوافق المستشارون؟

تحمس المستشارون جميعهم.

عندئذٍ قالت دونًا إليونورا لموثِّق البلاط والسكرتير أن يكتبا القانون على الفور وستوقعه هي، بحيث يبدأ المنادون من صباح الغد بإعلانه للجميع.

بعدها على الفور قالت إنها تنوي أن تفتتح مؤسستَي حماية مخصصتين لاستضافة كل نساء باليرمو اللاتي يجدن أنفسهن في ظروف مُذلة.

الأولى ستكون في مقر المؤسسة السابقة للسبيداليتُّو، وهو المكان الذي اعتنى في السابق بالمرضى الفقراء ومغلق منذ ثلاثة أعوام. سيستقبل حاليًّا العذارى المعرضات للخطر، أي «الشابات المعوزات اللاتي يعانين الفقر وفقد الوالدين، ويسرن في الليل في أنحاء المدينة وينمن في الشوارع العامة». وقبل أن يُسمح لهن بالدخول إلى مؤسسة الحماية، سيخضعن لفحص القابلة سيدونيا بونيفاتشو للتأكد من عذريتهن، وأنهن لم يتعرضن لأي أذى في أي جزء من أجسادهن. ولكن المؤسسة ستقبل أيضًا العذارى اللاتي تعرضن للانتهاك، أي اللاتي عانين هجومًا على أي جزء من أجسادهن ضد إرادتهن.

مؤسسة الحماية الثانية، وستُدعى «المادلينات التائبات»، ستقع محل دير بنات العذراء، وتستضيف بائعات الهوى أو من أُلقين خارج

المواخير، لأنهن تقدمن في السن ولا يجدن زبائن، وعادة يمتن في الشوارع من الجوع والعوز.

ستعتمد المؤسستان على خزانة المملكة فقط لنصف مصاريفهما، بينما النصف الآخر سيُدفع من العشرين ألف سكودو، التي ستخصم من الهدية الممنوحة من صقلية لكل نائب ملك جديد، التي تُقدر بخمسة وعشرين ألف سكودو، نظرًا إلى أن دون أنجيل لم يصرف منها أي شيء. وبالنسبة إلى مصروفاتها الشخصية، قالت دونًّا إليونورا إن مرتبها الشخصي يكفيها.

والخمسة آلاف سكودو الباقية من الهدية، ستُقسم مائة جزء، كلٌّ منها خمسون، وستُستخدم في تكوين دعم مخصص لتجهيز مائة فتاة للزواج، فتيات غير يتيمات، ولكن ينتمين إلى عائلات فقيرة. وهذه الهبة سيُطلق عليها «المهر الملكي».

دُهش المستشارون، فلم يحدث قَطُّ أن تخلى أي نائب ملك عن هديته الثمينة. وهي لا تتخلى عنها فقط، ولكن تخصصها لتفعل بها أعمالًا خيرية عظيمة.

فكر أسقف باتِّي: «يقول تورُّو ميندوزا إن هذه المرأة هي الشيطان. ولكن إذا كانت الشياطين مثلها، فأنا مستعد لأن أُحرق في الجحيم».

واستمرت دونًّا إليونورا بقولها إن المؤسستين مثل المهر الملكي، ستوضعان تحت تصرف قاضي الملكية الذي سيعمل على تعيين الموظفين وإدارتيهما بشكل يومي، بالإضافة إلى إعداد الشروط الخاصة بمهور الفتيات الفقيرات. هل لدى أيٍّ من السادة المستشارين أي اعتراض؟

لم يكن لديهم أي اعتراض.

ثم، ولتختتم، قالت دونًا إليونورا إن لديها معلومة بسيطة للمجلس. فقد تلقت طلب عفو من قِبل المركيز سيمونه تريكًا المحكوم عليه بالموت. طلب أن تخفف العقوبة إلى السجن مدى الحياة.

رفضت هي هذا العفو بلا أي تردد، بل أوصت رئيس البلدية أن يُعدم المركيز بعد أن يشهد حكم إعدام القاتلَين اللذين تصرفا تبعًا لأوامره.

قالت تلك المعلومة بصوتها الملائكي المعتاد وبلا أي تأثر، على الرغم من أن أيًّا من الحاضرين لم يستطع النظر إليها في عينيها، إذ اشتعلتا بالأسود أكثر من أي وقت سابق.

رُفعت الجلسة، وحُدد موعد الجلسة التالية يوم الجمعة المقبلة.

قبل أن تخرج، طلبت دونًا إليونورا من دون بنديتو أروزيو، أسقف باتّي، إذا أمكنه أن يذهب إليها في الرابعة بعد الغداء. وقبل الأسقف.

أول سؤال وجهته دونًا إليونورا إلى دون بنديتو وإلى الأب أشولًا، هل شارك كل القسوس في باليرمو في المسيرة ضدها؟ أجابها دون بنديتو أن خمسة آباء ذهبوا إليه ليقولوا له إنهم أعلنوا مرضهم حتى لا يذهبوا. ومن جهته قال لها الأب أشولًا إنه يعرف سبعة قسوس خالفوا أوامر الأسقف.

علق دون بنديتو:

– وهذا يجعلهم اثني عشر، مثل عدد تلاميذ المسيح.

عندئذٍ شرحت لهما أنها تحتاج إلى أن تتحدث مع أولئك القسوس، إذ إنهم من يمكنها الاعتماد عليهم، ليشيروا إلى قاضي الملكية على كل العاهرات الشابات أو المسنات اللاتي يرونهن مهملات في الطرقات ويعشن على التسول. تريد أن تبدأ المؤسستان العمل خلال أسبوع كأقصى حد.

وبطبيعة الحال، يجب عمل كل شيء، من دون أن يعرف تورُّو ميندوزا أي شيء.

بعد مدة وجيزة طلب دون بنديتو الإذن بالانصراف. عندما مكثت بمفردها مع الأب أشولَّا قالت له دونَّا إليونورا:

- أريدك أن تعود مرة أخرى إلى مسكن الكنيسة الصغيرة.

- لكن الأسقف...

- حاليًّا لا أعتقد أنه سيجرؤ ويعترض على عودتك بوصفك قس البلاط.

- سأفعل ما تأمرين به.

- حسنًا. شيء أخير: هل تعرف كم عدد الأولاد الذين يكونون جوقة الأصوات الملائكية في الكاتدرائية؟

- أجل، أعرف، عشرين.

- وتعرف إذا ترك أيٌّ من الأولاد الجوقة في المدة الأخيرة؟

نظر إليها الأب أشَولَّا مدهوشًا.

- وكيف عرفتِ؟

- إذن ترك بعضهم بالفعل الجوقة.

- أجل. قالوا لي هذا في الأسقفية.

- ولكن ترك أحد الأولاد للجوقة لا يبدو لي موضوعًا مهمًّا جدًّا حتى يتحدثوا عنه في الأسقفية.

بدا الأب أشولًّا مُحرجًا بعض الشيء.

- هذا صحيح. ولكن هذا الطفل، معذرة، هذا الصبي، كان الأجمل بينهم وأكثرهم موهبة، ولذلك...

- لهذا فقط؟

أصبح الأب أشولًّا مُحرجًا أكثر.

- تكلم.

- اعذريني يا سيدتي، ولكنني لا أحب على الإطلاق أن أردد النميمة والتلميحات...

- إنه أمر.

ابتلع الأب أشولًّا ريقه مرتين قبل أن يفتح فمه:

- يبدو أن أبا الولد، تناقش مناقشة عنيفة مع الأسقف، وأن الأخير، وهو يصرخ، جعل دون بوليا يطرده بطريقة سيئة.

- هل تعرف سبب الشجار؟

- لا.

ولكنه عندما قال «لا» خفض الأب أشولًّا عينيه أرضًا. وفهمت دونًّا إليونورا أن ذلك النفي يعني الإيجاب، ولكن القس، بطبيعته، لا يقدر على الشر.

- على الأقل حضرتك تعرف من هو الأب؟

تردد الأب أشولًّا لوهلة، ولكنه أجاب:

- إنه ابن ماريانو بونيفاتي، واسمه شينزينو. بونيفاتي أهم تاجر

زيت في المدينة، ومن المتبرعين للكاتدرائية، وزوجته قائدة المُكرسات لخدمة الأسقف.

- أشكرك كثيرًا. وأوصيك: الليلة أريدك أن تعود إلى مسكنك.

في المساء، وفي أثناء تناولهما العشاء معًا، سألت دونَّا إليونورا دون سيرافينو إذا كان يعرف شخصًا يُدعى «ماريانو بونيفاتي».

- تاجر الزيت؟ أجل.
- هل أنت صديق له؟
- لا. مجرد معرفة. ولكن لماذا...

بدا كأن دونَّا إليونورا لم تسمع السؤال.

- هل تعرف أحدًا من العائلة؟ من يدري، الزوجة، أخ، أخت...
- لا، ولكن...
- لكن؟
- الطبيب الذي يعتني بكل العائلة تلميذي. أنطونيو فيرجادامو. هل يفيدك هذا في شيء؟
- بالتأكيد.
- قولي لي ماذا تريدين منه و...

قالت دونَّا إليونورا وهي ترغب في إنهاء الحديث:

- فيما بعد.

ولكن دون سيرافينو استمر.

- ولكن يجب أن أحذرك. إذا أردتِ أن تعرفي شيئًا يخص تلميذي فيرجادامو في علاقته الطبية مع عائلة بونيفاتي، سيكون من

الصعب سؤاله. فهو لن يجيب، فهو شاب ذو ضمير مهني عالٍ.

قالت دونَّا إليونورا:

- فهمت.

وأنهت الحديث.

في وقت لاحق في المكتب، فتح دون سيرافينو الحديث مرة أخرى، رغبة منه في أن يخدمها.

- لماذا سألتني عن بونيفاتي؟

هزت دونَّا إليونورا كتفيها.

- أتوسل إليكِ، أخبريني.

- لم تعد هناك فائدة من التحدث عن هذا الأمر.

- لماذا؟

- لأنه، بناءً على ما قلته لي، لا أعتقد أنك تستطيع مساعدتي.

مساعدتها؟

هذا يغير كل شيء.

قال دون سيرافينو:

- أرجوكِ، قولي لي ما الأمر.

قالت دونَّا إليونورا بحدة:

- إذا قلت لك إنك لست الشخص المناسب لهذا، يجب أن تصدقني.

ركع دون سيرافينو، وهو يمسك بين يديه بطرف ثوبها:

- أتوسل إليكِ.

استسلمت دونًّا إليونورا.

- انهض من فضلك، واجلس.

أطاعها دون سيرافينو. ذهبت المركيزة إلى مكتبها وأخذت ورقة، وجلست أمامه.

- هذه رسالة وصلت إليَّ هذا الصباح في الفجر، سلَّمها شخص غريب إلى رئيس الحراس. رسالة غير موقعة. مكتوبة باللغة الصقلية، واجتهدت بعض الشيء لأفهمها. اقرأها ثم انسَها.

سلمتها إليه. أخذها دون سيرافينو وقرأها.

> دعيني أقُل لك ماذا فعل ذلك الأسقف الخنزير مع طفلي الصغير في جوقة الكاتدرائية، واسمه شيتزينو. لقد آذاه كثيرًا إلى حد أن أباه اضطر إلى أن يحضر له طبيبًا ليخيط له بعض الغرز.
>
> هل يمكن أن يستمر هذا الخنزير الوحشي الضخم في التسبب في إيذاء الأطفال؟ أرجوكِ تصرفي في هذا الأمر.

عندما قرأ دون سيرافينو ذلك شحب وجهه مثل الجثة. أعطى الورقة مرة أخرى للمركيزة من دون أن يتفوه بكلمة. شعر بأنه مصدوم من الاشمئزاز.

قالت دونًّا إليونورا:

- يا للأسف! لو استطعت فقط التخلص من تورُّو ميندوزا إلى الأبد.

تمتم دون سيرافينو:

- إذن فالأمر لم يكن مجرد نميمة.

- يبدو هذا.

- ولكن كيف عرفتِ اسم أبي ذلك الطفل المسكين؟
- استعلمت.

ترى من يمكنه أن يقول هذا؟ ثم أجاب على نفسه قبل أن يطرح السؤال، لا بد أنه الأب أشولّا. لهذا أرسلت في طلبه. وإذا ساعدها الأب أشولّا، هل له هو أن ينسحب؟

قال وهو ينهض فجأة:
- أطلب السماح بالانصراف.
- حسنًا، ولكن هل ستعود في وقت لاحق؟
- أجل. إذا لم يكن لديك ما يمنع.
- سأظل مستيقظة طوال الليل، إذا تطلب الأمر.
- سأدخل من الباب السري.
- عظيم. سأقول لإستريلّا أن تتوقع حضورك.

عاد دون سيرافينو بعدها بساعتين.
- لقد تحدثت مع فيرجادامو. وهل تعرفين ما حدث؟ كان هو أيضًا يبحث عني.
- هل أراد أن يحدثك عن الطفل؟
- أجل. أراد نصيحتي بهذا الشأن. فهو يريد أن يعرف هل يبلغ أم لا، عن الأسقف. فيرجادامو يرى أن انتهاكًا بشعًا مثل هذا لطفل يعفيه من السرية المهنية. وأيدته أنا في هذا. آه، فيرجادامو مقتنع أن من كتب الخطاب لكم هو الأب. لم يوقعه لأنه يخشى انتقام الأسقف.

- ماذا سيفعل؟

- سيذهب في الغد إلى كبير قادة العدالة ليقدم بلاغًا. وأنا في أثناء ذلك سأذهب إلى بونيفاتي، وسأحاول أن أقنعه بأن يشارك في البلاغ.

- هل تعتقد أنك تستطيع إقناعه؟

- لا أعرف، ولكن الأمر يستحق المحاولة.

الفصل الرابع عشر
الأشياء تتخذ منحى سيئًا للأسقف

ذلك الصباح عندما سمع مرة أخرى أصوات الطبول والمنادين شعر بتوتر.

المرة الأخيرة، عندما مروا، بمجرد أن سمع نصف سكان المدينة القانون الجديد الخاص بقانون الحرفيين سُحروا بدونًّا إليونورا.

والآن ماذا دبرت تلك المرأة الشريرة لتجذب رجال ونساء الكنيسة إليها، أو أولئك الذين ظلوا لامبالين حتى الآن؟

شاعرًا بالقلق، أمر دون بوليا بأن ينزل إلى الشارع، ويسمع جيدًا ويخبره.

كان خبر أن سعر الخبز أصبح تقريبًا النصف، ضربة قوية.

من الآن سيصبح صعبًا جدًّا إقناع شعب الكنيسة أن تخفيض ثمن الخبز للنصف عمل شيطاني.

من المؤكد أنه لن يمكنه الاعتماد على جمع ثلاثة آلاف شخص، ربما مائتين كأقصى حد.

لا، لا بد أن يغير سياسته، وأن يدع قصة رفض دونًّا إليونورا الدفن

زوجها جانبًا، وأن يعثر على شيء آخر مختلف تمامًا، شيء قاتل. ولكنه لم يستطع التفكير في أي شيء.

كما وعد، طلب الطبيب فيرجادامو لقاء كبير قادة العدالة، ومعه بطاقة من طبيب البلاط الذي يرجو فيها دون فيليبو أركاديبانه أن يستقبله في أسرع وقت، لأنه سيتحدث معه في شيء خطير.

- كيف يمكنني مساعدتك؟
- أتيت لأبلغ عن انتهاك شديد لطفل عمره ستة أعوام، ارتكبه...

قاطعه دون فيليبو:

- هل أنت الأب؟
- لا.
- هل أنت من عائلة الطفل؟
- لا.

فكر كبير القادة لمدة:

- ما اسم أبي الطفل؟
- ماريانو بونيفاتي.
- هل هو نفسه الذي يتاجر في الزيت؟
- أجل.
- قُل لي بأي صفة تريد أن تُقدم هذا البلاغ؟
- بوصفي الطبيب الذي استدعاه الأب ليعالج التمزقات التي حدثت للطفل.
- هل سمح لك الأب أن تأتي إليَّ؟

- لا.
- لماذا جئت؟
- جئت لأنني أرى أنه من واجبي أن...
- ولماذا لم يرَ الأب أن هذا واجبه؟
- لأنه خائف.
- أفهم. إذن تريد أن تقول لي بشكل غير مباشر إن من انتهك الطفل هو شخص ذو نفوذ؟

كان فيرجادامو شابًّا ذكيًّا وفهم كيف يعمل رأس كبير القادة. لذلك اكتفى بأن يجيب:

- أجل، هو رجل ذو نفوذ.
- هل أنت متأكد؟
- ممَّاذا؟
- من أن ذلك الشخص القادر هو من انتهك الطفل. سأعيد عليك السؤال. من قال لك إن من ارتكب الانتهاك هو الرجل القادر؟
- الأب.
- وهل أكد لك الطفل هذا؟
- لم يتكلم أمامي، كان يبكي.
- إذن سأسألك: ألا يمكن أن يكون الجاني هو الأب، أو شخصًا آخر من العائلة، وألا يكون لذلك الشخص القادر وجود، مجرد شخص مُخترع لإبعاد الذنب عن الجدران المنزلية؟
- أستبعد ذلك تمامًا.
- وإلى أي شيء تستند؟

- إلى ألم وغضب الأب بينما يتحدث عما حدث. كان مضطربًا جدًّا.
- لا يكفيني هذا.
- ما معنى هذا؟
- لا يمكنني أن أقبل بلاغك. يمكن أن تكون حضرتك الشاهد الأساسي على الواقعة، ولكن لا بد أن يُقدم البلاغ، حسب القانون، شخص من العائلة. لا بد أن تفهم أنه في حالة مثل هذه التمسك بشدة بالقانون ليس فقط واجبًا، ولكن بدافع الحرص أيضًا. يؤسفني هذا.

عاد دون سيرافينو إلى القصر محبطًا مع إحساس بالمرارة.
- لم أستطع أن أقنع بونيفاتي. يشعر بالخوف الشديد. أنا متأكد أنه هو من كتب الخطاب المجهول لأنه يريد أن يرى الأسقف في السجن، ولكنه لا ينوي أن يكشف عن نفسه. حكى لي أنه بعد المواجهة مع الأسقف ببضع ساعات، بسبب العنف الذي وقع على ابنه، ذهب إلى منزله قس، يُدعى «دون بوليا»، الذي هدده بوضوح بالموت إذا قدم بلاغًا.
سألته دونًّا إليونورا:
- ماذا عن الطبيب تلميذك، هل ذهب إلى كبير القادة؟
- أجل. ونقل لي ما حدث. للأسف، كبير القادة لم يستطع قبول البلاغ.
- ولمَ لا؟

- لا بد أن يقدمه أحد أفراد الأسرة.

وجلسا صامتين بعض الوقت.

ثم أمسكت دونًّا إليونورا بالخطاب المجهول، قرأته، ثم أعادته مرة أخرى إلى المكتب.

قالت:

- كتب بونيفاتي عن حالات أخرى.

قال دون سيرافينو:

- منذ مدة وهم يتحدثون عن الأمر في المدينة. ولكن حتى الآن كل شيء ظل على مستوى الثرثرات والتلميحات... لا شيء ملموسًا.

- اصنع لي خدمة، اذهب إلى الكنيسة، وإذا كان الأب أشولًّا غير مشغول، أحضره معك.

بعدها بعشر دقائق، كان الأب أشولًّا يقف أمام المركيزة.

بدأت دونًّا إليونورا على الفور:

- أيها الأب، لديَّ دليل على أن الأسقف ارتكب بالفعل هذا الفعل الشائن على الطفل الذي تحدثنا عنه.

شحب وجه الأب أشولًّا.

تمتم:

- يا لها من فضيحة! كم هو أمر مُخزٍ للكنيسة!

وملأت الدموع عينيه.

- اسمعني من فضلك. الآن سأطرح على حضرتك سؤالًا، ويجب أن تجيبني.

- تفضلي.

- هل تعرف حضرتك إذا سبق وتحدث الناس عن حالات مشابهة؟
- أجل.
- هل تعرف آخرين أخرجوا أبناءهم من الجوقة؟
- أجل.
- متى كانت الحالة الأخيرة؟
- منذ ثلاثة أشهر.
- هل تعرف اسم الطفل؟
- أجل.
- أخبرني به.



بلل العرق الأب شولّا:
- كارلينو جارافًا.
تدخل دون سيرافينو:
- لحظة واحدة. هل تتحدث عن ابن ستيفانو جارافًا الأصغر؟
- أجل.
سألت المركيزة دون سيرافينو:
- هل تعرفه؟
- أعرفه جيدًا.
قالت دونًّا إليونورا للقس:
- شكرًا جزيلًا. يمكنك الخروج.
بمجرد أن خرج الأب أشولّا، سألت المركيزة طبيب البلاط إذا كان يمكنه الذهاب للتحدث على الفور مع جارافًا. لوى دون سيرافينو فمه.
- توجد مشكلة. كان جارافًا مسؤول الممتلكات المدنية لكنيسة

باليرمو، واستقال من دون أن يُقدم أي تفسير، وانتقل مع العائلة إلى كاتانيا.

- هل تعرف أين يسكن؟

- في كاتانيا؟ لا. ولكنني يمكنني أن أسأل أخته التي لا تزال تسكن هنا، لأنها متزوجة بـ...

- هل يمكنك أن تذهب إليها الآن؟

خرج دون سيرافينو قبل أن تكمل دونًا إليونورا عبارتها.

تشعر كونسولاتا جارافًا، زوجة دون مارتينو جامبيليري، مُحاسب المدينة المُبجل، بالامتنان الشديد تجاه دون سيرافينو، لأن طبيب البلاط، منذ أعوام، أنقذ ابنتها من مرض لم يكن أحد يفهم عنه شيئًا. وكانت امرأة صريحة، تقول ما تفكر فيه.

- أحتاج إلى أن أعرف أين يسكن أخوك في كاتانيا. لا بد أن أذهب لأزوره.

قلقت كونسولاتا:

- هل هناك شيء ما؟

أجابها دون سيرافينو، محاولًا ألا يُبدي أهمية للأمر:

- لا. أريد فقط التحدث معه.

ولكن كونسولاتا لم تكن امرأة تستسلم بسهولة:

- أنا أعرف كل شيء عن أخي. إذا تحدثت معي فربما وفرت على نفسك متاعب الرحلة.

ولمَ لا؟

- هل يمكنك أن تقولي لي لماذا استقال وترك باليرمو؟

- لم يعد يتفق مع الأسقف تورُّو ميندوزا.
- وهل كان يتفق معه من قبل؟
- بالتأكيد.
- قبل ماذا؟

لم تُجِب كونسولاتا، بل احمرَّ وجهها. من الواضح أن الموضوع يتسبب لها في الألم والغضب.

قال دون سيرافينو:

- سأساعدك أنا. قبل أن يُخرج كارلينو من الجوقة؟
- إذن أنت تعلم! ذلك الشيء الحقير المدعو الأسقف، في إحدى المرات بعد الغداء أخذ كارلينو إلى مكتبه وتصرف معه تصرفاته القذرة. في الليل أخذ الصغير يبكي وحكى لأمه كل شيء. وفي الصباح التالي ذهب أخي ليبلغ عن الأسقف.

جحظت عينا دون سيرافينو.

- حقًّا؟
- نعم يا سيدي!
- ولمن ذهب ليبلغ عنه؟
- لكبير قادة العدالة، أمير فيكاراتسي الذي وعده بأنه سيتحدث عن ذلك في المجلس الملكي المقدس.
- وهل تعرفون إذا ناقشوا هذا؟
- بالتأكيد ناقشوه. فعل ذلك في جلسة العشرين من مايو. ثم استدعى أخي وقال له إنهم في حاجة إلى أدلة أخرى، وإنه سيتولى الأمر بنفسه.

- ثم ماذا حدث بعد ذلك؟

- الذي حدث أنه بعد ذلك بيوم أتى قس يُدعى «شيبيونه ميتساتيستا» لزيارته، وقال له إنه من الأفضل له أن يغير المكان. طرده أخي. بعدها بثلاثة أيام، بينما يلعب ابنه الأكبر، وعمره أحد عشر عامًا، مع أصدقائه بعد الغداء، خطفه رجلان، ووضعاه على عربة واختفى أمسية كاملة. عندما عاد، حكى أنهما أخذاه إلى منزل ريفي، وضرباه ضربًا مبرحًا بعصا، وأعاداه إلى باليرمو، وطلبا منه إبلاغ أبيه أن عليه تغيير مكانه خلال أسبوع. عندئذٍ ذهب أخي إلى كاتانيا. والآن ما الذي يحدث؟ هل هناك من جديد؟

- أجل. وأتمنى هذه المرة أن نتخلص من تورُّو ميندوزا نهائيًّا.

- ليساعدك الرب.

لم تضيِّع دونًّا إليونورا الوقت. بمجرد أن انتهت من تناول الطعام مع دون سيرافينو سلمها سكرتير المجلس الكتاب الذي دُوِّنت فيه محاضر الجلسات، ثم رحل.

وفي جلسة العشرين من مايو عثرا على ما يبحثان عنه:

> طلب كبير قادة العدالة من صاحب السعادة الأسقف تورُّو ميندوزا أن يعذره على ما تجبره وظيفته على أن يقوله، وأخبر أعضاء المجلس الأفاضل بأن ستيفانو جارافًا قدم بلاغًا ضد سعادة الأسقف تورُّو ميندوزا يتهمه فيه أنه ارتكب جريمة فحشاء في حق ابنه المُدعى كارلينو، طفل عمره ستة أعوام ونصف العام.
>
> بمجرد أن سمع سعادة الأسقف تلك الكلمات، طلب بخضوع

من جلالة نائب الملك ألا يحضر باقي الجلسة ليتمكنوا من مناقشتها من دون تحرج من وجوده.

بمجرد الموافقة على طلبه وخروج سعادة الأسقف، سأل كبير القادة جلالة نائب الملك لو أن الأمر الذي يتعلق بأعلى سلطة كنسية في صقلية، بدلًا من أن يُناقشه المجلس، أليس من الأفضل أن يؤول مباشرة إلى نائب الملك، نظرًا إلى أنه النائب المباشر للبابا، ومن ثَمَّ هو وحده وبشكل مطلق من يجب أن يخضع له الأسقف ويطيعه، من دون أي قيود يفرضها القانون؟

أجابه جلالة نائب الملك أن صاحب العظمة الملك كارلوس سبق وأوصاه أن يستخدم تلك الصلاحية بوصفه نائبًا رسوليًّا، بتحفظ شديد، بل ومن الأفضل ألا يستخدمها على الإطلاق، لما يمكن أن تسببه من توتر بين المملكة والبابوية، ولذلك لا يبدو له استخدامها الآن فكرة جيدة.

عندئذ أخبر كبير قادة العدالة المجلس، بأنه، ونظرًا إلى فداحة التهمة، عمل كل ما بوسعه، من دون أن يضيع الوقت، ليكشف الحقيقة.

وعرف أنه قبل أسبوعين من تلقيه البلاغ أعفى نيافة الأسقف أبا الطفل، ستيفانو جارافًا، مدير الممتلكات المدنية لكنيسة باليرمو، من وظيفته لسوء سلوكه وحيازته غير القانونية للممتلكات، بل وأبلغ عنه. وهو البلاغ الذي عثر عليه كبير القادة بين أوراق أحد موظفيه. وشهد كاتبان يعملان مع جارافًا، تحت القسم، أنه بمجرد أن عرف جارافًا بإقالته هدد نيافة الأسقف تهديدات غامضة.

ونظرًا إلى المعلومات التي حصل عليها، اقترح كبير القادة ألا يستأنف المجلس في مناقشة البلاغ، وأن توجه تهمة تشويه سمعة ضد المدعو «جارافًا».

أعلن نائب الملك أنه يوافق على هذا الرأي، كذلك باقي أعضاء المجلس.

بمجرد أن عاد نيافة الأسقف تورُّو ميندوزا وعرف ما حدث في المجلس، توسل إلى جلالة نائب الملك ألا يوجه تهمة تشويه السمعة لجارافًا، لأن الشعب سرعان ما سينسى مسألة تشويه السمعة، ولكيلا تطيل الإجراءات التي ستعمل على تأجيج نار النميمة ضده التي بدأت بالفعل.

وافق جلالة نائب الملك على هذا.

علق دون سيرافينو:

- يبدو الأمر واضحًا، أن كبير القادة والأسقف اتفقا على كل شيء قبل الجلسة، وقدما عرضًا مسرحيًّا. وكما أنه من الواضح أن بلاغ سوء السلوك مزيف وملفق لهذا الغرض. وأن هذين الكاتبين إما هُددا أو قبضا.

التزمت دونًّا إليونورا الصمت. واستمر صمتها طويلًا إلى حد أنه بعد وهلة، استجمع دون سيرافينو شجاعته، وتجرأ وسألها:

- فيمَ تفكر سيدتي؟

- أفكر أنه عندما نصح جلالة الملك زوجي بألا يستخدم سلطته كنائب بابوي، لم أكن موجودة، ومن ثَمَّ يمكنني تجاهل وصيته. ولا شيء مكتوبًا يخص هذا. ما رأيك؟

سألها دون سيرافينو، في قلق:

- هل تنوين استخدامه بنفسك؟

- هل يخيفك هذا الأمر؟

- كثيرًا، سامحيني على صراحتي.

- لماذا؟

- لأنه في كل مرة استخدم فيها نائب الملك سلطته كنائب بابوي، دعمه الملك في ذلك، ولكن تمردت زمرة كبيرة من كنيسة صقلية عليه.

قالت المركيزة:

- أعلم هذا. سألجأ إليه كحل أخير، يمكنني استخدام سلطتي كنائب بابوي لأجرده من كل سلطاته. كان يمكنني عمل ذلك عندما أثار المظاهرة ضدي، وأنا أُمثل السلطة البابوية.

- ولماذا لم تفعلي هذا؟

- حتى يعتقد أنه حر ليكمل تصرفاته البشعة مع الأطفال. وأنا أريد أن أمنعه، أريده أن يموت في السجن.

ثم عادت للصمت مرة أخرى، وبعدها قالت:

- غدًا صباحًا سآمر أن يأتي إلى هنا في التاسعة كبير قادة العدالة وقاضي الملكية في البلاط. احضر أنت أيضًا، حتى وإن لم تشارك في الاجتماع. أشعر بالاطمئنان في وجودك. ومن جهة أخرى، أرجوك أن تعود حالًا إلى زيارة تلك السيدة لتخبرك أين يسكن أخوها في كاتانيا. أريد أن أراه. لا بد أن يعرف أن العدالة ستأخذ مجراها.

في صباح اليوم التالي، مبكرًا، وقبل أن يخرج دون سيرافينو من منزله، حضر إليه الطبيب فيرجادامو، ويبدو عليه الاضطراب الشديد.

- ماذا حدث؟

- ذهبت إلى منزل ماريانو بونيفاتي لأطمئن على شينزينو، ولكن

لم يكن هناك أحد. الأبواب والنوافذ مفتوحة على مصاريعها، والجيران لا يعلمون شيئًا. عندئذٍ ذهبت إلى مخزن الزيت، وجدت هناك عشرة من العمال يقفون أمام البوابة المغلقة، ولا يعرفون ماذا يفعلون. ولا يستطيعون الدخول ليؤدوا أعمالهم. ولا خبر عن بونيفاتي.

بدأ العرق يتصبب باردًا من دون سيرافينو.

وخطر بباله فكرة بشعة.

ماذا إذا كان ذلك الاختفاء من أعمال الأسقف؟ هل وصل إلى علمه زيارته وطلبه أن يقدم بلاغًا، وليتأكد من الصمت التام، تخلص من بونيفاتي وعائلته كلها؟

سأله فيرجادامو:

- ماذا يمكننا أن نفعل؟

أجابه طبيب البلاط ضاغطًا على أسنانه:

- لا يمكننا فعل شيء، فقط أن نتمنى رؤيتهم أحياء.

ما أغضبه أكثر، وتقريبًا كاد يفقده عقله، هو إحساسه الشديد بالعجز.

لذلك وصل مبكرًا إلى البلاط ليخبر دونًّا إليونورا ما قصَّه عليه فيرجادامو.

لم تعلق المركيزة، إلا أن لون جلدها فجأة فقد بريقه.

وفي الواقع كان هذا أول موضوع تحدثت فيه مع كبير قادة العدالة.

ترجى دون فيليبو المركيزة بأن تؤخر الجلسة وذهب يطلب أوريليو

تورِّيجروصًا، الأمهر بين رجاله، رجل قانون وُلد وكبر في باليرمو ويعرفها مثل كف يده، وكلفه بالبحث الفوري عن ماريانو بونيفاتي وعائلته.

وأخيرًا أُغلق باب المكتب وبدأ الاجتماع.

ولم يسمح الوقت للمركيزة أن تقول سوى كلمتين:

- أشكر سيادتكم...

حتى قاطعها طرق مستمر على الباب.

قالت دونًّا إليونورا بضيق:

- ادخل.

فُتح الباب وظهر أوريليو تورِّيجروصًّا.

بدا مضطربًا وغير متأكد:

- اعذروني ولكن لا أعرف كيف...

قال دون فيليبو:

- هيَّا تحدث.

- هذا الصباح الباكر تعرض حارسان للهجوم، من دون سبب محدد، من رجل مُسلح بعصا، الذي...

قاطعه دون فيليبو:

- لا أفهم لماذا أتيت لتضيع وقتنا بهذه القصة بينما سبق وأمرتك بأن...

- أرجوك، دعني أنتهِ من كلامي. قُبض على الرجل، ولكنه بدأ في الصراخ بأنه يرغب في التحدث مع طبيب البلاط. حاولوا كل شيء ليسكتوه ولكنهم لم يستطيعوا. عندئذٍ قال إنه يريد

التحدث مع سيادتك يا كبير القادة. يقول إنها مسألة حياة أو موت. ونظرًا إلى أنهم يعرفون بوجودك هنا، صحبه رجالي إلى القصر. قابلته ولا يبدو لي مجنونًا.

- هل قال لك اسمه؟

- لا يرغب في قوله إلا في وجودك.

قال دون فيليبو وهو ينهض:

- سامحيني يا سيدتي. سأذهب لأسمع ماذا يريد و...

قالت دونًا إليونورا، التي كانت في نهاية الأمر امرأة وفضولية:

- لا، انتظر. أريد أن أسمعه أنا أيضًا.

خرج تورِّيجروصًا ثم عاد ممسكًا برجل في منتصف العمر من ذراعه، ملابسه ممزقة، ووجهه متورم من اللكمات التي تلقاها، وجرح في حاجبه ينزف دمًا.

كان واضحًا أنه لا يستطيع التحدث ويحتاج إلى أن يتمالك نفسه. أجلسته دونًا إليونورا وطلبت أن يحضروا له الماء ليشرب.

سأله كبير القادة:

- ما اسمك؟

أجابه الرجل:

- ماريانو بونيفاتي.

أول من أفاق من الصدمة التي أصابت الجميع كانت دونًا إليونورا.

الفصل الخامس عشر
تورُّو ميندوزا وهجومه المضاد

قالت بصوت مطمئن:

- طبيب البلاط هنا، هل تريد التحدث في حضوره؟

- أجل.

استدعوا دون سيرافينو، الذي أرسلته دونَّا إليونورا إلى الغرفة الجانبية، وبمجرد أن رأى بونيفاتي ابتسم.

قال بونيفاتي موجهًا حديثه إلى طبيب البلاط:

- أنا هنا بسببك. لقد نعتني بالجبان عندما رفضت أن أُقدم البلاغ. وأنا منذ تلك اللحظة لم أستطع النوم. وهكذا هذه الليلة أخذت عائلتي وخبأتها في مكان آمن. وهاجمت الحارسين بالعصا حتى يُقبض عليَّ. فكرت في مهاجمة الحراس، لأنني إذا ذهبت للإبلاغ، ربما وصل الخبر إلى رجال الأسقف. ولكن مع الحراس نحن على قدم المساواة، سأكيل لهم الضربات وسيضربونني بدورهم. وهأنذا، في خدمتكم.

نظر دون سيرافينو إلى دونَّا إليونورا، التي أشارت إليه بأن يستمر، فسأله طبيب البلاط:

- وهل أنت مستعد لتقدم بلاغًا في الأسقف تورُّو ميندوزا، وتؤكد الأمر في المحكمة، لما تسبب فيه من أضرار لابنك؟

- أجل.

استأذن كبير القادة، واستدعى تورِّيجروصًّا.

- بعد إذن نائب الملك، اذهب مع السيد بونيفاتي إلى المكتب، واستلم بلاغه. ثم تأكد أن تقدم للسيد بونيفاتي بعض المشروبات واستقبله في مكتبنا. نظرًا إلى الوضع الخطر الذي سيتعرض له بمجرد تقديم البلاغ، فأنا أتحمل المسؤولية شخصيًّا إذا حاول أي شخص إلحاق الأذى به، أو عن أي شيء يمكن أن يحدث لعائلته.

تدخلت دونَّا إليونورا:

- لديَّ فكرة أفضل بالنسبة إلى العائلة. فَليخبر السيد بونيفاتي السيد تورِّيجروصًّا أين يختبئون، ثم يرسل من يصحبهم إلى هنا بمرافقة حراس. وأطلب أن يسكنوا هنا في البلاط، حتى يُحبس الأسقف بأمان.

استمر الاجتماع ساعة تقريبًا. اتفق قاضي الملكية في الرأي مع دونَّا إليونورا، بأنه يجب ألا تستخدم مسألة الإنابة البابوية، وأن يُعالج الأمر من خلال الإجراءات القضائية المعتادة.

ومن ثَمَّ من يوجِّه الاتهام سيكون كبير قادة العدالة الذي قال إنه لا بد من فهم أن تلك الجريمة البشعة تستدعي القبض الفوري على مرتكبها، بمجرد أن تستحوذ السلطات على عدد يكفي من الأدلة.

وبالنسبة إلى هذه القضية فلديهم دليل قاطع، وهو شهادة الطبيب الذي خيَّط جرح الطفل.

هل يجب أن يلقوا القبض عليه الآن؟

أجابت دونَّا إليونورا أنها ترى أنه من الأفضل الانتظار حتى الحصول على بلاغ آخر، ذلك الخاص بجارافًّا. ونظرًا إلى أن كبير قادة العدالة وقاضي الملكية لم يعرفا شيئًا عن هذا الأمر، حكت لهما كل شيء.

واتفقوا جميعًا على ذلك.

في ذلك اليوم نفسه، ولكن مساءً في وقت متأخر، استقبل تورُّو ميندوزا زيارة لم يكن يتوقعها قَطُّ.

أتى دون سيفيرينو لوماشو، القاضي السابق للمملكة، ليراه.

على الرغم من أنه لم يقُل له شيئًا، فإن الأسقف دُهش كثيرًا لرؤيته في حالة مُزرية ومتدهورة، يرتدي قميصًا مُمزقًا. إلا أن عينيه اللتين لثعلب لم تتغيرا.

قال له الأسقف:

- اعتقدت أنك لا تزال في السجن.

قال دون سيفيرينو:

- أخرجني دون إستبان أول أمس، وأنا الذي امتلكت منازل كثيرة وأحار إلى أيها أذهب، لم أجد مكانًا لأذهب إليه.

- لماذا؟

- لأن دون إستبان صادر منزلي في باليرمو وقصر روكَّالوميرا.

- ماذا عن عائلتك؟

- أخذت زوجتي ابنتَي وذهبت لتمكث مع أختها في جيرجينتي ولا تريد أن تراني مرة أخرى. من حسن الحظ أحد خدمي القدامى قدم لي فراشًا وصحن حساء.

شعر الأسقف بالخوف.

هل يراهن أن دون سيفيرينو، بعد أن أصبح في فقر مدقع، أتى ليطلب منه أموالًا؟

سأله بحرص:

- هل يمكنني مساعدتك بأي طريقة؟

لا بد أن يسأله هذا. ورأى بارتياح دون سيفيرينو وهو يشير إليه بالنفي برأسه.

قال:

- بالعكس.

ذُهل الأسقف:

- ماذا تقصد بقولك بالعكس؟

- ألا تعرف معناها؟ بالعكس معناها على النقيض.

- ولكن على النقيض ممَّاذا؟

- إنك لن تقدم لي الخدمة، بل أنا الذي يمكنني أن أخدمك. ولا بد أن تصدقني عندما أقول هذا.

قال الأسقف:

- لا أفهم.

- وأنا سأشرح لك. هذا المساء، وأنا في طريقي لمنزل خادمي، قابلت في الطريق كاتبًا من مكتب قاضي الملكية، رجلًا دمث

الأخلاق، خدمته خدمة جليلة في أثناء وجودي في منصبي ولا يزال ممتنًا لي. هذا الكاتب، في سرية تامة، أفصح لي عن شيء مهم جدًّا، شيء يخصك مباشرة، أنت لا تعرف أي شيء عنه، ولكنه يشكل خطرًا بشعًا عليك. لذلك فكرت أنني لا بد أن أُغير طريقي وآتي إلى هنا لأخبرك.

- أخبرني إذن.

تثاءب دون سيفيرينو، ونفخ أنفه، ونظر إلى طرفَي حذائه ولم يجبه. أصر الأسقف:

- إذن؟

قال دون سيفيرينو:

- يساوي ذهبًا.

أجابه الأسقف:

- سأحدد أنا لو يساوي ذهبًا بعد أن تقول لي ما هو.

قال دون سيفيرينو:

- ستدفع قبلها وبعدها.

ماذا يعني قبلها وبعدها؟

- هل تريد نصف النقود قبلها والنصف الآخر بعد أن تقول لي المعلومة؟

- لا. أريد أن تدفع لي قبلها ثمن المعلومة، ثم بعدها الضعف حتى أقول لك الطريقة التي يمكنك بها النجاة.

- هل تمزح؟

- لا.

- وكم ثمن المعلومة؟
أغلق دون سيفيرينو عينيه. ثم فتحهما وضرب ضربته:
- ثلاثة آلاف سكودو، نظرًا إلى أننا صديقان.
تحرك تورُّو ميندوزا فزعًا على مقعده:
- هل أصبت بلوثة؟
- هل هذا يعني لا؟
- بالقطع لا.
قال دون سيفيرينو، وهو ينهض ويتجه نحو الباب:
- إذن سأمضي في طريقي.
ولكن في أثناء خروجه، توقف، والتفت ثم سأل:
- هل الاسم بونيفاتي يعني أي شيء لك؟
قال الأسقف:
- عُد إلى هنا!
أراد أن يصرخ ولكن صوته لم يخرج، أصبح مثل ديك يختنق.
عاد دون سيفيرينو، بابتسامة، ليجلس مرة أخرى.
ولكن ندم الأسقف بالفعل أنه لم يستطع الاحتفاظ بهدوئه، فتظاهر بعدم المبالاة، وقال:
- يقولون الكثير عن...
- هذا ورق مكتوب.
- بمعنى؟
- بمعنى أنني أولًا أريد أن أرى الثلاثة آلاف سكودو أمامي.
- هل تريد أن تبتزني.

- ستكون في وضع أفضل من ألا تكون لك أي ممتلكات، مثلي.
- لنجعلها ألفين.
- حسنًا، لو أن هذه هي الطريقة، فأنا أطلب ثلاثة آلاف سكودو وخمسمائة، ويمكنني أن أزيدها حتى تصبح خمسة آلاف.
- حسنًا، حسنًا.

فكر الأسقف قليلًا ثم نهض.

- انتظرني هنا. سيستغرق هذا بعض الوقت.
- ولديَّ كل الصبر الذي تحتاج إليه.

عاد تورُّو ميندوزا بعد أقل من ساعة، ومعه أتى دون بوليا وهو يحمل ثلاثة أكياس تكاد تنفجر من ملئها وثقيلة للغاية. وضعها على المكتب ثم خرج وأغلق الباب.

نزع دون سيفيرينو الخيط الذي يربطها، وفتحها واحدًا تلو واحد ثم أغلقها مرة أخرى.

- قبل أي شيء، أريد أن أعطيك معلومة مجانية. ليس صحيحًا أنني بعد أن قابلت صديقي الكاتب أتيت مباشرة إلى هنا. ذهبت قبلها إلى منزل خادمي السابق وأعطيته ورقة، فيها كتبت أنني أتيت إلى هنا لأحدثك عن بونيفاتي. إذا لم أعد هذه الليلة، فسيعطي هذه الورقة إلى كبير القادة. هل تفهمني؟

اقتنع الأسقف على الفور أن الدون يكذب عليه. لم يكتب أي شيء، ولكنه فقط يحاول أن يحمي نفسه. وتظاهر بأنه يصدقه.

قال:

- أفهمك جيدًا جدًّا. والآن تحدث.

- أبلغ عنك بونيفاتي بأنك دمَّرت ابنه.

بدا كأن الأسقف أُصيب بذبحة صدرية. حاول أن ينهض، ولكنه عاد إلى الوراء على مقعده، وهو يهز ذراعيه في الهواء كأنه يحاول أن يمسك بشيء لا وجود له.

- أبلغ عني؟!

- ليس فقط ذلك. لديهم الأدلة. وإذا لم يكونوا قد قبضوا عليك بعد، ذلك لأن دونَّا إليونورا تريد أن يعود جارافًا إلى باليرمو، إذ إن بلاغه القديم لك، لسبب ما، لم يُقبل في المجلس، كما تتذكر، ليبلِّغ عنك من جديد. وحينها بوجود بلاغين، يا صديقي المبجل، فقد دُمِّرت مرة واحدة وإلى الأبد.

جحظت عينا تورُّو ميندوزا، وتصبب العرق على جبهته، وتسارعت أنفاسه. بدأت رجفة تجتاح جسده كله، وسال اللعاب من طرف فمه. لم يستطع أن يتحدث، وأشار بيده لدون سيفيرينو بأن ينتظر لحظة.

إلا أن الآخر قال:

- اعذرني، ولكن لا وقت لأضيعه، سأعود خلال ساعة.

أمسك بالأكياس، ووضعها داخل كيس كبير كان مربوطًا على وسطه، ولفه بمعطفه وخرج. في حجرة الاستقبال، وجد دون بوليا الجالس خلف مكتب منكبًّا على بعض الأوراق، نظر إليه وخرج.

- طلب مني نيافة الأسقف أن أصحبك.

قال له دون سيفيرينو مبتسمًا:
- أعتقد أن نيافته غيَّر رأيه. على كل حال أعتقد أنه في حاجة إليك.

عندما عاد دون سيفيرينو بلا أكياس، وجد الأسقف شاحبًا مثل ميت، ولكن ذهنه صافٍ مرة أخرى.

قال على الفور وهو يجلس:
- ليس لديَّ وقت لأضيعه.
قال تورُّو ميندوزا:
- ولا أنا.
- إذن لندخل في الموضوع. هل وصلت إلى أفكار تخرجك من هذه الورطة؟
- لا.
- لقد أجريتُ حساباتي.
- أي حسابات؟
- حسابات، كم يومًا أمامك حتى يقبضوا عليك. لديك نحو ستة أو سبعة أيام. أنا أعرف تلك الأشياء.
- إذن؟
- إذن لا بد أن نوقف دونًا إليونورا قبل تلك الأيام السبعة، وقبل أن يعطي كبير القادة الأمر باعتقالك.
- وكيف سنفعل ذلك؟
- أنا أعرف كيف. وهو المخرج الوحيد بالنسبة إليك. والأدهى أنك أنت أيضًا تعرف ذلك، ولكنك لا تراه.

- إذن دعني أرَه.
- الذهب أولًا.
- وماذا إذا لم تنجح خطتك؟
- ستنجح، ستنجح. أؤكد لك. ولكن كلما ضيعت الوقت زاد موقفك سوءًا.
- اسمع، سأقول لك بكل صراحة، لا أملك ستة آلاف سكودو معي في المنزل الآن. لديَّ أقل من هذا.
- كم معك؟
- خمسة آلاف.
- حسنًا.

نهض الأسقف بصعوبة:

- سأذهب و...

قال دون سيفيرينو:

- سنفعل كما سأقول أنا. اسمعني جيدًا. سأخرج أنا أولًا. عندما تنزل مع دون بوليا ومعك الأكياس الخمسة، ستجد أمام البوابة عربة وأنا بداخلها. يعطيني دون بوليا الأكياس ثم يدخل ويغلق البوابة. أما أنت، فبعد أن يدخل دون بوليا ويغلق الباب، تصعد معي في العربة، وهناك سأقول لك كل شيء. اتفقنا؟
- اتفقنا.

أول شيء قاله دون سيفيرينو للأسقف، بمجرد أن أغلق دون بوليا البوابة هو:

- أحذرك أنني مُسلح. إذا فكرت في أن تخدعني فأنت إنسان ميت.

قال تورُّو ميندوزا:

- لم أفكر في أي خدعة، قُل لي أي طريق...

- كان الطريق واضحًا دائمًا أمامك. وبدلًا من أن تتخذه على الفور، أخذت ترتكب حماقات مثل إثارة الشعب، ووعظات في الكاتدرائية... ظهورات أشباح مزيفة... في السجن كانوا يقصون عليَّ كل شيء. كانت أمامك نقطة ضعفها من البداية ولم...

قاطعه الأسقف:

- انتهِ من هذا الهراء وقُل لي ما هي نقطة ضعفها.

قال دون سيفيرينو:

- إنها امرأة.

استشاط غضب الأسقف، وصاح:

- أعد إليَّ الخمسة آلاف سكودو، لست سوى لص.

- وأنت أحمق.

- وأين هو الحل في أن تقول لي إنها امرأة؟ ماذا يمكنني أن أفعل بذلك؟

- كل شيء.

قال الأسقف بيأس:

- ولكن كيف؟

- كيف؟ سترسل على الفور رسالة إلى البابا، وستسأله كيف يمكن أن يكون نائب البابا الرسولي في صقلية امرأة؟

لوهلة، توقف الأسقف عن التنفس.

ثم بعدها بقليل، عادت إليه القوى ليصيح:

- يا للهول! هذا صحيح!

نزل من العربة وبدأ يقرع على البوابة بيأس. رحلت العربة وبها دون سيفيرينو بأقصى سرعة، وبها الخمسة آلاف سكودو.

لم يكن دون سيفيرينو يعرف، أنه بينما تنطلق العربة بسرعة وهو يربت بسعادة على الأكياس التي تحوي السكودو عند قدميه، بأنه يحمل الموت معه.

في الواقع، بمجرد أن أصبح دون بوليا خلف باب مبنى الأسقفية، عبر الردهة الداخلية بسرعة وخرج من جديد من باب خلفي. ثم دار حول البناية وانحنى حتى لا يراه الحوذي، واقترب من العربة من الخلف وتسلقها ليقف على محور العجلات ممسكًا بالمقبض المعدني الذي يستخدمه الوصيف في عربات النبلاء.

وبعد أن دخلت العربة غابة لافافوريتا بقليل، قرر دون بوليا أن يبدأ عمليته. كانت العربة قديمة، والنسيج الذي يغطيها مترهل. ومن خلال تحريك يده اليمنى قليلًا ولمْسِها بخفة، استطاع أن يشعر بالحدبة التي شكّلها استناد ظهر دون سيفيرينو على القماش من الداخل.

أخرج خنجره، وأمسك جيدًا بالمقبض المعدني بيده اليسرى، رفعه في الهواء وأنزله بكل قوته في وسط الحدبة. مزق النصل النسيج، والقماش، والجلد، ثم جسد دون سيفيرينو. احتفظ دون بوليا بثباته، وانتظر بضع دقائق، ثم لمس النسيج فوجده مبتلًّا بالدماء

بطبيعة الحال. عندئذٍ فقط نزع سلاحه. الآن حانت اللحظة الأخطر. لم يكن يعلم إذا كان الحوذي شابًّا أم مُسنًّا، ولم يكن يعرف إذا كان أجيرًا أم أحد أصدقاء دون سيفيرينو. رفع قدمه اليمنى بقدر استطاعته حتى لمست أصابعها المقبض من الداخل، مكان يده. ثم ضغط ليتأكد إذا كان يمكنه أن يحمل وزنه، وعندما تأكد، في لمح البصر أصبح ممددًا ببطنه على سطح العربة. وضع خنجره بين أسنانه. كان الظلام حالكًا ولم يستطع رؤية أي شيء. تمدد إلى الأمام، وهو يشعر بالقلق أن ينكسر من لحظة إلى أخرى المحور الذي يثبت النسيج. ثم أدرك أن كتفَي الحوذي على مسافة قريبة منه، أقل من طول ذراع. زحف إلى الأمام بعض الشيء. في تلك اللحظة دخلت العربة في جزء من الطريق تقل فيه الأشجار، وكان ضوء القمر كافيًا حتى يندفع دون بوليا كالثعبان. ترك الحوذي اللجام، ومن دون أن يتلفظ بكلمة انحنى جانبًا وسقط على الأرض. وفي قفزة واحدة أخذ دون بوليا موقعه، وأمسك باللجام وأوقف الحصانين.

نزل من العربة، وسار إلى الخلف حيث سقط الحوذي، استعاد خنجره وعاد إلى العربة وفتح الباب، جذب خارجًا جسد دون سيفيرينو الخالي من الحياة، وألقى به أرضًا، ثم قفز إلى مقعد الحوذي، أدار الحصانين، واتخذ طريق العودة إلى باليرمو.

بمجرد أن عاد إلى القصر، أسرع تورُّو ميندوزا إلى المكتبة وأشعل كل الشمعدانات، وأمر خدمه بأن يخرجوا على الطاولة كل الأوراق والكتب التي لها علاقة بالنيابة الرسولية - وهي ظاهرة فريدة في كل

العالم المسيحي - وتتعلق فقط بشخص واحد، وهو ملك صقلية، ومن ثَمَّ بنائب الملك الذي يُمثله، وبالتالي يمثل كل سلطاته المدنية والكنسية أيضًا. كانت تلك الفكرة المتميزة من عمل البابا أوربانو الثاني، الذي مررها بوصفها قانونًا مع وضع الختم البابوي وعبارة «هنا يستلزم الحذر الشديد». ولكن بعدها، لقرون، نسي الجميع الأمر، أو أرادوا أن يتناسوه. من ذكر به في نهاية القرن الخامس عشر، كان جان لوكا باربيريو، وهو ما تسبب في خلاف شديد مع البابا الذي لم يرغب في الاعتراف به، ومن ثَمَّ حدثت مشكلات ضخمة ومشاحنات، نزاعات وخصومات، وانتقامات بين ملوك إسبانيا وعديد من الباباوات. حتى استطاع الكاردينال بارونيو، في عام ألف وستمائة وخمسة، أن يصل إلى أن التشريع البابوي المشهور لم يكتبه البابا أوربانو ولكن البابا المناهض له أناكليتو، ومن ثَمَّ لا يساوي شيئًا. أجاب ملوك إسبانيا أنهم لا يهتمون على الإطلاق بما يقوله الكاردينال بارونيو، ولكنهم يريدون أن يعرفوا رأي البابا نفسه في صلاحية الختم البابوي. أجاب البابا بأنه يحتاج إلى بعض الوقت ليقرر. ثم مرت عقود بعد أخرى ولم يصل إليهم القرار البابوي.

وضع الأسقف كل شيء قرأه جانبًا، وبدأ يفكر عندما قاطعه دون بوليا بدخوله إلى الغرفة.

- كل شيء على ما يرام، استعدتُ الأكياس الخمسة ووضعتها من حيث أخذناها.

لم يسأله الأسقف كيف استعادها. كان يمكنه تخيل ذلك بوضوح.

- وماذا فعلت بالعربة؟

- أشعلت فيها النيران بعد أن أبعدتها عن هنا. وحررت الحصانين.
- حسنًا. اذهب لتنام ثلاث ساعات لأنك يجب أن ترحل.
- وأين يجب عليَّ الذهاب؟
- إلى روما. لا بد أن تسلم رسالة إلى البابا. ولا يجب أن تتأخر عن ثلاثة أيام. إذا استطعت هذا، فأحد الأكياس الخمسة لك.
- إذن لن أذهب إلى النوم، بل إلى الميناء. أحتاج إلى أن أعثر على أسرع مركب لأؤجره. سيكلفك الكثير، ولكن ستُسلم رسالتك خلال ثلاثة أيام.

قضى الأسقف ثلاث ساعات تقريبًا في كتابة الرسالة. ولكن عندما قرأها من جديد بدت له عملًا فنيًّا. بدت كل كلمة فيها مسمارًا في نعش دونًّا إليونورا.

في حال إذا كان البابا لا يتذكر هذا، فالخطاب يبدأ بتاريخ وجيز عن النيابة الرسولية في مملكة صقلية، وكيف أثارت العديد من القلاقل في الجزيرة.

قلاقل، زادت قوتها في المدة الأخيرة التي فيها، يجد هو نفسه، في موقعه كأسقف باليرمو ورئيس الكنيسة الصقلية، وقد نُقلت نيابة الملك بموته إلى زوجته، التي، بالتبعية، أصبحت النائب الجديد للبابا.

والآن، من كان دائمًا وباستمرار يتولى منصب نيابة البابا؟ كاردينالات، أساقفة وقسوس، كل من تولى منصبًا مُقدسًا.

هل حدث من قبل أن تولت النيابة امرأة؟ أبدًا، شيء من هذا القبيل لا يمكن حتى التفكير فيه.

إذن كيف لأسقف أن يطيع نائبًا بابويًّا امرأة؟ ألا تكون الطاعة في هذه الحال بمنزلة الهرطقة؟ هذا ما يتساءل عنه بنفس ممزقة.

ولهذا يتوسل هو، تورُّو ميندوزا، بإخلاص بنوي لقداسة البابا أن يتدخل على الفور لدى ملك إسبانيا، والمطالبة بإجلاء نائب الملك الحالي وإلغاء كل قراراتها الرسمية، التي تشمل تلك الخاصة بالحكم وتلك الخاصة بالإنابة.

والأهم أن عدم اتخاذ إجراءات لاستبعاد وحش على شاكلتها في أسرع وقت ممكن، سيؤدي إلى زيادة تعقيد أي حل حاسم لمسألة النيابة الرسولية في صقلية.

نحو الساعة السادسة لذلك الصباح، أبحر دون بوليا بالفعل في سفينة متجهة إلى نابولي.

الفصل السادس عشر
المباراة أوشكت على النهاية

اهتم الأسقف أن يشرح بالتفصيل لدون بوليا كيف عليه التصرف بمجرد أن يصل إلى الصرح البابوي، بل وأعطى له اسم شخص معين عليه اللجوء إليه، كاردينال قريب جدًّا من البابا، وهو صديق مُقرب له ويثق به. واتبع دون بوليا تعليماته بحذافيرها.

وهكذا، وصلت رسالة تورُّو ميندوزا إلى البابا إينوتشينزو الحادي عشر، الذي جلس من مدة وجيزة على العرش البابوي، وحدث ذلك بسرعة رهيبة، إذ استغرق الأمر ثلاثة أيام وسبع ساعات بعد كتابتها.

وبعد الغداء يوم ٣٠ سبتمبر، وبينما دون بوليا في طريق عودته إلى نابولي، ليبحر من جديد ويعود إلى باليرمو، رحلت رسالة من البابا في طريقها إلى الملك كارلوس، التي فيها يطالب بإنهاء تولي دونًّا إليونورا دي مورا منصبها بدءًا من اليوم التالي، الأول من أكتوبر، واستدعائها على الفور إلى إسبانيا، لأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تمكث في منصبها كنائب ملك، نظرًا إلى أن نائب الملك يعني في الوقت نفسه أن تكون نائبًا مباشرًا للبابا، ولا يمكن

أن يكون النائب الرسولي، بأي حال من الأحوال ولأي سبب من الأسباب، امرأة.

وفي الخطاب يطالب أيضًا، كنتيجة منطقية ولا نقاش فيها، بأن يُعدَّ كل ما قامت به دونًّا إليونورا منذ أن تولت منصب نائب الملك، ملغى.

واختتمت الرسالة، إذا لم يحدث هذا، فإن القداسة الشديدة من صبر وحرص قداسة البابا، الخاصة بالنيابة الرسولية في صقلية، قادرة على أن تنفد فجأة، وفي هذه الحال، ومن ثَمَّ ينفد حِلمه، ويمنح الإجابة المنتظرة منذ أزمنة طويلة، وهي الإجابة التي لن تكون متفقة مع الرأي الذي عبر عنه من قبل ملوك إسبانيا.

ومن ثَمَّ، وصولًا إلى النتيجة العملية: أليس من الأفضل نزع موضوع القلاقل على الفور، وترك الأشياء كما كانت لوقت أطول؟

في ذلك الوقت، لم يستطع ستيفانو جارافًّا أن يصدق أنه سيسرع من كاتانيا إلى باليرمو ليقدم من جديد البلاغ ضد الأسقف. عندما عرف بالبلاغ المُقدم من الأسقف ضده، وأنه أُقيل من منصبه، صُعق. أكد أن الأسقف لم يبلغ عنه قَطُّ، ولا حتى أقاله، وأنه اضطر إلى أن يترك الإدارة، وأن يهرب إلى كاتانيا بسبب التهديدات التي تلقاها من الأسقف.

أبلغ كبير القادة بأنه هو أيضًا اضطر إلى أن يستدعي لابنه كارلينو، طبيبًا، دون سيلفيسترو ده جوفاني ولكنه رفض الشهادة معه، نظرًا إلى أنه كان طبيب الأسقفية، ومن ثَمَّ سيفقد عمله.

ولكن من المؤكد أن ذلك الطبيب، بعد أن يرى السحابة التي تتجمع الآن، إن آجلًا أو عاجلًا سيتقدم ليفعل واجبه. ربما إذا تطلب الأمر يمكن التلميح له بنهايته في السجن، إذا لم يقُل هو أيضًا الحقيقة.

وهكذا وصلوا إلى الموضوع الأكثر حساسية في الأمر: كيف سيُلقون القبض على الأسقف؟

فهذه هي المرة الأولى التي يحدث فيها أمر كهذا، لا بد من التفكير فيه طويلًا قبل اتخاذ أي إجراء.

كانت دونًّا إليونورا متفقة مع كبير القادة وقاضي الملكية أنه كلما قلت الضوضاء كان أفضل.

من رابع المستحيلات أن يحضر الأسقف إلى البلاط بكامل إرادته إذا تلقى استدعاءً، ولم يكن هناك أمل ألا يقاوم بضراوة أي محاولة للقبض عليه بخمسين رجلًا مُسلحًا.

أفضل فكرة جاءت من دونًّا إليونورا، حيث سألت:

- هل يوجد ممر داخلي بين الكاتدرائية والمقر الأسقفي؟

أجاب فيليبو أركاديبانه:

- أجل. يمكن أن يصل الأسقف مباشرة إلى الكاتدرائية من خلال باب موجود في غرفة المقدسات.

- يجب أن نغلق هذا الباب. وأن يقف خلفه جندي أو اثنان. لا بد أن يظل الأسقف معزولًا في مقره الأسقفي، حيث يُراقب ليلًا ونهارًا، لمنعه من أي محاولة للهروب. تظل الكاتدرائية مفتوحة للصلاة، حتى لا يتهمنا أحد أننا نستغل سلطاتنا. وأنت يا دون

فيليبو، لا بد أن تقول للأسقف، اليوم نفسه، بالقرار الذي وصلنا إليه حول الاتهامات الموجهة إليه.

سألها قاضي الملكية:

- ولكن ماذا عن الوقت الذي فيه سيظهر في قاعة المحكمة؟

- سنسأله إذا كان يرغب في الاعتراف بما اقترفه. إذا أجاب بنعم، لا بد أن يتقدم للمحاكمة مكبلًا بالسلاسل، إذا أجاب بلا، عندئذٍ سنقبض عليه بالقوة عند الحكم عليه.

على عكس ما توقعه دون فيليبو، احتفظ تورُّو ميندوزا بهدوء نسبي عندما عرف بأمر أنه لا بد أن يعتبر نفسه مقبوضًا عليه، ولكن فقط احترامًا له، قررت دونًّا إليونورا ألا ترسله إلى السجن. أجاب قائلًا إن هذه تجربة شديدة يرغب الرب في أن يعبُرَ فيها وأنه متأكد أنه سيجتازها بقوة الإيمان الذي يتمتع به. ثم طلب منه دون فيليبو أن يعطيه قائمة بعشرة أشخاص على الأقصى سيُسمح لهم فقط بأن يدخلوا ويخرجوا من الأسقفية. بين أولئك الأشخاص ذكر الأسقف اسم دون بوليا، السكرتير الخاص به، ثم شرح أنه غائب حاليًّا عن باليرمو ولكنه سيعود قريبًا. قال إنه هو الشخص الوحيد الذي لا بد من تركه يمر في أي ساعة في الصباح وفي الليل.

وفي المقر الأسقفي الضخم، وبين الأبواب الرئيسية والثانوية وبوابات العربات والإسطبلات، بالإضافة إلى الأبواب الصغيرة المخفية بطريقة أو بأخرى، كان يوجد تقريبًا اثنا عشر مدخلًا، ولذلك تجاوز عدد الجنود القائمين على الحراسة في الخارج عشرين جنديًّا.

ولم يكن هذا كل شيء. ولكن أولئك الجنود كانوا يوقفون الداخلين ويسألونهم عن غرض الزيارة، ولمن يتوجهون. وفي منتصف النهار عرفت باليرمو كلها أن شيئًا غريبًا يحدث لنيافة الأسقف.

مرت الليلة الأولى بهدوء.

وفي الساعات الأولى من اليوم التالي، طلب مفتش محاكم التفتيش دون كاميلو روخاس إي بينالتا مقابلة دونًّا إليونورا.

رأته فقط مرة واحدة سابقة، عندما حضر ليؤدي فروض الطاعة لها، ولم يعجبها على الفور. نحيف مثل الهيكل العظمي، يرتدي عصابة عين حول رأس الجمجمة، يغطي بها عينه اليسرى، التي فقأها له مسجون، بعد أن أصابته لوثة جراء ساعات التعذيب الطويلة، تظاهر إثرها بأنه فقد الوعي، ثم هجم عليه.

يعطي دون كاميلو الانطباع دائمًا بأنه حيوان متضور متوحش، لأنه كان منذ أعوام طويلة في المجمع المقدس، الذي من حسن الحظ بدأ في التدهور. لم يستطيعوا أن يعثروا على مهرطق في أي مكان سواء بدافع الحب أو النقود، فقد اختفت كل الساحرات، ولم يعودوا يستطيعون وضع أحد على المحرقة في الميادين العامة. ولكن أين اختفى كل الرائعين الخارجين عن الإيمان؟ الآن لا بد أن يكتفي المرء بتعذيب الشهداء المزيفين، الأزواج المتزوجين زوجتين، أشخاص يغتابون ويشهرون بآخرين. كلها أشياء ربما وجب أن تخضع لسلطة العدالة العادية، إلا أنه كثيرًا ما تتولد عملية تنافس بين المحكمتين.

توقعت دونًا إليونورا تلك الزيارة من اللحظة التي فيها حبست الأسقف في مقره، وأعدت نفسها جيدًا.

بدأ دون كاميلو:

- قيل لي إن نيافة الأسقف تورُّو ميندوزا محبوس في مقره، وأتيت إلى هنا لأستنكر بأن المجمع المقدس لم يُبلَّغ في الوقت المناسب، بالاتهامات الموجهة إليه. وذلك تبعًا للأعراف والقانون، فإن أولئك الذين لم يسبق لهم انتهاك...

قاطعته المركيزة:

- هل تعرف حضرتك شخصيًّا ما هي؟

- الاتهامات؟ لا، ولكن سأكون ممتنًّا لو قمت...

- إنه متهم بارتكاب أعمال مشينة ضد صبيين من صبية جوقة الكاتدرائية.

بدت الصدمة على وجه المفتش.

- هل تتحدثين بجدية؟

نظرت إليه دونًا إليونورا من دون حتى أن تجيبه. وضع دون كاميلو يده على جبهته:

- هذا أمر يصعب عليَّ تصديقه!

وهذه المرة أيضًا لم تعلق المركيزة.

- هل اعترف؟

- قال إن الأمر يتعلق بتجربة اختار الرب أن يمر بها.

مسح دون كاميلو شفتيه بلسانه.

- إذا كان مذنبًا، وهو الأمر الذي لم يُحدد بعد، أنا أعرف كيف أجعله يعترف.

بدا وقع تلك الكلمات على دونًا إليونورا مثل لكمة في معدتها. نظرت ببرود إلى دون كاميلو وهي تضيق عينيها كأنهما ثقبان.

- كيف يمكنك أن تتأكد أن شخصًا ما يقول الحقيقة - أو الأفضل أن نقول الحقيقة التي تريده أنت أن يقولها - ببساطة لينهي ما يتعرض له من تعذيب تخضعه له؟

- إذا كان الرجل يقول الحقيقة التي أريد أن أسمعها، فسوف يتمسك بأي من الأحوال بقولها، لأنني أعرف ما هي الحقيقة.

لم تستطع دونًا إليونورا تحمل المزيد من هذا. فهي تحتاج إلى أن تتخلص من رؤية ذلك الرجل أمامها في أسرع وقت ممكن.

- والآن وقد عرفت تهمة الأسقف...

- الآن وقد عرفت، أعتقد أن القضية، بلا شك، تقع تحت سلطات المجمع المقدس. فهي تتعلق بجريمة ارتكبها أسقف.

قالت المركيزة بحدة:

- لا أريد الاحتجاج معك.

قال دون كاميلو بسرعة:

- أرجو أن تعذريني.

استمرت دونًا إليونورا:

- أرجوك، أن تعرض الأمر على قاضي الملكية. فهو أجدر مني على البَت في ذلك.

انحنى دون كاميلو وهمَّ بالرحيل. واستمرت دونَّا إليونورا في التحدث:

- لا بد أن أوضح، في كل الأحوال، أنني بوصفي النائب الرسمي للبابا، فلديَّ السلطة أن أحكم في جريمة ارتكبها أسقف. ولكن، في هذه اللحظة، لا أرغب في عمل هذا.

بعد الغداء، تحدث جايتانو كورُّو، قاضي الملكية، مع دونَّا إليونورا، وبدا عليه القلق الشديد.

- تناقشت طويلًا مع دون كاميلو روخاس إي بينالتا. للأسف ليس لدينا ما يكفي لنردعه.
- هل هذا من حقه؟
- للأسف، أجل. على الرغم من عدم وجود أي وثائق مكتوبة بهذا، ولكن العرف هو أي جريمة يرتكبها الرجال أو النساء التابعون للكنيسة، فهي من تخصص المجمع المقدس. والأهم أن الأمر يتعلق بأسقف، وبرئيس كنيسة صقلية، أخشى أن الأمر يدخل في دائرة تخصص دون كاميلو. لقد قدم لي أمثلة بحالات سبعة قسوس، ومن بينهم أسقف، اتهمهم المجمع المقدس بالجريمة المشينة خلال السنوات الثلاث الأخيرة.
- هل تأكدت، سيادتك، من هذا؟
- بالتأكيد. قرأت كل أحكام الإدانة للسنوات الثلاث الأخيرة؟
- والقضايا التي حُكم فيها بالبراءة أيضًا؟

- أجل، أيضًا تلك التي حكم فيها بالبراءة.
سألت دونًّا إليونورا:
- هل توجد بين تلك القضايا أن المجمع المقدس حكم ببراءة القسوس الذين ارتكبوا تلك الجريمة لأنهم وجدوها اتهامات غير حقيقية؟
- أجل، قضيتان.
فكرت المركيزة في ذلك للحظة، ثم سألت:
- هل تعرف طبيعة العلاقة بين تورُّو ميندوزا ودون كاميلو؟
أظلم وجه قاضي الملكية بوضوح.
- نبخسها حقها إذا أطلقنا عليها صفة أخوية فقط.
توقف للحظة ثم استأنف:
- هذا ما يقلقني. إذا لم يكونا صديقين، لن يكون هناك فارق بين أن نحاكم نحن تورُّو ميندوزا وبين أن تحاكمه محكمة التفتيش. ولكن الآن جعلتني أتساءل إذا لم تكن هذه مناورة غرضها النهائي هو إعفاء الأسقف من اتهاماته.
قالت دونًّا إليونورا بحسم:
- ما دمت موجودة هنا، فهذا لن يحدث.
نظر دون جايتانو كورُّو إلى حذائه. تلك الشعلات السوداء التي تتوهج في عينَي تلك المرأة لا يمكن احتمالها.
سألت المركيزة بعد صمت:
- ماذا يمكننا أن نفعل؟
قال دون جايتانو:

- في الوقت الحالي، أريد أن أحصل على ما يؤكد شكوكنا.
- أي؟
- أن ننقل إلى الأسقف مطالب المجمع المقدس، ونرى رد فعله. إن محكمة التفتيش هي مرادف للتعذيب الوحشي، وأي شخص طبيعي سيدفع ذهبًا حتى يخضع لمحكمة المملكة. ولكن إذا وافق من دون أن يعترض أن تحاكمه محكمة المجمع المقدس، فهذا يعني أنه يثق بصداقته مع دون كاميلو، ويعرف أنه يمكنه الإفلات.

عاد دون جايتانو إلى القصر تقريبًا بعدها بساعتين. تحدث مع الأسقف ورأى الأخير أنه من العدل أن يُحاكمه المجمع المقدس.

لذلك لا يوجد أي شك الآن: دون كاميلو روخاس إي بينالتا سيحكم بأن الاتهامات باطلة.

قالت دونَّا إليونورا:

- وما العمل؟

قال دون فيليبو:

- إذن ليس أمامنا سوى أن نستمر كأن طلب دون كاميلو لم يحدث قَطُّ.
- وماذا سنربح؟
- الوقت يا سيدتي. سنربح وقتًا ثمينًا. قبل أن يتمكن دون كاميلو من تجديد طلبه بطريقة أكثر حماسًا، ومن خلال رسالة مكتوبة،

يجب أن نكون قضينا وحكمنا بالإدانة على الأسقف. وكل هذا يجب أن ننهيه في أسرع وقت ممكن.

في الوقت نفسه، الذي كانت فيه الشمس ساطعة سواء في إسبانيا أم في صقلية، حدث شيئان غاية في الأهمية.

الشيء الأول أن صاحب العظمة ملك إسبانيا تلقى بسرعة خطاب البابا. قرأه. ثم قرر أن يجتمع على الفور مع مستشاريه.

كان النقاش وجيزًا، وبعدها بثلاث ساعات كان الرد جميلًا وفوريًا.

اعترف سموه على الفور، وبلا أي مجهود، بالصعوبة الجادة التي وجدت فيها الكنيسة المقدسة الأم نفسها، بأن يصبح لديها نائب بابوي امرأة، ولكن على الرغم من صعوبة الموقف على قلبه، فهو مستعد أن يستدعي دونًا إليونورا، مركيزة قصر رودريجو، إلى إسبانيا.

ولكن بشرط وحيد، الذي لن يتنازل عنه، شرط لا غنى عنه، كما اعتادوا القول في روما القديمة.

والشرط هو، نظرًا إلى أن دونًا إليونورا قد تصرفت، انطلاقًا من سلطة فعلية، بمعنى، فيما يتعلق بالمملكة، ولم تستخدم قَطُّ سلطتها كنائب رسولي للبابا، فإن جلالته لا يرى أي سبب لإلغاء تشريعات الحكومة والعدالة التي قامت بها، أو شرَّعتها حتى اليوم الأخير من شهر سبتمبر. وبما أنها كلها أمور تتعلق بمملكة إسبانيا وليس بالكرسي البابوي. إذ إن جلالة الملك إذا ألغى أعمال نائب الملك،

سيظهر ذلك كأنه تدخل من الكنيسة في أعمال المملكة. «ما تمَّ يا عزيزي البابا لا يمكن إلغاؤه، ولهذا لا تراجع فيه».

إذا وافق البابا على هذا الشرط، فهذا حسن. إذا لم يوافق فلن يتم استدعاء نائب الملك للعودة.

فليختَر هو.

في هذا الوقت، وفي انتظار رد قداسته العاجل، ينحني جلالة الملك بتواضع وبنوية وتكريس أمامه.

والشيء المهم الثاني الذي حدث هو أن كوكُّو أليتُّو، رجل في الستين، استيقظ.

لم يكن الأمر بالطبع شيئًا خارقًا للطبيعة، أن يستيقظ الإنسان في الصباح.

ولكن الواقع، في هذه الحال، أن كوكُّو أليتُّو لم يستيقظ من نوم ليلي عادي، ولكن من حالة دهشة من الثمالة الطويلة جدًّا، إلى حد أنه هو نفسه لم يعرف كم من الأيام والليالي قضاها على هذه الحال.

وكل هذا حدث عندما ظهر رئيسه السابق، دون سيفيرينو لوماشو، مركيز روكَّالوميرا والقاضي السابق للمملكة، الذي أُلقي به في السجن وصُودرت كل ممتلكاته، ظهر على باب حجرته المفردة التي اضطر كوكُّو إلى أن يعيش فيها.

طلب منه دون سيفيرينو إذا تكرم ومنحه فراشًا، وأعاره كوكُّو فراشه.

وتقاسم حساءه معه.

ثم في مساء اليوم التالي، عاد دون سيفيرينو في حالة نشوى:

- ربما دارت عجلة الحظ في صالحي يا كوكُّو!

كتب خطابًا طويلًا وسلمه إليه قائلًا:

- إذا لم أعد هذا المساء، فلا بد أن تعطي هذا على الفور لقائد العدالة.

ومع الخطاب وضع على المائدة حفنة من النقود.

- وهذه لك مكافأة على تعبك.

ثم رحل.

لم يمتلك كوكُّو من قبل كل هذا المال، حتى في الفترة التي عمل فيها خادمًا في قصر لوماشو.

فكر في أنه من الأفضل أن يظل مستيقظًا ليتأكد من عودة دون سيفيرينو. وضع النقود في جيبه، وأخذ قدرًا وخرج إلى أقرب حانة، ليملأها بالنبيذ، ثم عاد وبدأ يشرب.

خبَّأ الخطاب أسفل الحشية التي كان يستخدمها كفراش.

عندما رأى ضوء الصباح، أدرك أن دون سيفيرينو لم يعد.

قرر أن ينهي قدر النبيذ، ويذهب إلى قائد العدالة. ولكن فجأة سقط في النوم.

عندما استيقظ لم يدرِ كم من الزمن قد مر. إلا أنه أقنع نفسه بأن دون سيفيرينو قد خرج لتوه. ولذلك نهض وذهب ليملأ القدر من جديد.

إلا أنه في ذلك الصباح، أدرك أنه لا بد أنه قد مر وقت طويل. من حسن حظه كان لديه بعض المياه في الحوض، فاغتسل واتجه إلى

بلاط قائد العدالة، وهو المكان الذي يعرفه جيدًا، حيث اعتاد تسليم الخطابات كل يومين عندما كان دون سيفيرينو قاضيًا.

في الواقع، تعرف عليه الموظف الذي اعتاد أن يتسلم منه الطلبات والبلاغات.

ثم، بعد تكرار ما قاله له دون سيفيرينو من كلمات، سلمه الخطاب الذي بعده بساعة كان أمام عينَي كبير قادة العدالة، ويبدأ كما يلي:

> صاحب السعادة دون فيليبو أركاديبانه، يكتب لك هذا الخطاب من كان يومًا ما قاضي الملكية، وجلس يومًا ما في المجلس الملكي المقدس، والآن ليس إلا سيفيرينو لوماشو، بائس غارق في اليأس ومُجبر على أحط الأساليب ليبقى على قيد الحياة.
> على قيد الحياة؟
> إذا قرأت تلك الأسطر فهذا لا يعني سوى أمر واحد: أنني ميت.
> أنني مت مقتولًا، ولذلك لتعلم أن من أمر بقتلي، ربما سكرتيره، الذي يبدو لي اسمه بوليا، هو نيافة الأسقف تورُّو ميندوزا.
> وسأخبرك بالأسباب، من دون أي شفقة على نفسي أولًا وأبدًا.

وبعدها يشرح الخطاب كيف أنه بمجرد أن عرف بالمصادفة عن تعرض الأسقف الوشيك للمحاكمة بسبب ما ارتكبه من جرائم مشينة مع اثنين من صبية الجوقة، ذهب على الفور ليقابل نيافته، ليطلب منه ثلاثة آلاف سكودو في مقابل المعلومة وستة آلاف ليخبره على طريقة ليخرج بها من ورطته.

ويطلب المعذرة من القائد، فهو يعترف أنه لم يرَ من المناسب أن يخبره في الخطاب بالحل المُقترح. سيبقى هذا سرًّا بينه وبين الأسقف.

ولكنه كان متأكدًا أن تورُّو ميندوزا سيقبل العرض ويدفع له مقدمًا.
ولكنه كان متيقنًا أيضًا أن الأسقف سيفعل كل ما في وسعه ليستعيد النقود التي دفعها، مستخدمًا خدمات سكرتيره، دون بوليا. ولهذا فإنه، دون سيفيرينو، في خطر مميت.

في رأيه، اللحظة الأخطر هي تلك التي سيترك فيها مقر الأسقفية، ويستقل العربة وبها الأكياس الصغيرة وبداخلها الأموال. ويعتقد أنه لو استطاع دون بوليا أن يتبعه، سيحدث ذلك فقط في غابة لافافوريتا، حيث إنه مجبر على المرور عبرها ليصل إلى المكان الذي منه سيركب السفينة.

وأنهى خطابه أنه يتمنى ألا يصل هذا الخطاب على الإطلاق إلى قائد العدالة.

ولكن إذا حدث هذا، فهو يعبر عن أمله في أن يساعد هذا على إلقاء الأسقف في السجن.

بمجرد أن قرأ هذا الخطاب مكث دون فيليبو أركاديبانه يفكر.

وبما أن الخطاب قد وصل إليه، فهذا معناه أن دون سيفيرينو قُتل، والأسقف استعاد أمواله.

ولكن الخطاب لا جدوى له، فالأسقف يمكنه بسهولة الدفاع عن نفسه قائلًا إن دون سيفيرينو اخترع كل هذا.

ولكن شيئًا وحيدًا يمكن أن يصنع كل الفارق.

أرسل لاستدعاء أوريليو تورِّيجروصًّا.

– في الأيام الأخيرة، هل وصلت أي جثث إلى مستشفى الرحمة في الأيام السابقة على طريق العربات الذي يقطع غابة لافافوريتا؟

- أجل يا سيدي، جثة واحدة. رجل يملك عربة، يؤجرها ويقودها بنفسه. تعرفت زوجته على الجثة.

أصاخ دون فيليبو السمع.

- هل عثرتم على العربة؟

- لا يا سيدي.

- دعهم يقولوا لك بالتحديد المكان الذي عثروا فيه على الجثة، ثم لنذهب إلى هناك.

- إلى لافافوريتا؟

- لمَ لا؟ اليوم يوم جميل، نزهة في الهواء الطلق ستفيدنا.

الفصل السابع عشر
يوم حل كل العُقد

كما يليق به كمحقق بارع، لم يحتَج تورِّيجروصًّا إلى الكثير من الوقت ليكتشف البقعة التي وقع فيها الحوذي المجروح بالفعل، ومات، ثم على مسافة قريبة، عثر على بقعة دماء كبيرة مختلطة بالتراب.

- بالتأكيد كان هناك شخص آخر جريح.

قال دون فيليبو:

- أجل، أرى هذا أيضًا. ولكن أين انتهى أمره؟

لم يحصل على إجابة لأن تورِّيجروصًّا أصبح مشدودًا بجملته مثل كلب الصيد، وبدأ يسير داخل الغابة.

- إلى أين؟

ولم يحصل على إجابة عن هذا السؤال أيضًا. مكث على الطريق، لا يدري ماذا يفعل.

ثم سمع صوت تورِّيجروصًّا.

- هنا يا سيدي!

بمجرد أن عبر وسط الأشجار، اكتشف زقاقًا مخفيًّا عن الطريق. تبعه، وسرعان ما وجد نفسه خلف تورِّيجروصًّا.

- انظر هناك.

ووسط كتلة من الأعشاب البرية، وجدا كوخًا شبه خفي، مصنوعًا من الأغصان والطمي والخشب. أمامه يجلس على الأرض رجل يحدق إليهما.

اقتربا. لم يتحرك الرجل الذي بدا في الأربعين، لحيته طويلة، وشعره مبعثر، وصدره المُشعر بكثافة عارٍ، وعيناه متوحشتان.

قال دون فيليبو:

- لا بد أن أسألك بعض الأسئلة.

- اذهبا في داهية أنتما الاثنان.

كسرت له ركلة تورِّيجروصًّا سنتين أماميتين، وأنفه. أغمض الرجل عينيه وفقد الوعي.

ربط تورِّيجروصًّا يديه بالسلسلة التي يحملها معه دائمًا، واستخدم حبلًا ليربط قدميه. ودخلا إلى الكوخ.

عثرا على ملابس تبدو من أفضل الأنواع، بما في ذلك سترة ممزقة من الظهر، وعليها بقعة دم كبيرة، معلقة على مسمار. على الأرض حذاء طويل الرقبة من جلد فاخر.

وفي أحد جيوب السترة عثرا على خاتم ذهبي مختوم بشعار مركيزية روكَّالوميرا.

ليس هناك أي شك، تلك الأشياء لدون سيفيرينو لوماشو.

لقد عرى الرجل الجثة واستولى على ما عليها.

عادا إلى الخارج، وكانت عينا الرجل مفتوحتين مرة أخرى.

سأله تورِّيجروصًّا وهو يرفع من جديد قدمه كأنه على وشك أن يركله مرة أخرى:

- أين وضعته؟

تمتم الرجل:

- انظر خلفك.

ذهبا خلف الكوخ، ورأيا على الفور بقعة التراب المقلوب حديثًا.

قال تورِّيجروصًّا وهو ينحني إلى أسفل:

- ليست عميقة.

وبدأ يزيل التراب بيديه.

وبعد قليل، ظهر وجه.

قال دون فيليبو أركاديبانه:

- إنه مركيز روكَّالوميرا.

ومن دون أن يضيع دقيقة واحدة، هرع قائد العدالة ليخبر قاضي الملكية عن الخطاب واكتشاف الجثة، وهرعا كلاهما إلى البلاط.

لم تصدق دونًّا إليونورا ما سمعته. وعلى الفور اتخذت قرارها.

- نظرًا إلى أن التهمة الرئيسية هي القتل المزدوج، فإن القضية لم تعد تحت سلطة المجمع المقدس، ولكن أصبح الأمر في يد المحكمة الملكية. والآن أصبحت الجريمة المقترفة في حق الصبيين الصغيرين تهمة ثانوية، ومن ثَمَّ سيُحكم فيها أيضًا من قِبل المحكمة نفسها. من فضلك أبلغ دون كاميلو.

قال دون جايتانو كورُّو:

- على الفور.

سألت المركيزة:

- متى يمكننا بداية المحاكمة؟

قال دون فيليبو:

- بالنسبة إليَّ، يمكننا أن نبدأ غدًا صباحًا.

وقال دون جايتانو:

- وأنا أيضًا جاهز.

- إذن لتكن صباح الغد. ولكن أود أن يحضر الأسقف الجلسة الأولى.

سأل دون فيليبو:

- هل هذا يعني أنه يجب أن يظهر مقيدًا غدًا في قاعة المحكمة؟

- مُقيدًا أم لا، أريده أن يحضر. إنه حقه في كل الأحوال، أهم شيء ألا يعرف أحد أنه قُبض عليه.

وكانت هذه هي المشكلة، حك دون فيليبو أركاديبانه رأسه لأنه لا يعرف كيف يمكن ذلك.

عندما عاد إلى مكتبه، وصل إلى نتيجة أن الحل الوحيد هو التحدث في الأمر مع تورِّيجروصًّا.

قال تورِّيجروصًّا بعد أن شرح له دون فيليبو المعضلة:

- دعني أفهم ذلك جيدًا. عند غروب الشمس يخرج الجميع من مقر الأسقفية، ويبقى الأسقف فقط بالداخل لينام ومعه سكرتيره؟

- الأمر كذلك.
- والأسقف ينام في حجرة نومه، والسكرتير ينام في غرفة الاستقبال؟
- أجل.
- والبوابة الكبيرة يغلقها عند غروب الشمس الحراس الذين يمكثون في نوبة الحراسة طوال الليل؟
- أجل.
- هل يمكن أن تصنع لي معروفًا وتخبر أولئك الجنود أن يمرروا عربة بها أربعة رجال لديهم حمولة من النبيذ؟

تردد دون فيليبو:
- نبيذ؟
- دعْ لي هذا الأمر.

بعد ربع ساعة من إغلاق البوابة الرئيسية لمقر الأسقفية، توقفت أمامها عربة يجرها حصان نحيف للغاية، عليها رجل يمسك باللجام، ورجال آخرون، من الواضح أنهم شبه سكارى.

وفي وسط العربة، برميل ضخم، مربوط جيدًا بالحبال.

قال الرجل الممسك باللجام:
- أحضرت النبيذ.

لم يقُل جنود الحراسة، الذين سبق ووصلت إليهم التعليمات، كلمة واحدة، وفتحوا البوابة على الفور.

قبل أن يدخل، قال الرجل:

- اتركوها مفتوحة، سنخرج بعد قليل بعد أن نُفرغ البرميل.

عبرت العربة الردهة، واختفت عن أنظار الحراس.

أوقفها تورِّيجروصًا، الذي كان هو الرجل الممسك باللجام، بالقرب من باب السكن الخاص للأسقف.

- هيًّا يا رجال لنفرغ البرميل.

أنزلوا البرميل من العربة، ووضعوه على الأرض على أحد جانبيه المُسطحين. ترجل تورِّيجروصًا من العربة، وانحنى نحو البرميل، رفع بيديه الجزء المستدير فارتفع الجزء العلوي كأنه الغطاء. استغرق الأمر ثلاث ساعات ليعده معلم نجار ومعه معلم حداد.

قال تورِّيجروصًا:

- لندعه هنا ونصعد.

كان الباب مفتوحًا، صعدوا بسرعة وبخفة. وجدوا أنفسهم أمام باب آخر، ولكنه مغلق.

قال تورِّيجروصًا بصوت منخفض:

- إنه الباب المؤدي إلى غرفة الاستقبال.

أدار المقبض ودفع الباب، فانفتح. تراجع تورِّيجروصًا مع اثنين آخرين، وأشار إلى لوتزو لوباريلُّو، الذي كان ضخمًا، أن يدخل أولًا.

فتح لوتزو الباب، وعلى الفور أخذ ينظر حوله متظاهرًا بالدهشة.

نهض دون بوليا، الذي يرتدي ملابسه، ويجلس على الفراش الذي أُعد له في حجرة الاستقبال، ممسكًا بخريطة يقرأها على ضوء شمعة.

سأل مفزوعًا:

- من أنت؟

وعلى الفور مد يده ليخرج خنجرًا يحفظه مربوطًا في ساقه.
قال لوتزو بصوت مرتبك، لشخص شرب كثيرًا:
- أنا آسف جدًّا! ولكنني تائه ولا أعرف سبيلًا للخروج من هذا المبنى الملعون.
قال دون بوليا وهو يقترب منه:
- اخرج من هنا!
وارتكب بذلك خطأً فادحًا.
لأن قبضة لوتزو وصلت على الفور إلى فم معدته، تلتها ركلة قوية إلى خصيتيه، أطاحت به أرضًا من دون أن يستطيع أن يتفوه بكلمة.
وفي طرفة عين وجد نفسه مربوطًا ومحاطًا بثلاثة رجال يتحركون من دون أن يتسببوا في أي ضوضاء ثم ألقوا به على الفراش.
عندئذٍ، قال تورِّيجروصًّا وهو يفتح باب حجرة الأسقف ويدخلها:
- هل يمكنني الدخول؟
رفع تورُّو ميندوزا، الجالس أمام مكتبه يكتب، عينيه وشحب وجهه.
ثم نهض وبأنَّة طويلة، سقط على ركبتيه.
قال تورِّيجروصًّا:
- صاحب النيافة، حضرتك مخطئ، أنا لست الأب السماوي.
توسل إليه تورُّو ميندوزا، وهو يرفع يديه كأنه يصلي، وجسده كله يرتجف:
- الرحمة! لا تقتلني! أتوسل إليك! سأعطيك كل ما تريده من أموال! لا تقتلني!

- أخطأت مرة أخرى يا صاحب الغبطة. أنا هنا فقط لآخذك إلى السجن. ولكن من سيقتلك هو السياف. حضرتك لك الاختيار: هل ستأتي معنا بالحسنى أم بصعوبة؟

استسلم الأسقف الذي كان يخشى الأسوأ. وقال:

- قُل لي ماذا يجب أن أفعل.

- لا شيء، فقط تعالَ معنا.

وحمل رجلان دون بوليا.

ساعد لوتزو الأسقف أن ينزل السلالم وهو يسنده من كتفيه، حيث كاد يسقط من على السلالم وتُكسر عنقه، لما كانت عليه حال ساقيه المرتعشتين.

أول شيء، أدخلوا دون بوليا إلى البرميل وهو مُقيد ومكمم. ولكن ظهرت المشكلة عندما أرادوا إدخال نيافته. فقد دخلت قدماه ثم ساقاه بسهولة ولكن عرقل بطنه الدخول على الفور، ولم يستطيعوا إدخاله.

بينما يمسك أحد الرجال بذراع الأسقف، حاول لوتزو أن يحشر لفافات الشحم المحيطة ببطنه إلى الداخل، ولكن كتلة الشحم أخذت تتحرك تارة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار ومنعته من السقوط.

عندئذٍ تدخل الرجل الآخر وتورِّيجروصًا أيضًا لدفعه من الجانبين بينما يدفعه لوتزو من المنتصف.

- واحد، اثنان، ثلاثة... ادفع!

وهكذا، سنتيمتر تلو سنتيمتر، ومن خلال قوة الدفع، والضغط والقرص والسباب، عبر البطن.

ثم وضع تورِّيجروصًّا الحلقة التي تمنع فتح البرميل من الداخل، ولكن الآن وجدوا أنفسهم أمام مشكلة أخرى.

لأن أربعتهم لم يستطيعوا رفع البرميل بالاثنين بداخله. واضطروا إلى أن يلجأوا إلى عملية دقيقة، فقاموا بفك العربة عن الحصان، وإمالة العربة على محاورها، دحرجة البرميل فوقها، ثم إدخاله إلى العربة، وربطه بالحبال، ثم ربط كل شيء مرة أخرى بالحصان.

وأخيرًا استطاعت العربة الخروج بالبرميل والرجال الأربعة من مقر الأسقفية.

وفي ردهة السجن، ولكي يخرجوا الأسقف ودون بوليا، اضطروا إلى أن يحطموا البرميل.

في ذلك المساء وبين ملابس الأسقف عثروا على مفتاحين فقط، ولكنهما ضخمان، ورفض هو بعناد أن يقول أي الأبواب يفتحان.

عندئذٍ ذهب كبير القادة ومعه تورِّيجروصًّا وعشرة رجال آخرين وبحثوا في مسكن تورُّو ميندوزا الخاص، لكنهم لم يجدوا شيئًا مهمًّا.

وفي أثناء خروجهم محبطين لاحظ تورِّيجروصًّا أن المائدة في حجرة الطعام مجهزة لاثنين، والأطباق بما فيها من طعام بارد لم تُمس. من الواضح أن الوقت لم يتسع للأسقف ودون بوليا لتناول العشاء قبل القبض عليهما.

ولكن ما لفت انتباه تورِّيجروصًّا هو ذلك الإناء الصغير من النبيذ المُغطى بالتراب، الموضوع على الطاولة فوق قاعدة خشبية. فتح

الغطاء قليلًا، ووضع يده أسفلها وقربها من فمه، كان مذاقه رائعًا، مثل نبيذ معتق من أفخر الأنواع. يعرف نيافته أن يعامل نفسه معاملة جيدة.

قال لكبير القادة:

- لا بد أن الأسقف لديه قبو النبيذ الخاص به.

- لنذهب ونلقِ نظرة.

نزلوا إلى الطابق الأرضي. وبجوار المدخل الرئيسي تمامًا وجدوا بابًا آخر. ووضعوا واحدًا من المفتاحين في الباب. كان المفتاح الصحيح. فُتح الباب على مصطبة سلالم تهبط إلى أسفل. وفي نهايتها باب آخر، ولكن مصنوع من الحديد. فُتح بالمفتاح الثاني.

كان مخزنًا ضخمًا. بعد ساعتين من البحث الطويل في كل مكان، وجدوا فتحتين كبيرتين خلف برميل. في داخلها وجدوا عشرة أكياس من عملات السكودو الذهبية، اثنان منها ملطخان بالدماء.

لم يعلم أحد في باليرمو أن الأسقف ينتظر محاكمته. لأن دونًّا إليونورا، حتى لا تثير الشكوك، أمرت الحراس خارج المقر الأسقفي أن يستمروا في عملهم، كأن نيافته لا يزال بالداخل، في مسكنه.

لكن قبل أن تبدأ المحاكمة، أبدى تورُّو ميندوزا اعتراضًا مهمًّا.

كانت نيته الخفية هي أن يكسب الوقت في انتظار رد البابا. لذلك قال لكبير قادة العدالة، إنه، نظرًا إلى كونه رئيس كنيسة صقلية، لا يمكن محاكمته بواسطة محكمة اعتيادية، ولكن من قِبل محكمة على قدر أهمية المنصب الذي يشغله.

تحدثت دونًّا إليونورا مع قاضي الملكية ووصلا إلى نتيجة أن

المجلس الملكي المقدس بأكمله هو من سيقوم بمحاكمته، وهو شيء لم يحدث من قبل.

ولكن الشيء الجديد الوحيد الذي طرأ على القاعة هو أنهم وضعوا مقعدًا في منتصفها للمتهم. ورفضت دونًّا إليونورا الحضور.

رأس الجلسة قاضي الملكية، ووجه إليه قائد العدالة التهمة.

- الجريمة الأولى التي تواجهها هي أنك أمرت بقتل دون سيفيرينو لوماشو، مركيز روكَّالوميرا، وحوذي عربته آنيباله سكيرو، ونفذ القتل عمليًّا سكرتيرك دون فالنتينو بوليا.

منذ أول كلمة، ذُهل الأسقف وفزع، إذ توقع أن يُحاكم على جريمته المشينة وليس بجريمة قتل مزدوجة. كيف استطاعوا أن يعرفوا؟

ثم بدأ يتصببُ عرقًا باردًا.

لأنه فجأة عاد إلى ذهنه ما قاله دون سيفيرينو عن الخطاب الذي كتبه إلى قائد العدالة، وهو لم يصدقه.

وبالفعل، أكمل دون فيليبو أركاديبانه:

- والتهمة يدعمها خطاب، كان دون سيفيرينو...

قاطعه الأسقف:

- خطاب لا يعني أي شيء. أتى مركيز روكَّالوميرا بالفعل ليطلب مني نقودًا، ورفضت طلبه. وهذا هو انتقامه.

استأنف دون فيليبو:

- في الخطاب، يتوقع المركيز بوضوح أن سيادتك، لاستعادة الستة آلاف سكودو التي ستعطيها إليه بشأن معلومة ثمينة، ستأمر دون بوليا بقتله في غابة لافافوريتا.

- يتوقع، يتوقع... كلها ثرثرة! ليس بين أيديكم أي شيء يمكنه...

- عثرنا على جثة المركيز، مطعونة بوضوح في الظهر. ولدينا شاهد عيان على الجريمة، الذي نزع الملابس عن جثة دون سيفيرينو، وعثرنا في مخزنك على كيسين من الأموال الذهبية الملطخة بالدماء.

أدرك الأسقف أنه انتهى.

فتح فمه من جديد ليقول شيئًا، ولكن على الرغم من محاولاته فلم يُخرج منه شيئًا.

- في النهاية، لا بد أن أخبرك بأن هذه الليلة اعترف دون بوليا بارتكاب الجريمتين.

نسي دون فيليبو أن يقول إنهم في السجن استخدموا بعض الزيت المغلي الذي أخذ يسقط نقطة تلو نقطة على لحمه ليقنعه بأن يتكلم. وسوف يحتاط أيضًا جيدًا من ألا يقول هذا أيضًا لدونَّا إليونورا.

وهنا عثر الأسقف على القوة ليصرخ:

- لا أصدق هذا!

أمر كبير القادة الحارسين الواقفين بجوار الباب:

- أدخلا دون فالنتينو بوليا.

خرجا وعادا وهما يمسكان بذراعَي دون فالنتينو، الذي لا يستطيع الوقوف.

وعلى صدره العاري تظهر علامات حرق كبيرة.

قال دون بوليا للأسقف هامسًا:

- سامحني.

عندئذٍ غطى الأسقف عينيه بيديه، ولم يقُل أي شيء.

وأخرجوا دون بوليا.

- هل تعترف بأنك من أمر بقتل دون سيفيرينو لوماشو؟

قال الأسقف:

- أجل، ولكن لم أكن أعرف أي شيء عن الحوذي.

- لننتقل إلى التهمة الثانية التي تتعلق بارتكاب أعمال مشينة لاثنين من صبية جوقة الكاتدرائية. والشاهدان الرئيسيان على هذا هما الطبيبان اللذان عالجا الصبيين بعد أن تسببتم في...

قاطعه تورُّو ميندوزا:

- يكفي هذا، يكفي هذا. أعترف بأنني عرضت هذين الصبيين لشهواتي. وإذا أردتم معرفة الحقيقة، فهو أمر يحدث منذ أعوام. إلا أن أحدًا لم يجد الشجاعة للإبلاغ عني. ولكنني أعلمكم الآن، لن أجيب عن أي سؤال آخر، ولننهِ الأمر عند هذا الحد.

وبالفعل انتهت المحاكمة عند هذا الحد، لأنه لم يكن هناك شيء آخر على الإطلاق، ولم يحتاجوا إلى استدعاء الشهود.

ربما كانت هذه أقصر محاكمة في تاريخ المحاكمات.

اقتيد الأسقف إلى حجرة انتظارًا للحكم، وأغلق المستشارون حجرة القاعة حتى لا يسمعهم أحد.

بالنسبة إلى دون بوليا، ونظرًا إلى أنه المُنفذ الفعلي للجريمتين، فهو محكوم عليه بالإعدام، بلا شك لدى أي من المستشارين.

إلا أن النقاشات، والحامية أيضًا، دارت حول عقوبة تورُّو ميندوزا: هل يحكمون عليه بالإعدام أم بالسجن مدى الحياة؟

تمسك دون فيليبو أركاديبانه أنه بين المؤبد والموت لا يوجد أي فارق، ولذلك لا بد من الحكم بالإعدام على كليهما. ومن جهته، اتفق قاضي الملكية مع دون فيليبو، ولكنه أوضح أن الحكم بالمؤبد على أسقف ستكون له تبعاته الخطيرة على العلاقة بين إسبانيا وكرسي البابوية، ولنتخيل إذن ما يمكن أن يتسبب فيه الحكم بالإعدام.

عرضوا الأمر على دونَّا إليونورا.

في البداية قالت إنها لا تريد على الإطلاق التدخل في قرارات المحكمة الاستثنائية، ثم في النهاية قالت رأيها:

- أعتقد أن الأسقف لا بد أن يُحكم عليه رسميًّا بالإعدام. ولكن في أثناء إعلان الحكم في المحكمة، ستقدم هيئة الحكم التماسًا إلى نائب الملك، بالعفو عن المحكوم عليه، وتخفيف الحكم إلى السجن مدى الحياة. وأنا، بطبيعة الحال، سأوافق على طلب هيئة المحكمة.

وهذا ما حدث.

ثم كتب دون بنديتو أروزيو، أسقف باتِّي، بعد إذن المركيزة، خطابًا إلى البابا يشرح له كيف اضطروا إلى الوصول إلى هذا القرار المؤلم بحبس أسقف باليرمو، وأنهم الآن في حاجة إلى من يحل محله.

ولكنه قرر أن يأخذ وقته في إرسال الخطاب، وأن ينتظر أسبوعًا على وجود الأسقف في السجن.

لكن في أثناء ذلك، عندما استلم البابا خطاب ملك إسبانيا، وقيَّم

عرضه، وأنه في نهاية الأمر يرى استدعاء نائب الملك إلى إسبانيا أهم بكثير من الإصرار على إلغاء كل ما فعلته.

لذلك لم يضيِّع الوقت، ورد على صاحب الجلالة قائلًا إنه مستعد للموافقة على شرطه.

إذا وصل إليه آنذاك خبر إلقاء القبض وحكم الإدانة على تورُّو ميندوزا، لأحدث ضجيجًا، ولكن وصل خطاب أسقف باتِّي متأخرًا جدًّا.

في المساء نفسه الذي حُكم فيه على تورُّو ميندوزا، على مائدة العشاء، لاحظ دون سيرافينو حزن دونَّا إليونورا. الأمر العجيب هو أن ذلك الحجاب الهزيل الذي بدا وقد نزل على عينيها، بدلًا من أن يخفي روعتهما، جعلهما تبدوان أكثر مثل بحيرة بلا قاع، مسحورة وساحرة، حيث تنعكس نجوم السماء في الليل، وتلمع مثل الأضواء المتألقة.

لم ترغب المركيزة في التحدث، واحترم دون سيرافينو صمتها. ولكنه كان على استعداد أن يمنح حياته، بل نفسه أيضًا، ليعرف سبب حزنها هذا، ويخفيه.

ثم قالت فجأة:

- كل من أهانوا زوجي، دفعوا الآن الثمن. الآن يمكن أن يرقد أنجيل في سلام، لأنني انتقمت له.

قال دون سيرافينو:

- لكنك لم تنتقمي. لقد أقمتِ العدل. أولئك المستشارون كانوا كلهم فاسدين، وما فعلتِه هو معاقبتهم على فسادهم. الإهانة التي

طالت نائب الملك ليست سوى نتيجة لتصرفاتهم وأفكارهم شديدة الفساد. لستِ امرأة تنتقم، ليس هذا جزءًا من طبيعتك، لا يوجد في طبيعتك سوى العدل.

كانت تلك الكلمات بمنزلة هبة ريح أبعدت الضباب بعيدًا. وفجأة اختفى الحجاب من فوق عينَي المركيزة.

مدت دونًّا إليونورا يدها، ووضعتها على يد دون سيرافينو وأمسكت بها.

- أشكرك. أنت تفهمني أفضل مما أفهم أنا نفسي.



الفصل الثامن عشر
خاتمة ليست سعيدة
وليست حزينة

كان يومًا مُرهقًا جدًّا لدونًّا إليونورا. لديها الكثير لتفعله، جميعها أشياء متعاقبة، بين الاحتفالات واستقبال زيارات خاصة.

الاحتفال الأول كان بملجأ السبيداليتُّو، إذ أعيد تجديده، حيث ستجد العذارى المعرضات للخطر منزلًا لهن، والثاني كان بافتتاح ملجأ المادلينات التائبات الذي يستقبل العاهرات السابقات، واللاتي بسبب المرض أو التقدم في السن لا يستطعن ممارسة مهنتهن.

كانت احتفالات غاية في البساطة، أمرت المركيزة بألا يكون بها أي صخب.

كان في استقبالها ومعها أميرة ترابيا، التي رغبت المركيزة في حضورها هذه المناسبة، دون جايتانو كورُّو، قاضي الملكية، وهو يشعر بالفخر بهذا العمل الضخم الذي استطاع إنجازه في تلك المدة الوجيزة.

وكان لديه كل الحق في الفخر. فعدد اليتيمات الصغيرات المنتشلات

من الطرقات وصل إلى مائتين وخمسين يتيمة، والمسكينات المسنات تقريبًا مائتين.

وجميعهن الآن، بفضل دونًا إليونورا، ليس أمامهن سوى أيام مقبلة من الفرح والسلام.

على الرغم من أن اليتيمات توسلن إليها بإلحاح أن تقول كلمة ما بعد كلمات البركة التي ألقاها أسقف باتِّي، فإن المركيزة لم ترغب في التحدث.

اكتفت بأن تحتضن وتقبل أصغر الفتيات التي كان عمرها ثلاثة عشر عامًا.

والشيء نفسه فعلته في المنزل الآخر.

احتضنت وقبلت الأكبر سنًّا بين الناجيات، ولكن هذه المرة قالت لها في أذنها ثلاث كلمات:

- استريحي أختي العزيزة.

والاحتفال الثالث كان الخاص بملجأ سانتا تيريزا، الذي تهتم به راهبات الدير ويحمل الاسم نفسه، حيث تقيم العذارى المعرضات للخطر، أو أولئك اللاتي خضعن لاختبار القابلة سيدونيا، ولكن تعرضن للاعتداء ضد رغباتهن.

بعدها استقبلت زيارة مائة فتاة ممن خُصصت لهن نقود المهر الملكي للزواج.

وفي نهاية هذا الصباح، الطويل جدًّا، عادت المركيزة إلى البلاط، متعبة ولكن فرحة.

بعد الغداء، جاء دون إستبان ديلّا تيرنا، كبير المفتشين، ليزورها زيارة الوداع. بعد باليرمو، جرى دون إستبان في كل أرجاء الجزيرة مثل المقطورة، وأرسل إلى السجن عددًا كبيرًا من غير الشرفاء، بداية من رئيس مخزن السفن في ميسينا، والمركيز أوريليو سبانُّو البيفوني، الذي كان يستحوذ على أموال الضرائب، إلى رئيس المالية في كاتانيا، وتروبيانو، حاكم كالاشيبتًا. وصادر كمية ضخمة من الأموال والمنازل والأراضي ثمار صفقات غير قانونية، التي ذهبت في النهاية إلى الخزانة الملكية.

وكانت الكلمات الأخيرة التي قالها دون إستبان لدونًّا إليونورا هي:

- سيكون لي عظيم الشرف أن أخبر جلالة الملك بجليل استحقاقاتك.

وبعدها خرج وهو يتراجع إلى الوراء من دون أن يعطيها ظهره، احترامًا لها.

في المساء وبينما تتناول دونًّا إليونورا العشاء مع دون سيرافينو، دار الحوار حول محقق محاكم التفتيش دون كاميلو، الذي اكتفى بأن كتب خطابًا رسميًّا يعترض فيه على حكم إدانة الأسقف ولم يضِف شيئًا آخر. يبدو أنه لم يستطع التفكير في شيء آخر.

وحكى دون سيرافينو للمركيزة أنه في القرن السادس عشر ولمدة ثلاثة وعشرين عامًا، شهدت باليرمو محققًا تابعًا لمحاكم التفتيش، دون لويس رينكون ده بارامو، الذي كان متعصبًا جدًّا ومتعطشًا للدماء، يدون اسم ولقب مئات ممن أمر بقتلهم. وأضاف أن من

بين من سجنهم من باليرمو رجلًا ثائرًا، معارضًا بالسليقة للسلطة ولرجالها ولكنه كان شاعرًا، شاعرًا حقيقيًّا، وكان اسمه أنطونيو فينتزيانو.

- شاعر؟ هل تعرف بعض أشعاره؟
- يمكنني تلاوة بعض قصائده من الذاكرة.
- على الأقل قُل لي واحدة.
- تلك الأبيات مكتوبة باللهجة الصقلية، إذا أردتِ، فيما بعد أترجمها لكِ.
- أرجوك، ألقِ بشيء منها الآن.

كان دون سيرافينو يعرف نحو عشر من قصائده، ولكن لم تخطر على ذهنه سوى واحدة، وواحدة فقط.

ولم يكن هناك داعٍ ليتساءل عن السبب:

لشدَّة ما أُخذت بالنظر المخلص
إلى جمال وجهك الملائكي الخالص
جبهتك العاجية وخصلاتك الأبنوسية،
وفمك من صفي اللآلئ صورة
عيناك يجتمع فيهما الحب والحُسن الزين،
حب ونعمة تتدفق على المستحقين.
يا امرأة أنت للبهاء آية،
وللفن والطبيعة معجزة إلهيَّة.

بدَّل دون سيرافينو كلمة واحدة في القصيدة.

غيَّر خصلات الشعر في قصيدة فينتزيانو من «ذهبية» إلى «أبنوسية». والجميل أنه فعلها من دون حتى أن يُدرك ذلك.

سألها:

- هل تريدين أن أترجمها لكِ؟

أجابت دونَّا إليونورا:

- لقد فهمتها جيدًا جدًّا.

اليوم التالي، الذي كان يوم الجمعة، موعد جلسة المجلس الملكي المقدس. حدث أمر خارج عن المألوف.

الذي حدث أنه بمجرد أن أعلنت دونَّا إليونورا افتتاح الجلسة، طلب كبير قادة العدالة الكلمة.

قال:

- أتحدث باسم كل أعضاء المجلس الذين منحوني شرف هذه المهمة. فنحن المستشارين نود أن نوثِّق في سجلات أعمال الجلسة، أن المجلس بكل أعضائه يشعرون بأنهم فخورون جدًّا، لأن كان لهم شرف تقاسم القرارات المستنيرة لنائب الملك، دونَّا إليونورا دي مورا، مركيزة قصر رودريجو، وإنهم يعلنون، بصوت واحد، استعدادهم لأن يتبعوها في أي قرار آخر تتخذه، إذ إن لدينا ثقة غير محدودة في مواهبها الخارقة، والكريمة والرائعة للحكم.

تحدثت دونَّا إليونورا على الفور بعد كبير القادة:

- أشكركم جميعًا على ثقتكم سواء الحاضرة أم المستقبلية. إلا أنني أرغب في أن أقول إن تلك القرارات المستنيرة، كما أطلقتم عليها، التي اتخذتها حتى الآن، كانت ثمار التعليم الأولي الذي تعلمته في السنوات التي عشتها في الدير، أي إن الله قد خلق الإنسان على صورته ومثاله. ومنذ تلك اللحظة التزمت بأن أحترم كل إنسان، بطبيعة الحال من يستحق أن يُطلق عليه ذلك، نظرًا إلى أنه يعكس صورة الله نفسها. ويتبع ذلك التعليم، ذلك الذي ينص على أننا إذا لم نساعد من يعاني، من يعاني الظلم، ومن يعاني الجوع، إذا لم نساعد الأضعف - والنساء كما هي العادة هن الأضعف - فإننا نرتكب بذلك ليس فقط خطية الإهمال، بل أيضًا خطية التجديف الخطيرة. وهذا كل شيء، والآن، إذا لم يكن لديكم مانع، لننتقل إلى الموضوعات الواجب مناقشتها.

نهض السكرتير، فتح فمه، ولكن سكت على الفور عندما ظهر رئيس المراسم على الباب، وهو يمسك بخطاب مختوم بالختم الملكي في يده.

- أطلب المعذرة، ولكن...

قالت دونًا إليونورا:

- ما هذا؟

- رسول وصل الآن بخطاب عاجل من جلالة الملك.

- سأقرأه بعد...

أصر رئيس المراسم:

- أرجو أن تعذريني، ولكن الرسول قال إنه لا بد أن يُقرأ فور تسلمه.

- أعطِني إياه.

تقدم رئيس المراسم، وسلمه إليها.

قالت دونًا إليونورا بينما تكسر الختم الملكي:

- معذرة.

قرأته، وشحب وجهها للحظة، ثم وضعت يدها على حاجبها كأنها تشعر بالدوار.

حبس جميع من في المجلس أنفاسهم.

ثم قالت المركيزة:

- سأقرأه عليكم بالإيطالية، اعذروني على أخطائي.

ثم قرأت بصوتها الثابت المعتاد، بلا أي تأثر، كأن الأمر لا يخصها.

إنه مع كامل أسفي وخالص استيائي يجب عليَّ أن أُصدر إليك الأمر بالعودة فورًا إلى إسبانيا، وأن تتخلي عن سلطتك، كنائب ملك بداية من الأول من أكتوبر.

في انتظار تعيين من سيتولى منصبك، ستؤول تخصصات نائب الملك بصفة مؤقتة إلى كبير قادة العدالة.

إن أمر استدعائك، وهو شيء يهمني إيضاحه، لا يرجع إلى أي شيء من أعمالك، التي على العكس، نالت التقدير الكبير في أعيننا، ولكن فقط كونك نائب ملك صقلية، وحسب القانون الكنسي لهذه المملكة، النائب الرسولي لقداسة البابا، هو منصب لا يمكن لامرأة أن تشغله.

اضطررت إلى أن أصل إلى هذا الأمر في أعقاب طلب ورد من قداسة البابا بهذا الشأن.

إلا أن كل التشريعات التي قامت بها حكومتكم، ونفذتها حتى اليوم، الثلاثين من شهر سبتمبر، في أثناء توليك منصبك، وحيث إنها نُفذت بكل احترام للقانون، وبكامل صلاحياتك كنائب ملك، ستظل سارية ولا يمكن لمن يتولى المنصب من بعدك إلغاؤها، أو تغييرها، أو النقاش فيها، أو عدم تنفيذها.

سقط صمت يشبه صمت القبور.

وبدا على المستشارين كأنهم صُعقوا في مقاعدهم.

الوحيدة التي ظلت متماسكة هي دونًّا إليونورا.

قالت وهي تنظر إلى العرش الخالي:

- سمعًا وطاعة.

ثم نهضت، ونزلت الدرجات الثلاث بخفة، ومدت يدها في الهواء نحو كبير قادة العدالة، ثم بالسبابة الطويلة والمدببة، أشارت إلى العرش الأصغر:

- الآن هو مكان سيادتك.

نهض دون فيليبو أركاديبانه، شاحبًا ويتصبب عرقًا. وقال بإصرار:

- لن أجرؤ وأجلس مكانك في وجودك.

- أرجو أن تنظم إبحاري يوم الأحد، مع وصيفاتي. أود أيضًا أن أطلب أن يرحل نعش زوجي معي.

قال كبير القادة:

- سنفعل هذا.

سأل أسقف باتِّي:

- ولماذا تودين تركنا بهذه السرعة؟

وتحول سؤاله إلى نوع من توسل جماعي:

- لماذا؟

لم تُجِب دونًا إليونورا، وببطء نظرت إلى المستشارين في أعينهم، واحدًا واحدًا. ثم قالت بالإسبانية:

- شكرًا.

أدارت ظهرها وخرجت، كأنها تطفو مرتفعة بعض الشيء عن الأرض.

أول من أطلق العنان لدموعه كان دون فيليبو أركاديبانه.

وبالفعل في ساعة الغداء عرفت المدينة كلها أن دونًا إليونورا لم تعد نائب الملك حسب أوامر صاحب الجلالة، وأنها لا بد أن ترحل يوم الأحد مساءً إلى إسبانيا.

رويدًا رويدًا، وفي الميدان المقابل للبلاط، بدأ وصول متسولين يرتدون الأسمال، وبعض المعاقين والمشوهين، منهم من فقد ذراعًا أو ساقًا، عميان، وعُرج ومن وُلد بإعاقة معينة جسدية أو عقلية. كل واحد منهم يمسك بقطعة من الخبز الذي استطاعوا ابتياعه، لأن الخبز الآن أصبح زهيد الثمن ويمكنهم الحصول عليه.

جاءوا جميعًا ليأكلوه بصمت، وفي امتنان، أمام دونًا إليونورا.

كانت المركيزة آنذاك تناقش بعض الأمور مع كبير القادة الذي أتى ليخبرها بجميع التشريفات المعتادة في حالة وداع أي نائب ملك يرحل، التي لا يمكن تجنبها.

ولكنها لم ترغب في أن تسمع أيًّا منها.

- نظرًا إلى أنني كنت نائب ملك في ظروف استثنائية، لنكمل تلك الاستثناءات حتى لحظة الوداع.

إلا أن دون فيليبو لم يتزعزع.

- سيدتي، أفهم أسبابك. ولكن واجبي أن أخبر سيادتك بأن تصرفك هذا يمكن أن يسبب سوء فهم، أي أن يُفسر بأنك ترفضين أن تقابلي ممثلي هذا الجزء من النبلاء والشعب الذين إذا لم يدعموك، فهم أيضًا لم يناصبوك العداء.

وفي النهاية اقتنعت دونّا إليونورا.

واتفقوا على أنه في الغد صباحًا، من التاسعة وحتى منتصف النهار، سيُعقد حفل التشريف في قاعة المجلس. ثم قضت طوال ما بعد الغداء في إعداد حقائبها، وفي النهاية عندما حانت ساعة تناول الطعام، انتظرت دون سيرافينو طويلًا، لكنه لم يظهر.

وفي لحظة ما، أصاب القلق دونّا إليونورا، ماذا حدث له يا ترى؟ وزاد قلقها إلى حد أنه أفقدها القليل المتبقي من شهيتها.

وذهبت لتنام من دون أن تأكل.

أما دون سيرافينو فقد كان مستلقيًا على فراشه لساعات.

عرف في الطريق من أحد معارفه عن استدعاء دونّا إليونورا، وهرع إلى القصر، وهناك تقابل مع دون فيليبو أركاديبانه، وهو في طريقه إلى الخارج. وحصل على التأكيد المر.

لم تسعفه شجاعته ليذهب إلى أعلى ويقابل دونّا إليونورا.

كان سينتحب مثل طفل صغير.

لهذا عاد إلى منزله وساقاه لا تكادان تحملانه، وألقى بنفسه يائسًا على فراشه.

في التاسعة صباحًا يوم السبت، اكتظ الميدان أمام البلاط بالطوائف الاثنتين والسبعين لباليرمو، و«الآباء المُثقلين». وفي البداية استقبلوا وفدًا مكونًا من ممثلي الطوائف واثنين من الآباء وقاضي التجار.

بلغ عدد ممثلي النبلاء، من أمراء وحاملي ألقاب دوق ومركيز وكونت وبارون، نحو مائة.

ثم حان دور كبار موظفي المملكة. الموثِّق وسكرتير المجلس المقدس الملكي، و...

ولم تتوقع دونًّا إليونورا أن ترى أمامها طبيب البلاط وهو يظهر وعيناه حمراوان كأن البكاء مزقهما.

وبينما ينحني دون سيرافينو ليقبل يدها، قالت له بصوت منخفض:

- سأنتظرك على العشاء الليلة، هذا هو أمري الأخير.

وقضت المركيزة وقت ما بعد الغداء كله مع كبير القادة، وقاضي الملكية وسكرتير المجلس، كان الاجتماع يتعلق بتسليم المهام.

وتعبت يد المركيزة من توقيع اسمها مئات المرات.

عندما انتهوا كان الظلام قد حل.

عادت إلى مسكنها، وسألت رئيسة الوصيفات إذا كان دون سيرافينو قد وصل.

- أجل في الصالون.

- سيعذرني إذا تأخرت قليلًا.

أرادت أن تنزع ملابسها وتغتسل وتتعطر وترتدي ثوبًا نظيفًا ولكن بسيطًا جدًّا، ثوب المنزل، فهي تريد تقريبًا من خلال تصرفها هذا، أن تبدو في عينَي دون سيرافينو، لما تشعر هي بأنها عليه، امرأة وليس نائب الملك الذي كانته.

ولكن حصلت، من دون أن ترغب في هذا، على التأثير العكسي. في البداية، كانت مثل ثمرة مغطاة بالكثير من الأوراق، ولكن الآن، ومن دون أوراقها، فقد ظهرت الفاكهة في ملئها وألوانها وروعتها، في انفجار من الجمال.

سألته وهي تفتح باب الصالون:

- هل نذهب إلى مائدة الطعام؟

بمجرد أن رآها لم يستطع دون سيرافينو أن ينهض على الفور.

تحدثت هي فقط في البداية:

- لماذا لم تأتِ بالأمس؟

- لم تكن لديَّ القوة.

- شعرت بالقلق.

- أرجوكِ سامحيني، ثم...

- ثم؟

- كنت أخشى أن أضايقك، فلا بد أنه كان أمامك الكثير لتفعليه.

- لم يكن وجودك قَطُّ مصدرًا لأي ضيق.

ولم يتبادلا بعدها كلمة واحدة، بل تجنب كلٌّ منهما النظر إلى الآخر. بعدها، وصلا إلى لحظة النهاية.

نهضت دونَّا إليونورا، ودون سيرافينو أيضًا، ولكن بصعوبة شديدة.

أغمضت دونَّا إليونورا عينيها، ثم فتحتهما، تقدمت خطوة نحوه، وفعل دون سيرافينو بالمثل، وأصبحا قريبين جدًّا أحدهما من الآخر.

قالت دونَّا إليونورا:

- لا بد أن نتبادل الوداع.

كان صوتها مثل النسمة.

وأغلقت عينيها مرة أخرى. رأى دون سيرافينو دمعة، واحدة، لؤلؤة تنزل من عينها اليسرى، وتنحدر ببطء شديد على وجنتها، وتتوقف للحظة قبل أن تنفصل و...

تلقفتها اليد اليمنى لدون سيرافينو فوق كفه المفتوحة. ثم قبض عليها بشدة في قبضته المغلقة، وقد أراد أن تتغلغل تلك الدمعة في جسده حتى تسيل في دمه.

وربما حدثت المعجزة، حيث سمع دون سيرافينو صوته وهو يقول:

- سأتبعك.

قالت دونَّا إليونورا وهي تفتح عينيها وتنظر إليه بذهول:

- ماذا؟

كرر دون سيرافينو ما قاله بصوت حاسم:

- سأتبعك.

قالت دونًّا إليونورا:

- ولكنك هنا لديك أمك وأختك...

- ستتفهمان الأمر. يكفيني هنا أسبوع لأنظم أموري، ليس أكثر.

- ولكن في إسبانيا...

- سأعمل طبيبًا، كما أفعل هنا. عندما مرض زوجك، توطدت أواصر الصداقة بيني وبين دون خوان ده توريس، الطبيب الذي أرسله جلالة الملك، ومن حين إلى حين نتراسل... سيساعدني.

قالت دونًّا إليونورا:

- سأنتظرك.

ثم تحررت يدها بخفة في الهواء كأنها فراشة، وراحت تربت على وجه دون سيرافينو.

قالت المركيزة:

- لا يمكنني أن أضمن سوى دعوة على العشاء ثلاث مرات في الأسبوع.

- هذا يكفيني.

أعد قائد البحرية سفينة بحرية قوية لتستخدمها المركيزة. الساعة المحددة للرحيل هي ساعة الغروب، ولكن بدأ شعب باليرمو يحتشد في الميناء منذ الظهيرة.

اصطف ألف جندي إسباني بطول الطريق الذي يقود من البلاط إلى الميناء، وخمسمائة آخرون وقفوا على جانبَي الرصيف الخشبي

الضخم أسفل السفينة، حيث يرفرف علما إسبانيا وصقلية من أحد جوانبها.

وفي الثالثة وُضع نعش نائب الملك على منصة بعجلات تشدها أربعة خيول، ترافقها كتيبة من الرماحين، ووضعت على متن السفينة.

في الخامسة وصلت دونًّا إليونورا بمفردها داخل عربة، خلفها جاءت تلك التي تحمل وصيفاتها الأربع.

كان في استقبالها القبطان الذي قادها إلى المقصورة المخصصة لقائد البحرية.

ثم وصل حاكم المدينة، وأعضاء المجلس الملكي المقدس وكبار الموظفين.

ومعهم وصل أيضًا طبيب البلاط، الذي بدا متأثرًا، ولكن ليس بدرجة كبيرة.

أطلت دونًّا إليونورا.

انفجرت صيحة عالية غطت على الكلمات التي قالها كبير القادة في الوداع الرسمي ولم يُفهم منها ولا كلمة واحدة.

ومن حيث احتشد الشعب، بدا كأنهم يقفون واحدًا فوق واحد أو ملتصقين تمامًا، أخذت تنطلق أصوات الوداع والتمنيات الطيبة، والشكر والبركة، تصحبها تلويحات من مناديل ومفارش وأسمال وقمصان.

كانت دونًّا إليونورا تجيب بأن تلوح بيدها.

ثم بدأ البحارة في رفع المرساة.

فجأة، ساد صمت عظيم.

وفي ذلك الصمت، ارتفع بقوة صوت بيبي جايتانو، شاعر المقاهي والطرقات، وغنى الكلمات التالية:

يحتاج القمر إلى الثمانية والعشرين يومًا كلها،
ليدور حول الأرض بأكملها
تعرف النساء هذا، كما يعرفه البحر
لأنهن يعانين، في العادة، عند ظهور القمر.

استمر حكمك دورة واحدة لقمر ساطع
إلا أنه غيَّر ليلنا إلى نهار لامع
وحققت قوانينك العدل لنا
وأبعدت بعضًا من حزننا.

والآن وقد انتهى عملك معنا،
انظري يا دونًّا إليونورا إلى قلوبنا،
في أعماقها ستجدين فينا،
نفسك، قمرًا صغيرًا، يملك علينا.

ملاحظة

في سجلات تدوين الأحداث كلها الخاصة بنواب ملك إسبانيا في صقلية، فيما عدا واحدة فقط، عندما نصل إلى عام ١٦٧٧، من المؤكد أنه في ذلك العام مات في باليرمو نائب الملك دون أنجيل ده جوزمان، وتبعه في منصبه الكاردينال لويس فرناندو ده بورتوكارِّيرو.

ولكن في الواقع ارتُكِبت، بلا أي تفسير، أو ربما لسبب شديد الوضوح، عملية حذف فادحة.

إذ لم يُذكر أنه بين موت دون أنجيل ووصول الكاردينال بورتوكارِّيرو، في تلك المدة التي لم تتجاوز سبعة وعشرين يومًا، حكمت صقلية امرأة.

ترك دون أنجيل، حين احتضاره، وصية أراد فيها أن تليه أرملته، دونًا إليونورا دي مورا، في الحكم. كانت وصية غامضة، لأنه لم يحدد فيها إذا كانت الأرملة ستتولى منصب نائب الملك بشكل مؤقت، أي مدة انتظار تعيين نائب الملك الجديد، أم أنها ستبقى في ذلك المنصب إلى أن يرى ذلك صاحب الجلالة. في الحالين القرار الأخير كان فقط في يد الملك.

ولكن الجدير بالقول إنها لم تكن المرة الأولى التي يعين فيها نائب الملك، على شفا الموت، قريبًا له كخليفة. في عام ١٦٢٧ عين نائب الملك أنطونيو بيمنتيل، مركيز تافورا، ابنه، مما أثار حفيظة دوريا رئيس أساقفة باليرمو، الذي كان يتطلع إلى ذلك المنصب.

أيضًا في عام ١٦٧٧، تطلع أسقف باليرمو لأن يكون نائب الملك.

إلا أن المجلس الملكي المقدس، وبمن فيه أسقف باليرمو، اضطر إلى الخضوع لرغبة الوصية وأصبحت دونًا إليونورا، المرأة الوحيدة في العالم في تلك الحقبة التي تولت منصبًا سياسيًا وإداريًا بهذا الحجم.

صادفتُ أنا الحدث الخاص بها خلال قراءتي لعمل مهم لفرانشيسكو باولو كاستيليونه، عنوانه: «معجم وجوه ومؤسسات وعادات صقلية التاريخية» (باليرمو، دار نشر سيلِّيريو، ٢٠١٠)(*).

ولكن فيه لم أجد سوى إشارة من بضعة أسطر إلى دونًا إليونورا، موزعة في بعض «المداخل» التي يتكون منها المعجم.

يمكن قراءة بعض الإحالات الأخرى في الجزء الثالث من «التاريخ الزمني لنواب الملك» للمؤلف ج. إ. دي بلازي(**)، الذي حررته مقاطعة صقلية، ويتكون من ذلك الاستثناء الذي سبق أن ذكرته.

(*) Dizionario delle figure, delle istituzioni e dei costumi della Sicilia storica (Palermo, Sellerio, 2010).

(**) Storia cronologica dei Viceré di G. E. Di Blasi.

يتوقف دي بلازي أمام عزل دونَّا إليونورا، الذي حدث، بالتحديد، لكونها امرأة ومن ثَمَّ استحالة أن تتولى منصب النائب الرسولي للبابا، وهو اللقب غير المنفصل عن ذلك الخاص بنائب الملك. ومن رفع هذه المسألة كان أسقف باليرمو، الذي استبعد من منصبه من نائب الملك دونَّا إليونورا، وكان يشكو أنها تضطهده.

مجرد إشارات قليلة، لكنها تكفي لنحصل منها على صورة امرأة غير عادية، استطاعت أن تحصل على احترام لكل ما فعلته في مدة حكمها الوجيزة جدًّا لصقلية.

يعود إليها بالتأكيد الفضل في تخفيض سعر الخبز، وإنشاء مجلس الطوائف، حيث يتجمع أصحاب الحرف الاثنان والسبعون في باليرمو.

أما بشأن الإجراءات التي اتخذتها لصالح النساء، فالجدير بالذكر أنها أعادت تشغيل مؤسستَي حماية العذارى المُعرضات للخطر وتلك الخاصة بالعاهرات المسنات، إذ سبق وأُغلقتا في تلك الحقبة، نظرًا إلى نقص الدعم، بينما يعود إليها الفضل بالكامل في إنشاء ما يُسمَّى بـ«المهر الملكي» و«مؤسسة حماية المادلينات التائبات».

ويرجع إليها الفضل أيضًا في تقليل عدد الأبناء للحصول على المنافع المقدمة لـ«الآباء المُثقلين».

وبما أن الأمر يتعلق بسرد روائي، سمحت لنفسي بالتصرف بحريَّة في أمور عدة. لن أعددها هنا، ولكنني سأكشف فقط عن اثنين منها.

الأمر الأول: لم يكن في إمكان دونَّا إليونورا أن تستخدم ورقة

المفتش العام دون فرانشيسكو بايرو، لأنه كان ميتًا في تلك الحقبة. ظل أسطورة إذ أرسل إلى السجن، بسبب الفساد الإداري أحد أكبر موظفي الدولة، رئيس الميناء فيدريكو آبَّاتيليس، كونت كامَّاراتا، ومعه رئيس خزانة المملكة، والسكرتير وموظفين آخرين. مات مقتولًا بالطعنات بالقرب من فيتربو، خلال رحلة العودة. واعترف فيدريكو آبَّاتيليس وهو على فراش الموت، بأنه من حرض على قتله.

الأمر الثاني: بعد تسلمها خطاب إقالتها، سلمت دونَّا إليونورا منصبها على الفور إلى كبير قادة العدالة، ولكنها مكثت بعض الوقت في باليرمو. إلى حد أن الكاردينال بورتوكارِّيرو، لم يستطع أن يسكن بلاط نائب الملك على الفور، لأنها كانت تشغله، وعندئذٍ اهتم بأن يرسل بطاقة مهذبة لدونَّا إليونورا كتب فيها أنها يمكنها المكوث هناك ما أرادت، حيث عثر هو بشكل مؤقت على مقر له في مقر الأسقفية، الذي من حسن الحظ خالٍ من ساكنه في تلك المدة.

أود أن أشكر ماريا جراتزيا أورسينو لما قدمته من مساعدة، ذكية ومتحمسة، لتحويل حوار دونَّا إليونورا إلى هذا الخليط من الإيطالي-الإسباني المُحبب.

وأشكر في النهاية فالنتينا ألفيري لتعاونها الثمين في مراجعة النص.
أندريا كاميلليري

المؤلف

وُلِد أندريا كاميلليري (١٩٢٥-٢٠١٩) في جزيرة صقلية، ويُعدُّ أحد أعظم الكُتَّاب الإيطاليين المعاصرين.

التحق بكلية الآداب عام ١٩٤٤، وبدأ ينشر قصائد وقصصًا كثيرة في الصحف المحلية، ونشر روايتين لم تُحققا نجاحًا يذكر. عاش في روما وعمل مخرجًا تلفزيونيًّا ومسرحيًّا. وفي عام ١٩٩٤، وبعد أن قرر اعتزال العمل المسرحي، كتب رواية «شكل الماء»، وهي الكتاب الأول في سلسلة بوليسية من الروايات اشتهرت باسم بطلها «المفتش مونتالبانو». باعت السلسلة ما يربو على ١٠ ملايين نسخة حول العالم، كما حُوِّلت إلى مسلسل تلفزيوني حصل على شهرة عالمية. تُعدُّ «ثورة القمر» عملًا استثنائيًّا، وينظر إليها النقاد على أنها الأجمل بين رواياته. حصل كاميلليري على عدة جوائز، ومن أهمها جائزة «نينو مارتوليو الدولية للكتاب».

المترجمة

أماني فوزي حبشي من مواليد القاهرة، عام ١٩٦٨. حصلت على ماجستير في الترجمة، ودكتوراه في الأدب الإيطالي، من كلية الألسن بجامعة عين شمس.

حصلت على الجائزة الوطنية الإيطالية للترجمة عام ٢٠٠٣، وعلى وسام نجمة إيطاليا برتبة فارس عام ٢٠٠٤ لإسهاماتها في نشر الثقافة الإيطالية. وشاركت بعدد من المقالات والأبحاث الخاصة بالثقافة الإيطالية والترجمة، التي نُشرت في مختلف الصحف والمجلات المصرية. وأسهمت في تأسيس صفحة «المقهى الثقافي الإيطالي» عام ٢٠١٧، وهي صفحة تعمل كببليوجرافيا للأعمال المُترجمة من اللغة الإيطالية إلى اللغة العربية.

ترجمت لدار الكرمة: «أصوات المساء» لنتاليا جينزبورج، و«أربطة» لدومينيكو ستارنونه، و«لن نقدم القهوة لسبينوزا» لآليتشه كابالي، و«سأبقى هنا» لماركو بالزانو، و«محادثة ليلية» لساشا ناسبيني. ومن أهم ترجماتها الأخرى: «بندول فوكو» لأومبرتو إيكو، و«ثلاثية أسلافنا: الفسكونت المشطور، والبارون ساكن الأشجار، وفارس

بلا وجود» لإيتالو كالفينو، و«بلا دماء»، و«مستر غوين»، و«ثلاث مرات في الفجر» لآليساندرو باريكو، و«الجبال الثمانية»، و«فتى الجبل» لباولو كونيِّتي، و«اذهب حيث يقودك قلبك»، و«صوت منفرد» لسوزانا تامارو.



«دراما تاريخية رائعة» — بابليشرز ويكلي

«رواية مزدانة بالذكاء الماكر والفكاهة» — الواشنطن بوست

«يقدّم أسلوب كاميلليري الخبيث والساخر في التعامل مع مسائل الأخلاق والسياسة والجريمة والعلاقة بين الجنسين مزيجًا من الحقائق والخيال يصل إلى حد الكمال» — رابطة بائعي الكتب المستقلين في الجبال والسهول

«جوهرة أخرى من جواهر أندريا كاميلليري موضوعة في بيئة تاريخية تشبه بشكل مأساوي واقعنا الحالي» — ويك أب نيوز

صقلية، ١٦ أبريل ١٦٧٧. يُعيِّن نائب الملك كارلوس الثالث، قبل موته المفاجئ، زوجته دونَّا إليونورا خلفًا له. تتعرض دونَّا إليونورا لمكائد عديدة من أسقف المدينة وأعضاء المجلس الفاسدين الذين يعارضون حكمها، فتستخدم فطنتها وشجاعتها لكشف جرائمهم، وتسعى إلى تطبيق تدابير عدة تغيِّر بها حياة سكان باليرمو الذين يعانون الفقر والبؤس.

يعالج الأديب الإيطالي الكبير أندريا كاميلليري ذلك الحدث التاريخي الاستثنائي الذي استمر سبعة وعشرين يومًا فقط - أي دورة قمر واحدة - في إطار روائي يتميز بالتشويق والمتعة وخفة الظل.